فاطمة إسماعيل
دار أسرد للنشر الإلكتروني

أكبر أناني

فاطمة إسماعيل

تأليف / **فاطمة إسماعيل**

تدقيق / **جنَّة أبو النِّيل**

تصميم غلاف: **أميرة محمد**

تنسيق وتصميم داخلي: **مها الجندي**

© جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بنسخ أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل من الأشكال وبأي صيغة أو التصرف فيه بأي أسلوب من الأساليب بدون إذن خطي مسبق من الناشر والمؤلف معاً.

الناشر/ أسرد للنشر الإلكتروني

الوتساب الخاص بالدار: 01113536610
البريد الإلكتروني:
asrud.for.e.publishing@gmail.com

إنَّ الآراء الموجودة في هذا العمل لا تعبر بالضرورة عن رأي دار أسرُد للنشر.

الإهداء:

إلى القلوب التي تنبضُ وجعًا وتضخُ دمًا مسمومًا مُشبعًا بالكُربة والغمِ.

إلى النفوس المتألمة؛ سواءً مِن الحُب أو مِن الحياة..

إلى كُل إنسان ضائع في تلك المتاهة الموحشة المهيبة؛ متاهة الذكريات..

إلى كُل شخص شوَّهَت الكآبة بأنيابها الهصرة ملامحه الملائكية.

إلى كُل شخصٍ قتل المأتم، ذلك الطفل المَغبوط القابع في زوايا روحه.

إلى كُل شخص جرفَت عاصفة الشجو منزلَ أحلامه الدافئ..

إلى كُل شخص يجدُ في الموت لذة حياة حُرمَ مِنها..

إلى النفوس الوحيدة الشفافة غير المرئية؛ تلك التي ترجُ بصراخها مدينة النجوم..

إلى تلك العيون التي تغرقُ وسائدها في سكون الليل ببحرِ مدامعها المالح..

إلى تلك الأرياقِ التي تُبتلع دون دراية أحدٍ، غصّات الترح حادة الأطراف..

الفصل الأول

في ليلة مِن ليالي ديسمبر الكئيبة الباردة..

حينما قبلَ الوسن أجفانَ أطفاله الصغار وداعبَ بأنامله الناعمة أجفان أحفاده الذين يهربون مِن تعب النَّهار وقسوته إلى أحضانِ ليلٍ رؤوم، لوَّحَ لي مِن بعيد صديقي الذي انتظرتُ مجيئه منذ أربعِ سنوات، أشارَ إليَّ مُبتسمًا أنْ أصعدَ إلى ذلك القطار الذي طالَ انتظاره منذ أربعِ سنوات وأنا جثة هامدة في إحدى زوايا الحياة؛ متعفن في كفنِ مجريات الدنيا منذ أربع سنوات وأنا ميت على قيد الحياة.

وأخيرًا، جاء ذلك القطار المَهيب الذي يزرعُ في قلوب الأحياء -مُحبي الحياة- ذعرًا ليأخذني إلى عالمٍ آخر، بعيدًا عن هذا العالم المُظلم الموحِش، وأخيرًا سأصيرُ في عدَاد الموتى وسيعانقني الردى بحنوٍ وسأنعتقُ وأخرجُ مِن ذلك القفص النتن، لكن قبل رحيلي إلى المدى البعيد، وقبل المضي إلى عالمٍ تكون فيه إمكانية الرجوع مستحيلة، وقبلَ أنْ أضمحلَ مِن عالمٍ لا وجود لي فيه، أريد أنْ أهديكِ باقة اعتذارات زاهية تفوحُ مِنها رائحة ألمي وأوجاعي؛ علّها تكون وسيلةً تجعلكِ تغفرين لي جريمتي الشنيعة!

"يكفي سبب بسيط؛ لتحويل الأمور إلى نتائج غير متوقعة".

-غيوم ميسو.

كانَ الجو في الخارج جميلًا، يبعثُ على الراحة ويبثُ في النفوسِ طاقةً عجيبة ويجعلها تواقةً شغوفة تود خوضَ مغامرة شيقة، مغامرة يمكن للمشاعر فيها السطوة على العقل والتحكم به، تلك المشاعر التي تهجم على حين غرة على قلوب المغفلين غير المُبالين بها؛ لأنَّهم ببساطة لا يؤمنون بها ويعتقدون أنَّها مجرد ترهات بالية لا وجود لها مِن الأساس إلى أنْ يتفاجئوا بوقوعهم بشُركها دون سابق إنذار يجدون أنفسهم ومِن دون وعي واقعين في شباك الحُب.

في ذلك اليوم؛ حيث كانَت الشمس ذهبية الملامح تدغدغُ القلوب المرتجفة بخيوطها المُلتهبة حدثَ شيء غريب، شيء في غاية الغرابة، موقف ساذج غيَّر نظرتي للحياة، عاصفة هوجاء هبَّت مِن مكان بعيد فجرفَت معها مدينة كانَت غاية الهدوء، عاصفة مضطربة تُدعى "الحُب" زلزلَت مدينة قلبي الساكنة المطمئنة، موقف سطره لي الله ليكون فيما بعد نقطة تحوّل وتغيير لي في معتقدات لطالما آمنتُ بها..

بينما كنتُ أتمشى برفقة صديقي غيث؛ شابٌ رشيق ذو عينين خضراوين، شعر بني أملسٌ طويل وملامحَ كئيبة. ورغم الاختلاف الشاسع بيننا؛ إذ أنَّهُ كان قد تُوّجَ بلقبِ (العجوز الكئيب) وكنتُ أنا قد حصدتُ وبجدارة لقب (شلال الغبطة) إلا أنني وجدتُ في كآبته

وسوداويته شيئًا يثير الفضول.. شيئًا يدفعكَ للتنقيب بين ثنايا روحه عن سبب قتامته، وأظنُ أنَّه هو الآخر وجد في شخصيتي الجانب المُشرق الذي يستعصي عليه فهم ماهيته، وجدَ فيَّ وبطبعي المرح "الجزء المُتلاشي والميت في روحه"، لذا أعتقدُ أنَّ كلانا كانَ مُكملًا للآخر، كنا نحن الاثنين كتابًا يحملُ بين صفحاته أجوبة سلسة لأسئلتنا اللامتناهية عن الفرق بين الترح والفرح.

في لحظة خاطفة وبينما كُنا مغمورين في الحديث عن الروائي المفضل لكلينا ونوع الكتب التي نفضلُ قرائتها.. لم أشعرْ بنفسي إلا وأنا مُصطدمٌ بفتاةٍ؛ كانَت تمشي بمحاذاتي دونَ أنْ ينتبهَ أحدنا إلى وجود الآخر ويا لها مِن لحظة! في تلك اللحظة بالذات شعرتُ أنَّ الله قد بعثَ لي هدية، بعث لي ملاكًا في غايةِ الجمال.

"في الحياة.. تمرُ على المرء لحظات يتمنى فيها لو أنَّ مفهوم الزمن ليس موجودًا، تلك اللحظات العذبة التي تجعلُ قلبه يتطاير في سماء البهجة، قلبُ المرء هش، بسيط، حنون، ناعمٌ وفيَّاض بالمشاعر، القلوب كالزَّهر يسعدها الحنو والاهتمام ويُشقيها الجفاء والقساوة".

لا أدري ما الذي حدثَ لي في تلك اللحظة التي التَقَت فيها عينَيّ بعينيها، شعرتُ ولوهلةٍ أنّني في مدينة سويسرا.. المدينة الخضراء الخلابة الأخاذة والمعروفة بمدينة (الرّبيع الدائم) تخيلتُ وللحظةٍ أنّني تائهٌ في مدينة تونس.. المدينة السَّاحرة والتي تُعرَف باسمِ

(تونس الخضراء)، آهٍ مِن عينيها وما فعلَت بي لقد سلبَت لُب قلبي! سرقتني في لحظة خاطفة، لقد سلبَت قلبًا، لقد سرقَت شخصًا.

سلبَت قلبي في لحظةٍ، بنظرةٍ خاطفة، استطاعت أنْ تسلبَ مني قلبي وعقلي، اختطفتني، أضافَت إلى حياتي شيئًا مجنونًا عذبًا ورائعًا كروعةِ عينيها. تلك الفتاة أيقظَت قلبي بنظرةٍ واحدة من سُباته العميق بنظرةٍ فقط؛ استطاعت أنْ تقلبَ حياتي رأسًا على عقب، لا زلتُ تائهًا في عينيها عاجزًا وغير قادر على الانتباه لأي شيء عداها، كيف يضيعُ المرء فرصةً كتلك؟ كيفَ أضيعُ على نفسي فرصة التيهِ في بستانٍ أخضرٍ كهذا؟ كيف أفوتُ فرصةَ التيهِ في قطعةٍ فنيةٍ كتلك؟

آه.. آهٍ يا شكسبير ليتكَ ترى عينيها الأخاذتين، تلك العيون التي وصفتها بأنها أعذب لحن في الوجود وكأنَّ الزَّمن أعادَ نفسَه وكأنَّه رجعَ إلى الوراء إلى تلك اللحظات التي كنتَ تسترق فيها النظر إلى عينَي تلك المرأة فتسمع لحنًا عذبًا.

يا الله! مَن كان يتوقعُ أنَّ الأيام سترجع بي إلى ذلك الوقت، حيث كنت أسمع ذلك اللحن والذي هو أعذب لحن في الوجود، أجرؤ على القول، أنه لحن سلس متفرد وساحر لا يسمعه إلا مَن كان محظوظًا..

لم أكن شخصًا يحفظ الاقتباسات التي يقرؤها؛ إذ نادرًا ما أقرأ، ولا أتذكر مما قرأت إلا النذر اليسير وتلك

الجمل التي أعتبرها مميزة وجديرة بأن تعلق بالذاكرة لكنني -ولأول مرة- أتذكر اقتباسًا رائعًا بانسيابية وبدون عوائق والأدهى من كل هذا؛ أنه كان يمثل - لدرجة تبعث على الارتباك- الحالة التي أعايشها في تلك اللحظة.

"يا إلهي! مَن كان يظن أن مستقبلي وحياتي يقبعان في سحر عينيها".

- شوبير.

ما أغربَ الحياة؟ ما أغربها وما أغربَ الصُدف التي تحملها لنا؟!

غريبةٌ لأبعدِ حد قصيرةً، بسيطة ومثيرة. هذه هي باختصار تحملُ لكَ صدَفًا؛ منها ما يسعدُك ومِنها ما يُتعسُك ومَن يدري؟ رُبما تبتليكَ بجنونِ ابنِ المُلوَحِ، وربما تبتلى بما ابتُليَ بِهِ النبي إسحاق عليهِ السَّلام، هكذا هِي الدُّنيا يا صديقي رحلةٌ طويلةٌ متعبةٌ، فإنْ سعيتَ وصبرت، نلتَ مُرادك. وإنْ يئستَ واستسلمتَ، فقد شوهتَ ملامحَ حلمك بيدِك. كلاهما سبيل ولكن الفرقَ بينهما شاسع فالطريق الأوَّل يؤدي إلى السَّعادة، أما الطَّريق الثاني يؤدي إلى التَّعاسة فاخترْ ما يفرحكَ لا ما يجرحَك.

لقد ابتليتُ ابتلاءً شاعريًا بحت، ابتليتُ بما ابتلي بهِ المجنون وابنُ ذريح وابنُ مُعمر والمتنبي وغيرهم..

ابتلتني الدنيا بأعذب وأقسى شعور، أنا مُبتلى. مُبتلى بالعشقِ وابتليتُ بها، ابتليتُ بحُبها استفقتُ مِن غيبوبةِ عشقٍ طويلة نهضتُ مِن فراشي بعد ليلةِ حُبٍ في وضحِ النَّهار واستعدتُ رُشدي بعدَ أنْ تجرعتُ ألفَ كأسٍ مِن خمرِ الهوى، استفقتُ على نبرةِ صوتٍ أنثوي أرقُ وأجمل مِن صوتِ طائر الكناري.

قالَت بنبرةٍ خجولةٍ: عذرًا على ما حدَث..

وهمَت لتأخذ الكتاب الذي وقعَ منذ ثوانٍ.. لكنها لم تستطعْ أخذه بسهولةٍ، لأنَّني أنا أيضًا كنتُ قد هممتُ بأخذه مِن موضعِ وقوعه لمُناولتها إياه، وهِي بِدورها لم ترحمني وقررتْ معاقبة قلبي أشرس وألذ عقاب.

لقد نومَتْ عينيّ وقلبي وعقلي مغناطيسيًا، دوخني جمالِ عينيها الرائعتين، أخذتني إلى المدى البعيد، إلى عالمٍ مليءٍ بالشغفِ، إلى دنيا الحُب ذات السَّماء الشاهقة.

أرجعتني ألف عامٍ للوراء، أحسستُ ولوهلةٍ أنَّ الزمن وهبني فرصة ذهبية، فرصة التيه والتلذذ بإبداع الإله، فرصة الرجوع إلى زمنِ فنٍ راقٍ، مُذيب للقلب ومُريح للنظر. لقد رجعتُ إلى ذلك الزمن، زمن إبداعات آرثر ستريثون، لقد أحسستُ بأنَّه هنا معي وأنني أعيش داخل تحفته الفنية الخضراء.

" Still glides the stream, and shall for ever glide"

لقد وهبني الله هدية فائقة الروعة والجمال، لقد وهبني حُب ملاك مطهرٍ، لقد وهبني مارفل: نغمةً ممتعة مطربة للمسامِع؛ روحٌ رقيقة جميلة أخاذة تسلبُ العقل وتسحرُ العينين، نسمةُ عشق عليلة تهبُ مِن ذاك المكان البعيد.. مِن جنة الهائمين، فتسلبُ قلب المرء دون إذنٍ مِنه تسونامي، هي تلك المرأة.. زلزال.. عاصفة محملة بجزيئاتِ النجوى، علةٌ هي تلك المرأة، سقام يصيبُ القلبُ فيضعفهُ، سهمٌ يصيبُ لُبَّ المرء فيُضنيه ويهرقُ نهرًا ثجاجًا من الدم، دم فوّاح برائحة الصّبا.

يشمها كُل مَن مَرَّ بتلكَ الساحة، ساحةُ المعركة الشرسة المُهيبة، بين الحب والإنسان.

فيرددُ في نفسهِ: الحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به ذلك المسكين، الحُب بلاءٌ عظيم.. سرطان خبيثٌ يصيبُ الجَنون فيُميته. واحسرتاه على هذا المسكين الذي تجرأ وعاند الحُب؛ واحسرتاه على الإنسان الذي وهبَ روحه للعشق فهشمها بضراوةٍ، يا حسرتي عليكَ يا ابن آدم، لأنَّكَ خدِعتَ بنارِ الهوى التي ظننتَ أنَّكَ وإنْ أعطيتها قلبك المُرتجف مِن بردِ الحياة، أنَّها ستحتويكَ وستكون حنَّانة عليك، ففعلَت بك غير ذلك.

لقد أكلتْ مُهجتك بشراهةٍ، التهمَته دون رحمةٍ ولا هوادة، قضمَته بإسنانِ مُلتهبة، فأضحى رمادًا مُتطايرًا

في السماء، رمادًا تحملهُ الملائكة على أجنحةٍ مِن نور وتصحبه إلى هناك، حيثُ لقي غيرهُ مِن القلوب ذات الحتف، حيثُ الفردوس الذي وعدهم بِه الله، إلى جنة العُشاق.

غريب جدًا هو الحُب، إنّه جهنم، نار ملتهبة، هلاكٌ يفتكُ جنون المرء والأغرب مِن كُلِّ هذا وعلى الرُغم من أنَّه موت إلا أنَّنا نوهبُ قلوبنا لهُ برحابةِ صدر وطواعية.

عجيبٌ هو الحُب، لكننا نفوقه عجبًا وغرابة، إذ نرضخُ لَه بكُل رضا وسرور ونركض خلفَ الموت ظنًا مِنّا أنَّه حياة!

نظرتُ إلى الكتاب الذي كان بين يدي "سنترال بارك لغيوم ميسو" والذي كان -و يا لغرابةِ الصُدف- يحملُ لي رسالة، تتَرجمُ المشهد الذي يحدثُ في تلك اللحظة!

"تكفي لحظةٌ واحدة، نظرةٌ واحدة، لقاءٌ واحد، كي تتغير حياتك، يكفي الشخص المناسب في اللحظة المناسبة، يكفي أن تتواطأ النزوة مع الصدفة"

الفصل الثاني

مارفل:

أُدعى مارفل، وقد سماني والدي بهذا الاسم؛ لأنَّني كنتُ هدية الله لهُم بعد سبعِ سنواتٍ مِن الحِرمان المَرير وهبهم الله إياي كجائزة، وهُما بِدورهما قدسا هدية الله الثمينة وأولوها أفضل الرعاية، لقد كنتُ ولا زلتُ -في نظر- والداي، ملاكًا مُرسلًا مِن السماء؛ إذ لا تزال كلمات والدي العذبة ونبرة صوته الحنون محفورة في ذاكرتي.

"فتاتي وفِلذة كبدي، ملاكي الصغير ومُعجزة الرّب لنا، أنتِ يا عيوني جزاء صبري وصبرُ والدتِك على سبعِ سنواتٍ مِن الحرمان المُوجِع، وأسعد الناس هُم مَن صبروا حتى نالوا مكافأة الإله النفيسة ونحنُ يا حبيبتي ولكي نعبر للإله عن مدى امتناننا وشكرنا لكرمه؛ يجبُ علينا أنْ نقدس هداياه الغالية، لذا فلتُصغي إليَّ يا عمري ولتسمعي درسًا؛ الوصية التي يمكنكِ أنْ تعتبرينها قاعدة يجبُ عليكِ تطبيقها حتى آخر نفسٍ تلفظينه، الرّب يا بُنيتي وهبنا أغلى الهدايا، لقد منحنا الروح ووهبنا الحياة، منحنا جسدًا وقلبًا وعقلًا وفضلنا على سائر المخلوقات، نحن يا صغيرتي إبداعات الخالق على الأرض. لذا؛ ولكي نعبر لإله السماوات والأرض عن شكرنا يجبُ علينا أنْ نستغل سنوات وجودنا القليلة على الأرض بأحسن صورة، وأول

شـــيء يجـــبُ أنْ يفعلـــه المـــرء هـــو أنْ يلتـــزم بعبـــادة ربـــه، وأنْ يقـدسَ الهـدايا التـي وهبـه إياهـا الإلـه بـأن يسـتخدمها فـي مـا يرضـيه، لـذا عليـكِ أنْ تعرفـي دائمًـا كيـف تقدسـين الهديـــة وتســـتخدمينها وقـــت الحاجـــة بحكمـــةٍ وعقلانيـــة، فالعقـــل تســـتغيثين بحكمتـــه، وإنْ نـــاداكِ الصـــبا يومًـــا تطيـري كالفراشـة إلـى حقـل عواطفـه الفـوّاح، هنـاك حيـثُ تكـــون الملائكـــة بانتظـــاركِ، لتحتفـــي بعـــروسِ الحُـــب، لا تبخلـي فـي سـقاية قلبـكِ مِـن كـوثر العشـق العـذب، والـروح تسخرينها لمواهبكِ وطموحاتك".

أحـــسُ الآن بيـــدٍ حريريـــة تســـحبني، أســـمعُ همسًـــا عـــذبًا كصـــوت أطيـــاف شـــجية تنـــاديني، أســـتيقظ علـــى صـــوتٍ منبـــهٍ غريـــب، منبـــه غيـــر كُـــل المنبهـــات التـــي نعرفهـــا، ألتفـــتُ فـــأرى ويكـــأن ملاكًـــا مُرســـلًا مـــن الجنـــة يحـــومُ بـالقرب منـي، أسـأله بخجـلٍ: مَـن يكـون ولِمـا أتـى ومـا هـذا المنبه الغريب الذي يصدرُ صوتًا سلسًا؟

فيقبـلُ جبينـي قبلـة مُشعشـعة ويقـولُ: "أنـا يـا صـغيرتي مـلاكُ الحُـب، وذلـك المُنبـه الـذي تسـتغربين عذوبـة رنتـه، جـاء لينبهـكِ وقلبـكِ بمجـيء سـاعةٍ لذيـذة مأنوسـةٍ، لقـد جـاء ليوقظـكِ ومُهجتـكِ مِـن الغفـوة وقـد أرسـلني الإلـهُ لأصـحبكِ معـي إلـى فـردوس العشـق، قـد اختـاركِ الله يـا جميلتـي لتعيشـي تلـك المغـامرة القُرّاحـة الكـؤود، هلُمـي يـا بنيتـي نـذهب معًـا إلـى جنـة الصـبا، هلُمـي معـي إلـى فـردوس الهـوى حيـثُ يُنتَظـر قـدومَ عـروسٍ أخـاذة، تعـالي معـي فقـد

حِيكَ لك فستانٌ من نور وقد ملأتْ لك كأسًا من خمر النجوى من شجرة الكروم المُباركة، لنذهب يا حبيبتي، فقد طالَ الانتظار لنذهب إلى هناك حيثُ يُنتظَر مجيء صاحبة العرس، هلمي يا صغيرتي فالإله يتوقُ لرؤية تلك الأميرة الصغيرة، التي اختارها الحُب"

في حيرةٍ مِن أمري، لا أزالُ أقفُ هنا ما بينَ جهنم وجنة، لا أعرفُ هل أذهبُ أم أبقى هنا؟ أأرفضُ هدية الرَّب وأبقى هنا أمْ أقبلها وأخضعُ لرغبةِ قلبي بالعشق؟

عالقةٌ أنا: ما بينَ سطوةِ حُبٍ وخوفٍ مِن القادمِ، تخنقني الحيرة ولا أعرفُ كيف أتصرف؟ أأستمعُ لعقلي الذي ينبهني مِن الوقوع في المصيدة؟ أمْ أهبُ قلبي للحُب الذي يناديني؟

وبينما أنا محتارة مشتتة الفكر، عاجزة عن اختيار سبيلٍ أمشي فيه ترددَت في مسامعي كلمات أبي وحديثه المُستساغ عن الحُب "إن نادالكِ الحُب يومًا، تطيرين كالفراشة إلى حقلِ عواطفه الفوَّاح لا تبخلي في سقايةِ قلبكِ مِن كوثر العشق العذِب".

يا للزمن كم يمضي سريعًا! البارحة كنتُ ألعبُ وأمرحُ بين أحضان والدي ولا أخشى قساوة الحياة؛ إذ كنتُ أظنُ أنَّني في مأمنٍ من الحزن والألم طالما أنَّ مَن أحبهم باقون معي، يا الله! كم كنتُ ساذجة؟ إذ ظننتُ إنَّ منعطفات الحياة الوعِرة لا تعرفُ إليَّ سبيلًا، كم هي فارغةٌ الطفولة حقًا؟ تمامًا كأولِ صفحةٍ مِن دفتر

المُـذكرات؛ نخـط عليهـا حروفًـا مِـن نـور، حـروفٌ لا تعـرفُ للشـجو معنـى، وفجـأةً يجـفُ الحبـر المشعشـع فـي منتصـف الصـفحة، فنصـابُ بخيبـةِ الأمـل الأولـى، فننـاجي الحيـاة، نـرومُ منهـا مسـاعدة لإكمـال الرحلـة فنتفـاجئ بحنوهـا الفُجـائي علينـا، إذ تهـدينا بـدل قلـم الحبـر قـارورة حبـر ونحـن واحسـرتاه علينـا، نحـن إذ نـركضُ وراء الخدعـة كـالأعمى الـذي يبحـثُ عـن بصـيص النـور، نغمـسُ أقلامنـا الظمآنـة بقـارورةِ الحبـر متجـاهلين ابتسـامة الحيـاة المُبطنـة بالخبـث، ونبـدأ بكتابـة أول حروفنـا علـى أول صـفحة مـن الفصـل الثـاني، فصـلُ الألـم والحرمـان الـذي خططنـاهُ بأيـدينا بسـبب غباوتنـا ويقيننـا بـأنّ الحيـاة حنونة علينا وبأنَّها لن تكسرنا.

نلتفـتُ فنـرى ملامـح الخباثـة تعلـو قسـمات الحيـاة ونشـتَمُ رائحـة كـرهٍ فوّاحـة ونسـمعُ قهقهـةً لئيمـة؛ فنهـرولُ والخـوف قـد سـيطرَ علينـا، نـرومُ الهـربَ مـن ذاك الكـابوس المَهيـب، لكـن دونَ أنْ تُجـدي هرولتنـا بنفـعٍ، إذ أحاطَـت بنـا نـارٌ مضـطرمة، شـكلتْ بـين النجـاة والمـوت حـاجزًا مـن الغيـوم السـوداء الخانقـة، نصـرخُ بصـوتٍ مبحـوحٍ راجـين أنْ يمـدَ لنـا أحـدٌ حبـل النجـاة مـن بئـر المـوت المظلـم. نصـيحُ ونصـيحُ، لعـلَّ صـرخاتنا تصـلُ إلـى مسـامع أحـدٍ؛ فيـأتي لينقـذنا مِـن بـين أنيـاب الـردى الحـادة، ننـادي بـآخرِ نبـرةِ أمـلٍ تسـكنُ أعماقنـا، متـأملين بـأنَّ أحـدًا مـا سـيخرجنا مـن ذلـك القبـر المُـدلهم وبأنَّـه لا

يزال لدينا فرصة لنرى الشمس من جديد، لكن ولسوء الحظ، لم ينصِتَ لصُراخنا أحد؛ إذ كُلما أرسلنا صرخة أملٍ عادَت مُحبطةً تجرُ وراءها ذيول الخيبة، فنوهبُ نفسنا إذا ذاك للموت باستسلامٍ ممزوج باليأس، نرمي آمالنا وأحلامنا في منتصف السبيل ونمضي إلى مثوانا الأخير، يحملنا الموت على أجنحة مُدلهمة ويأخذنا إلى عالمٍ غريب عجيب، عالمٌ لا يشبهُ عالمنا في شيء وكأنَّنا كُنا داخل حلم، فاختطفتنا اليقظة وزجتنا في كهف مُكفهر، كهف الحقيقة المُرعب.

مِن الغباوةِ أنْ نلصقَ صفة البقاء بِمَن نعرفهم، لأنَّنا إنْ فعلنا ذلك نكون في قمة الحماقة، والحماقة تعني أنَّنا نعرفُ الحقيقة لكننا نتصرفُ على غرار ذلك، في النهاية كُل شيء سيختفي إنْ لم يكُن اليوم قد يكونُ غدًا، الصفة الوحيدة المُرتبطة بالأشياء وبِمَن حولنا هي الرَّحيل، حتى نحن سنمضي ذات يوم وحتى الروح التي وهبنا الرَّب إياها، ستتركنا وترحل، لا يوجدُ شيء أبدي وثابت، إلا الرَّحيل.

لا زالَ طيفُ أبي يحومُ حولي ولا زالَت نغمة صوته العذبة تتردد في مسامعي "لا تبخلي في سقايةِ قلبكِ مِن كوثرِ العشق العذب" لن أتردد يا حبيبي، لنْ ألتفتَ ورائي، قررتُ ولن أندمَ مُطلقاً، سأذهبُ يا والدي، سأذهب مع ذلك الملاك إلى ما وراء الشفقِ، سأطير إلى فردوس الصبا بجناحين مُشعشعين، سأروي قلبي

الظمآنُ عشقاً، سأرويه ماءً من الجنة، سأسقيه ماءَ الفردوس المستساغ اللذيذ كالحُب، سأجازفُ وسألبي نداء الصبا لقلبي.

لن أخشى و لن أجبنَ الصبو؛ فالغرام أشبهُ ببستانِ وردٍ أرِج، إن سقيتهُ سقاكَ وإنْ أعطيته أعطاكَ وإنْ جفوتَه جفاك، ولو فكرتَ مجرد تفكير بأنْ تجرحه فسيجرحَك هو كذلك؛ فالورد له قلب وروح وأهلٌ وأصدقاء يحبونَه، من رحم الطبيعة يولَد، وبقلبِ الطبيعة يحيا، ثمَ وفي ليلةٍ ما، يأتي مُختلس نهمٌ ليختطفها باسمِ الحُب، يحرمها مِن نصفِ حياتها ليهديها إلى حياته تعبيراً لها عن حُبه باسمِ الحُب، يحرمُ ذلك اللعوس الوردة المسكينة مِن الحياة باسمِ العشقِ يختطفُ ذلك اللص تلك الوردة من الفردوس؛ ليزجها في جهنمِ الذعر حيثُ لا شفاعةَ ولا رحمة تُرتجى، باسمِ الهدية تُحرمُ تلك الياسمينة هدايا الله لها.

توتر، تشتت وخوف كبير من الآتي، شيء وحيد جيد من بين تلك الكومة من الأفكار السوداوية وهو يقيني التام بأنَّ الهوى لن يخذلني وذاك لأنّي قبلتُ بتلك المغامرة الشيقة بصلادةٍ وشغف وإيمان، كُلي ثقة بأنَّ الهيام سيُضيفُ شيئاً جميلاً لأيامي، واثقة بأنَّه سيضيفُ لِلوحةِ حياتي تفاصيلاً وألواناً مُبهجة، ذكريات وأماكن والكثير من أغاني العشق العذبة، والشيء الأكثر إغراءً في تلك التحفة الفنية هي تفاصيل

مَن يهيمُ به القلب، تلك التفاصيل المُذيبة للجَنان المُذهبة للعقل والتي تقودُ العاشق للجنون.

أقف كقطعةِ جليدٍ أمامه، أتفرسُ النظر في تفاصيله التي شلّتني عن الحركة، لقد سحرني أنه -وإنْ أردتُ- أصفَ بالمعنى الدَّقيق الصدفة التي جمعَتني به، فسأصفُها بالسَّهم؛ سهمٌ صوَّبَه الهُيام في مُنتصف مهجتي، إنَّ الصدفة التي أعيشُ نتاجها في تلك اللحظة تشبه وبشكلٍ كبير "المعركة "، معركةٌ بين جبروتٍ وهشاشة، هو صراعٌ بين قلبِ المرءِ الذي يركضُ نحو ذلك النور المُبطن بالانعطافات وعقله الحكيم الذي يحثهُ على التراجع والتفكير ألف مرَّة، قبل أنْ يقعَ في شِباك الحُب المميتة.

لكن.. قد فاتَ الأوان، فقد أغرى ذلك النور المُشعشع القلب الشغوف وجرَّهُ نحو هلاكٍ حتمي، أجل، فكُل شيء يضعُفُ أمامَ سطوةِ العشق، العقل، الحكمة والمنطق كلها تصبح معدومة الفاعلية، وإنْ أردنا وصفَ الحُب وصفاً دقيقاً.. فيمكننا تشبيهه بالتفاعلات الكيميائية التي تنتج منها الحرارة، كالتفاعل الكيميائي بين حامض الكبريتيك المركّز (H2SO4) وبين كلورات البوتاسيوم الذي ينتج منه الحامض الكلوراتي (HClO3)، أو إحدى المواد الكيميائية الخطرة.. كمركب غاز الخردل، "C4H8Cl2S" ذلك المركب الفتَّاك!

بالمُختصر، الحُب أشبهُ بمعادلة كيميائية مُعقدة.. يتفاعلُ فيها القلبُ مع العاطفة والرغبة، فيُبيدُ العقل ومعتقداته ويطمسُ مخاوفه وأوهامه، كُل القوى، تفقدُ هيبتها أمام الهُيام لا عقل ولا حكمة تُمكننا من تفادي الحُب، هو كوكبٌ آخر، كوكب جديد لا يشبهُ الكواكب التي نعرفها، أكبر من المشتري وأقربُ مِن عطارد إلى الشمس بل يسكنُ في قلبِ الشمس.

إنهُ أصغر من كوكب عطارد وأكثر روعة و صفاءً من كوكب نبتون الزرقاوي، إنه كوكب وردي لا يزورهُ ولا يدركه إلا القلب المُتيم، كوكبٌ يفوقُ الكواكب الأخرى هدوءً وغرابة لا حياة فيه إلا للعُشاق السُكارى بنبيذ الحُب، لكن إنْ لم تكُن أنتَ أو أنتِ على استعدادٍ تام لخوضِ تلك التجربة الشيقة فسيرميكُما كوكب العشاق وسيتخلى عنكما ويهبكما للأرض، تماماً كالأم الحُبلى التي تتخلى عن ابنها فقط لأنَّه لا يشبه بقية الأطفال في شيء، تهديه للجنة قبل أنْ ينعمَ بالحياة فقط لأنَّ عدد صبغياته يزيد على عدد الطفل الطبيعي بصبغية واحدة، وكأنَّه في امتحانٍ مستعصي، امتحان يحدد مصيره أو في عراكٍ عنيف مع تلك الصبغية، فإنْ نجحَ في قتلها عاش وإنْ هزمتهُ هي فموتهُ هو النتيجة الحتمية، يا حسرتي عليك يا صغيري، لقد حُرمتَ حياتك بسبب عيب خُلقي، حُرمتِ فرصة الحياة بسبب صبغية لعينة تجعلُ منكَ شخصًا لا يشبهُ البقية

في شيء فقط لأنَّكَ مُصاب بمتلازمة داون تتخلى عنكَ الحياة ببرودة دم، رفضُ والديك هدية الله لهما، فيرميانها للموت؛ خوفاً من أنْ تكونَ عبء عليهما وكذلك هو الأمر بالنسبة للمُتيم، إنْ كان غطريفاً فثوابهُ النجاة، و إنْ كانَ إجفيلاً، فمصيرهُ موتٌ معجلٌ.

سأقبلُ الهدية التي وهبها الله إياي، سأقبلُ هدية الأقدار الله لي سألبي طلب قلبي وأركض خلفَه، ذلك الذي سحرني وجنني منذ اللحظات الأولى، ذلك الذي أوقع قلبي في مصيدة العشق الفتّاكة إنَّهُ وإنْ أردتُ وصفهُ بدقةٍ، يشبهُ تلكَ الرصاصة التي تخترقُ جناحَي طائر قبرة الغيط المُغرد لألحان عذبة، فتتحولُ تلك السيمفونية المُستساغة إلى لحنٍ مهيب ويتهاوى الطائر المجروح من سماءِ الحياة الصافية إلى أرض غريبة مُخيفة، بيداءٌ لا شيء فيها ولا أحد يتلفتُ لذلك الطائر المسكين بحثاً عن نورٍ أو فرصةٍ للنجاة، فلا يجدُ شيئاً، لا شيء سوى نجمة وحيدة متلألئة في سماءٍ قاحلة، سمعَ صوتَها السلسبيل وهي تغني ترنيمةً مُستساغة تُطرب السامع وتُخبّله، فيسألها بصوتٍ أقربُ إلى الهمس: أيتها النجمة الطيبة، إني تائهٌ مجروح متوجع كما ترين؛ فقد أصبتُ برصاصةٍ ملعونة صباح هذا اليوم لا أعرفُ مَن الذي صوبها نحوي ولا مِن أين أتَت ولمّا رآني أصدقائي على هذه الحالة ارتعبوا وهموا بالرحيل، وكأنهم كانوا قد رأوا صياداً طمّاعاً

يصوبُ أداته الشنيعة نحو مدينتهم لتختطفَ طيراً آخر وتحرمه من الحياة وأنا أيتها النجمة بقيتُ وحيداً كما ترين، لا يوجد مَن يرتق لي جرحي الأليم ولا مَن يخرجني من هذه الأرض المُكفهرة، فهلا ساعدتني أيتها النجمة؟ فلم يبقَ لي أمل سواك.

ابتسمَت النجمة وأجابَت: لا بأس عليكَ أيها الطائر لا بأس عليك، ولا تدع الذعر يأخذ مِنكَ مأخذَه، فأنتَ الآن في مدينة العشق بعيداً عن مدينتك وعن أصدقائك، قريباً مِن قلب مَن تُحب إنَّ الرب يا صديقي يُبعد عنكَ الجميل ليقربَ الأجمل، فلا تحزن إنْ كنتَ قد ابتعدتَ عن تلك المدينة حيث كنتَ فرحاً لا تعرف للحزن معنى، فوالله إنَّ القدر الذي يصعبُ عليك تقبل، سيفرحُ قلبكَ أضعاف فرحكَ المسلوب، أقسم لكَ يا صاحبي أنَّ الله سيعوضكَ، سيجبرُ قلبك المكسور فلا تجزع إنْ قد وقعتَ في بيداء لا نبات فيها ولا حياة، فموسمُ المطر آتٍ لا مُحالة.

هلُم يا صديقي أصحبكَ إلى هناك، إلى حيثُ قُدرَ لكَ أنْ تكون، هلُم إلى مدينة العشق حيث ينتظركَ قدرٌ جميل، تعال يا صديقي تعال معي نذهب إلى هناك إلى مدينة الهوى فإنَّ الحُب ومَن اختارها لك ينتظرانك هناك فاذهب معي ولا تبخل في سقاية ظمآن يرتجي منكَ ولو قطرة ندى.

في تلك اللحظة التي سمع فيها ذلك العصفور المجروح كلمات النجمة التي كانت تشبه أغنية سلسبيل، أغنية تسلبُ رُشد العقلاء وتذيبُ قلوب العشاق، وهبَ نفسهُ وروحه وقلبهُ للهوى ولِمَن يُحب، خطى تلك الخطوة، الخطوة التي تفصل بين عالمٍ عادي وآخر مجنون، أجل! عالم الحُب عالمٌ مجنون، عالمٌ هِجرَع؛ لا يوجدُ فيه مكانٌ للحصيف الرزين بل هو مكانٌ لأولئك المخابيل الذين يمشون وينصتون لقلوبهم، تاركين وراءهم غير منصتين لنداءات العقل المتكررة، عالم الحُب يا أصدقاء أم رؤوم للمذبوبين، كابن المُلوح وليلى الأخليلية، جميل بن مُعمر وولادة بنت المُستكفي، عنترة بن شداد وليلى العامرية، كُل أولئك وغيرهم الكثير، طرقَ الحُب باب قلوبهم على حين غرة، فأضحوا مجانين، سُكارى بسبب تلك الرشفة، رشفة من كأس الحُب ذات الطعم اللاذع، التي ما إنْ رشفتَ منه رشفة تدخلُ في حالةِ ثمالةٍ ناجعةٍ، تأخذكَ إلى عوالمٍ غريبة، غانية فاتنة، عوالم لا حزن فيها ولا غم، عوالم ما إنْ فتحتْ لك بابها واستقبلتكَ برحابةِ صدرٍ، تتمنى ألا تخرجَ منها بتاتاً، إنها كتلك الجنة التي وعدنا الله فيها، تلك الجنة التي ستكون جزاءً لكل صابر متيقن بقدرة الله، ذلك الفردوس الذي هو جائزة وعوَض لكل مُبتلٍ محروم، الذائق من الحياة شتى أنواع العذاب المُبرح المُهلك، تلك العوالم حلم، حلم جميل مستساغ تتمنى ألا تستفيق منه مُطلقاً، أنني وإنْ

أردتُ أنْ أصفَ الهُيام وصفاً لائقاً به: هو كعلاقة القارئ مع الكُتب؛ فالكتب هي الوجبة المفضلة لكل قارئ يتناولها بشراهةٍ ليشبع ميوله وفكره وكذلك حاجته للقراءة، أما الحُب: فهو غذاءٌ للقلب الجائع، المحتاج، المندفع بكل جوارحه نحو تلك الشُهب المشعشعة.

قد تتساءل يا صديقي وتقول وأنتَ تقهقه: كيفَ له أنْ يصلَ إلى تلك الشهب؟ إنها خرافة لا محالة؛ فهو أضعفُ من أنْ يبلغ هذا الشهاب الواقع بين أرضٍ قابعة عليها وسماء شاهقة، هناك مسافة شاسعة ما بين هذا وذاك يا صاح، أنتَ تهذي يا هذا! ذا هذيانٌ ليس إلا.

فأجيبكَ: لا يا صديقي، بل تلك حقيقة وما أقوله لك ليس إلا حقيقة؛ فالحُب يا صاحبي يهبُ لذلك العاشق الشغوف جناحين مُشعشعين يهبهُ حيوية وشجاعة يغلب بها العثرات التي يلقاها أثناء رحلته، ويسقي قلبهُ الظمآن من ذاك الكوثر السلس وعندها لا يدركُ ذلك المُتيم ذاك الشهاب فقط بل يبلغُ النجوم المرصعة والغيوم الرقيقة القابعة هناك في مدينة العُشاق، ذلك الفضاء البعيد كُل البُعد الغريب الذي لا يشبه ذلك العالم في شيء..

الفصل الثالث

مارفل

"وتنمو بيننا يا طفلَ الرِّياح تلك الالفة الجائعة وذلك الشعور الكثيف الحاد، الذي لا أعرفُ لهُ اسماً ومِن بعضِ أسمائه «الحُب»".

_غادة السَّمان.

لقد تغلغل فيّ، أشعرُ به يسري في دواخلي تماماً كالدمِ الجاري في عروقي، بل إنَّه هو دمي الذي إذا ما جفَّ وتوقف عن التدفق مُتّ وهو قلبي نبضاته التي ما إنْ توقفَت عن عزف تلك التوليفة المُفعمة بالحياة، مُت.

هو، كُل الأسباب التي تبقيني على قيد الحياة، بل هو الحياة في عينها، ذلك الصبيحُ الخلَّاب الذي ومنذ اللحظة الأولى تعلقتُ به وكأنّي كنتُ غريقة تريد الموت، اختطفها وكأني كنتُ فريسة الردى التي أراد التهامها بشراهةٍ، أبحثُ عن فرصة للرجوع إلى أحضانِ الحياة، أتلفتُ هنا وهناك وأنا ألفظُ -رُبما- آخر أنفاسي، فأجدُه! طوقُ نجاتي الذي بعثهُ الله لي لينقذني مِن بين براثنِ الموت، كانَ هو: بابتسامته المُغرية وملامحه الساحرة التي أخذت بيدي مِن عمق ذلك البحرِ الهائج، كان هو بعينيهِ البنيتينِ كحباتِ البن شعرهِ الأسود كسوادِ السماء في الليل، السبب الذي جعل

الحيـــاة تبتســـمُ فـــي وجهـــي مجـــددًا وتتشـــبثُ بـــي بكـــل جوارحهـــا كـــانَ هـــو، بنبرتـــهِ الرخيمـــة وأناملـــه الناعمـــة ووجهـــه الأشـــقر، كشـــمسِ الشـــتاء الدافئـــة التـــي تُقبـــلُ بعـــد ســـاعات البكـــاء الطويلـــة للغيـــوم وأيـــام غضـــب الطبيعـــة وجنونهـــا بعواصـــفها ورياحهـــا الفتَّاكـــة، لقـــد ســـحرني، خبلنـــي واختطفنـــي مِـــن بيـــت الســـكينة والهـــدوء خاصـــتي، حطـــمَ القفـــل والأســـوار التـــي شـــيدتها حـــول قلبـــي وانتزعـــه، ســـرقهُ علـــى الـــرغم مـــن كُـــل الوســـائل والطـــرق التـــي اتخـــذتها تفاديـــاً لـــذلك اليـــوم، تلـــك اللحظـــة علـــى وجـــهِ الخصـــوص والآن وقـــد بلـــغَ الحُـــب مبلغـــهُ مـــن قلبـــي، وتلاشَـــت كُـــل الطـــرق ووســـائل الهـــرب، سأمشـــي وراء نصـــيبي، وذلـــك الأمـــر المحتـــوم الـــذي تســـلل إلـــى شـــرايين قلبـــي كمـــا يتســـللُ سُـــم الأفعـــى إلـــى بـــدن المـــرء، «الحُـــب»: تلـــك الكلمـــة التـــي ســـطرتها الأيـــام علـــى إحـــدى صـــفحات كتـــاب حيـــاتي، ربمـــا فـــي الفصـــل الثـــامن أو العشـــرون، لا أعـــرفُ أيـــن تقـــعُ تلـــك المحطـــة تحديـــداً، لكنـــي متأكـــدة وميقنـــة بوجـــود تلـــك المحطـــة؛ محطـــة العشـــق، الســـلسبيل، تلـــك المحطـــة التـــي قـــد تكـــون جـــائزتي ونصـــيبي المُستســـاغ مـــن الـــدنيا وقـــد تكـــونُ عقـــابي الشـــنيع الغلـــيظ، لا أعـــرف إلا شـــيئاً وحيـــداً هـــو أنّـــي -وفـــي تلـــك اللحظـــة- ســـأركبُ ذلـــك القطـــار، الـــذي سيصـــحبني فـــي مغـــامرة شـــيقة غريبـــة، موجعة، وجميلة، مغامرة الهُيام.

كما قالَت غادة السمَّان يوماً: " لن أهربَ من حُبكَ المفترس، تستطيع العجائز أنْ تثرثرَ"، «حُب الرجال كالماءِ في الغربال»، تستطيع الأمواج أنْ تثرثرَ كُل كلمات الهوى، تمحى -لا مُحالة- عن الرمالِ، فليكُن ما يكون.. أحبكَ وأهلاً بالزلزال".

قد يُقال لي كما يقالُ لأي امرأة عداي تلك الأقاويل التقليدية الرثة المعروفة والشائعة عن الرجال، مثل: «الرجل مخادع مُتحايل وغدَّار»، أو: «إياكِ أن تهبي قلبكِ لذلك المعتوه؛ فهو لن يتوانى ولن يبخلَ عليكِ في كسره وطحنه ودعسه بكلِّ برودة»، أو: «لا يغرينَّكِ فكاهة البدايات؛ فالنهايات أمرّ من الهندباء الخضراء حتى»، ذات السمفونية، وذات الكمان يعزفُ أولئك "المتقززون" من روعة الحُب ومِن ذلك النبيذ الاستثنائي ذي الطعم اللاذع، وعلى نفس النمط والمنوال يبقون وذات النصائح يعطون، والذي يزيد الطين بلَّة هو انصاتك لتلكَ الأنغام الرثة العتيقة، ما يزيد الأمر صعوبة هو انصياعكَ لتلكَ الأقاويل البالية، وتركلكَ لمدينةٍ كريمة وحنونة فتحَت بابها لك على مصراعيه، وذلك -أي ما فعلتَه- يُدعى "جُبن " إنْ فعلتَ ما تمليه عليكَ تلك الأقاويل والخرافات تكون كما قلتُ لك مُسبقاً "جبان"، بكل ما تعنيه الكلمة مِن معنى؛ لأنَّك يا صاحبي سحقتَ قلبكَ بيديكَ؛ فقد تجاهلتَ أنينه وأدرتَ ظهركَ له عندما كان جاثياً على ركبتيه يرتجي

منكَ شفاعة، أنتَ قتلته يا هذا، جعلتَه ضحية لكُل مخذول ورعديد، لقد نحرتَه وأرقتَ ينبوع دم متدفق، ذبحتهُ في أوَّل يومٍ لعيد الكُسارى المتوجعين ووزعتَه حصص على الفقراء.

أعطيتَ لكُل فقير حصة، أنتَ تقول: خذوا يا أيها الناس، خذوا ولتروووا عطشكُم وتُسكتوا جوعكم ولتتذكروا ما سأقوله لكم دوماً، أنا هو يا أصدقاء، أنا هو ذلك الجبان الوهن، أنا هو ذلك الرعديد أنا هو ذاك الأناني الذي لا ولم يعرف معنى الشجاعة وحُب المغامرة، أجل هو ذاك صديقكُم الخوَّار الذي وبكُلِّ فظاظة أوصدَ الباب في وجهِ تلك العاطفة الخميصة تلك العاطفة التي قصدَت منزلي في ليلة من ليالي ديسمبر الخَضِلة الذي كان من المفترض كما اعتقدَت هي أن يرَحبَ بها ويستقبلها بلهفة المشتاق لمحبوبته الراجعة بعد هجرٍ طويل، ويحتويها مثلما تحتوي الأم ابنتها المكسورة الكئيبة، لكني وبكُل ما في قلب المرء مِن أنانية، صددتُها وصفقتُ الباب في وجهها، من دون أنْ أشفقَ ولو للحظة عليها ومن دون أن أشعر ولو لبرهة بفظاعةِ الذنب، لقد قتلتها، دهستُها بدواليب الفظاظة والأنانية والكره والجبانة، أنا جبان وأقرُ بخطيئتي أنا رعديد وأعترفُ بذنبي، لذا ولكي لا تقعوا بذاتِ المصيدة التي وقعتُ فيها، سأنصحكُم وربما يكونُ كلامي بمثابة الوصية أقول لكم يا أصدقاء كلماتي التي

وبالنسبة لي هي كمنارةٍ، تلكَ المنارة التي تضيء غرفة نوم الأمواج المُكفهرة، فتؤنسها وتمسحُ آثار الخوف المرتسمة على ملامحها بممحاةِ الحنو والعطف، أقول لكم يا أصدقاء وأتمنى أنْ تكونَ كلماتي كتلك المنارة، مؤنسة مطربة ومفيدة، إنْ قصدَت تلك العاطفة التي تعرفُ بـ «الحُب» منزلكم فاستقبلوها، احتووها وتشبثوا بها، كتشبثِ الميت بخيوطِ الحياة، تشبثوا بها كتشبثِ المريض بيقينِ أمل الشفاء.

لا تفعلوا كما فعلتُ أبدًا، لا تضعفوا وتنصاعوا وراء ذلك الطيف المُهيب، طيف اليأس والخوف، طيف الجُبن والهرب، بل تشبثوا واركضوا وراء ذلك النور المشعشع؛ فالحُب يا أصدقاء فرصة حقيقية تماماً، كالحياة نعيشه مرّة وحيدة، بأصغر تفاصيله وأكبرها.

الحُب كتلك الذكريات المُستساغة الجميلة التي عشناها ورأيناها وأحسينا بها، تلك الذكريات التي كانَت وستبقى أجمل اللحظات التي عشناها في حياتنا المليئة بالمتاعب والعثرات؛ إنَّه يا أصحابي -أي الحُب الأول- شفاف وواضح، كالحقيقة عذبٌ وسلسبيل، مثيرٌ كاعتراف المحبوب لحبيبته بكلمةٍ من أربعة أحرف، كانَت ومنذ زمن طويل عالقة في فمه كما تتعلقُ السمكة بالصنارة التي تحملُ الطُّعم، ذلك الطُّعم الذي -وإنْ أردنا وصفه- فسنُشبهه بأرجوحةٍ، أرجوحة تأخذُ السمكة لعالمِ الموت المخيف، وترجعها لعالمِ الحياة ذو

الألوان الزاهية الأخاذة تارة أخرى، كلمة تُضرمُ كالنارِ في القلب، منذ النظرة الأولى، الضحكة الأولى والحديث الأول بين غريبين، سيصبحُ كُل منهما في الوقتِ القريب أوكسجين الآخر، عيناه التي يرى فيهما ونبضهُ الذي إذا ما توقف وحزمَ أمتعة الرحيل، تنتهي الرحلة ويذهب كُل منهما -العاشق الذي مات والعاشق المخذول الكسير- إلى المحطة الأخيرة "محطة الموت"، تلك الكلمة كالنارِ المضطرمة، تلتهمُ القلب بشراهةٍ ويطفئ تلك النار ماء الاعتراف البارد، يطفئها الخروج من ظلمات الصمت إلى نور الاعتراف، ذلك النور الذي يهبكَ الصلادة لقول "أحبك ".

لن أنصتَ لأحدٍ، ولن أجعلَ روحي وقلبي ضحية للخوف والانصياع وراء أقاويل رثة، لا شأن لي ولا يوجد ذنب قد اقترفتُه، إنْ كان الحُب قد كسر قلب تلك الفتاة، فما ذنبي وذنب قلبي؟ إنْ كانَت تلك الفتاة قد خذلَت ذلك الصبي وهجرته فما ذنبي وذنب قلبي؟ إنْ كانَ ذلك الفتى قد خذل تلك التي أحبته بحُبِّ غيرها، فما ذنبي وذنب قلبي لأحرمهُ وأحرم نفسي مِن خوضِ تلك المُغامرة؟ بالتأكيد لا، وليس لي ذنب، فأنا لم أكُن تلك الفتاة -ولن أكونَ أبداً- التي رضيَت أنْ تكونَ طرفاً، أو شخصية ثانوية في قصة الحُب المثيرة ولستُ أنا ذلك الشيطان -وأعوذ بالله من ذلك التشبيه- الذي وسوسَ الرجل، وطلبَ منه أنْ يتبعَه ويمشي في

طريقِ شهواته المُكفهرة، أنا لست نسخة من أحدٍ ولن أكونَ كذلك أبداً تماماً كالروايات الرومانسية، التي يحبكها الكاتب بخيوط الحُب ولكن على طريقته ومزاجه وحسب ميوله وبخيوطه الخاصة.

ها هو ذا قطار الحُب قد وصل وها أنا ذا قد جهزتُ أمتعة الرحلة المثيرة، إنّي أراها الآن بوضوح، تقفُ على مقربةٍ مني تحملقُ فيَّ وأحملقُ فيها، إنها هي ولا أحد سواها روح الحُب النحيلة المتهاوية والمتبعثرة في خطاها المتنقلة عبر المدن وبين الناس، لتنقل لهم - دون أنْ تعرفَ ذلك- عدوى فيروس فتَّاك والتي هي عدوى فيروس مرض القلب بمحبوبه أو بمحبوبته؛ إذ يصبحُ القلب مريض مضطجع على فراش الموت، لا الوِصال يستطيع أنْ يروي ظمأ شراييه، ولا أظنُ أبداً أنَّه سيطيقُ فكرة بُعدِ روح تقبعُ في أعماقه تماماً، كتلكَ الشجرة التي تقتلعها العواصف المجنونة مِن جذورها والتي هي في الأساس -روحها-؛ إذ مثلما يرحلُ الناس من هذهِ الحياة بسبب الموت، فإنَّ الأشجار أيضاً تذبلُ وتموتُ بمجردِ أنْ تنفصلَ عن قلبها النابضِ..

في النهاية، وبعد كُل المحاولات لأنْ أقرّبَ - بالوصفِ- بينهُ وبين مرض القلب الذي يسببهُ الحُب، فإنَّ للوجع الذي يسببهُ الحُب طعماً آخر ورونقاً آخر، مختلف كُل الاختلاف عن كُل ما يحيطُ به، إنَّه كتلك الزهرة الذابلة وسط بستانٍ مُزهر، تلك الزهرة التي

أثارَت فضول وشفقة كُل مَن حولها مِن أزهارٍ متفتحة فوَّاحة برائحةِ السعادة والحياة والتتوق للمغامرة فتقتربُ تلك الأزهار مستفهمة عن السبب الذي يجعلُ تلك الزهرة مختلفة عنهم، تذهبنَ إلى صديقتهن ذابلة الملامح والروح، مستفسرين معطينَ لتساؤلاتهن اللانهائية جواباً يخمدُ نار الفضول المضطرمة فتقتربُ إحدى الزهور كما قال لها إحدى صديقاتها، وسألَت: مرحباً يا صديقتي، كيف حالكِ؟ جئتُ أطمئنُ عليكِ يا صديقتي وأسألكِ سؤالاً إنْ كنتِ تسمحين لي بذلك.

فردَت: أهلاً يا صديقتي والله لقد أغبطني مجيئكِ كثيراً، وفاض في أعماقي شلالَ حبور لا متناهي، وإذاً تقولين أنَّكِ جئتِ بغية أنْ تسأليني سؤالاً، فما هو إذاً؟

أجابَت الزهرة بتلعثمٍ: أنا.. أنا بصراحةٍ جئتُ إلى هنا برغبةٍ مني ومن صديقاتي، بغية معرفة السبب الذي يجعلكِ في حالةِ الاكتئاب والذبول تلك، فهلا أخبرتني بما يشغل بالك، ربما استطعت أنا وصديقاتي مساعدتك.

تنهدَت بعمقٍ وقالَت: آه يا صديقتي، سؤالكِ هذا، فقط هذا السؤال، أعادَ لذاكرتي فيض من الذكريات والمشاعر التي مضَت وصارَت من الماضي، عادَ إلى ذاكرتي ذلك الضيفُ اللطيف، ذلك النسيمُ العليل الذي يداعبُ خصلات فتاة صغيرة تلعبُ وتمرحُ وتهدي والديها ابتسامة عذبة، لقد داعب قلبي -في لحظة

خاطفة- شعور يحملُ بينَ ثناياه المتناقضات، إنه شعورٌ سلسٌ رائع ورقيق لكن وفي الوقتِ نفسه، هو شعور موجعٌ، مهلكٌ وفتَّاك، يأكلُ قلبَ المرء بشراهةٍ، مثلما تأكلُ النار الحطب، هو شعورٌ يبعثُ على الجنون، لا يعرفُ المرء طريقة، يُرضي بها هذا الكم الهائل من التناقض، هو فقط يبقى في المنتصف بين الفرح والشجو بين السكون والجنون وبين الضحكات والدمعات هذا الشعور يا صديقتي هو «الحُب».

فتسألها الزهرة بنبرةٍ مُرتبكة: أيفعلُ الحُب كل هذا حقاً؟

فتجيبُ: أتعرفين الموت؟ جميعنا نظنُ أنَّ للموتِ شكلٌ واحدٌ، وهو الموتُ الذي نعرفهُ ويعرفهُ الجميع ألا وهو موتُ الروح، أمَّا الحُب يا صديقتي فهو موتُ القلب، ومثلما أنَّ الاوكسجين يُبقي ذلك الشخص الذي يتأرجحُ بين موتٍ مُكفهر وحياة مفعمة بالألوان، فإنَّ المُحب له أوكسجين كذلك لكن أوكسجين مختلف كُل الاختلاف عن الأوكسجين الذي نعرفه، فهو مشبعٌ بكلماتِ المحبوب الرقيقة بنبرةِ صوته الرخيمة التي -لن نملَّ- أبداً من سماعها، بوصالهِ الذي نتمنى ألا نحرمَ منه أبداً، برائحته التي لا تُضاهيها رائحة في العالم بأنفاسهِ وعناقه الدافئين، بنظرتهِ المليئة بالعشقِ، بضحكاته الرنانةِ، وبكلمةِ «أحبك» وهي تهربُ مِن شفتيهِ إلى مسامعنا الظمآنة، هذا هو الحُب يا صديقتي!

فتبتعدُ تلك الزهرة سريعاً لتنضمَ إلى صديقاتها اللواتي قتلهنَ الفضول، وما إنْ وصلتْ إليهُن حتى اجتمعنَ حولها، كما يجتمعُ غيمُ الشتاء الكئيب في سماء النهار لتصير كقطعةِ قماشٍ حريرية يتمنى المرءُ أنْ يحظى بلحظةٍ واحدة يمكنهُ فيها أنْ يلمسَ تلك الغيوم مثلما يتمنى اليتيم لمس أصابع أمه الرقيقة التي منعهُ من لمسها -في ليلةٍ شنيعةٍ-، هذا موتٌ لا يعرف الحنو.

ويبدأ إذ ذاك، الفيض اللامتناهي من الأسئلة وإشارات الاستفهام والتعجُب، لتقطعهُ ضحكة مستهزئة وإجابة أكثر استخفافاً: إنْ كُنتنَ تردنَ ألا يستخفُ أحد بكُن، ابتعدنَ عن هذه الزهرة، ستسألونَ عن السبب بِلا ريب، والسبب هو يا صديقاتي: الجنون هذه الزهرة جنتْ ولم يبقَ في رأسها شيء يُدعى «المنطق»، إنها تتكلم وتقصُ عليّ حكايةً طويلة عن شعورٍ يُدعى "الحُب" هذا الشعور الذي نمقتهُ ونبغضه بغضاً شديداً، الشعور الذي تقشعرُ له الأبدان، الشعور الذي أسكنَ في قلوبنا بالخوف عندما سمعنا عنه أوَّل مرة أنَّه الحُب، الذي سلب عقل ابن المُلوَح، وأذاب جَنان ابن شدّاد وغيره الكثير، ذلك الشعور الذي هو في الأصلِ «انتحار» للقلوب أجل، فبمجرد أنْ يعطي المرءُ قلبه للحُب سيقتلهُ هو -أي الحُب- أو مَن يُحب، لذلك إني أحذركُم، إياكم والاقتراب منها أو محاولة الحديث معها، اتركوها حتى يأخذها الموت، رحمة لها ولنا من

الله، اتركوا الحُب يميتُها كما أماتَ مجنون ليلى قبلها ودعونا نحيا وكأنها لم تكُن بيننا يوماً. فمصيرُ من يلحق قلبه هو الموت، ومصير مَن يلحقُ عقله هو الحياة.

وهكذا صارَتْ الزهرة مجنونة بسبب الحُب، مثلما سأصيرُ ويصيرُ كُل شخص وهبَ قلبهُ للحُب، الشعور الصارم الرقيق، المعطاء الحريص، هو الذي يأخذ قلبك ليعطيكَ بالمقابل روحاً وقلباً تحيا به ومعه، هو الحُب الذي ما إنْ كسرتَ قواعده، عاقبكَ عقاباً شنيعاً.. دون رحمةٍ ولا شفقة، أجل يا صديقي، حتى الحُب الذي تظنُ أنَّه أكثر المشاعر روعةً سيجرحكَ، فاللحُب أيضاً وجهان: فيه الجيد وفيه السيء، فيه الفرح وفيه الترح، فيه الدمعة وفيه البسمة، هو ككل شعور تعرفه وتشعر به لكنهُ شعور استثنائي، يجمعُ كُل المشاعر ويعتنقها، مثلما تحتضنُ الأم ابنها المُعاق وابنتها سليمة البدن لذا، لن أفوتَ أبداً شعوراً استثنائياً كالحُب، سأجازفُ مهما كلفني الأمر، سأهبُ قلبي للحُب ولِمَن أحب، وآمل ألا يكسره الحُب ومَن أحب .

الفصل الرابع

يعقوب:

"مـن الصـعبِ جـداً أنْ نـدركَ اللحظـة التـي سـيبدأ فيهـا الحُـب، لكـن مـن السـهلِ جـداً أن نـدركَ أننـا فعـلاً وقعنـا فـي الحُب"

_هنري وادسورث لونجفيلو.

دخـلَ إلـى مسـامعي صـوتٌ أرقُ وأعـذبُ مـن طـائر الكنـاري، صـوتٌ نبهنـي أنـي هنـا، أحيـا وأتـنفسُ ولـي قلـب ينـبضُ، نغمـةٌ أنثويـةٌ أعـادَت إلـيّ رُشـدي، وأرجعَـت النبضـات لقلبـي بعـدما سـرقها الحُـب بكُـل عنفـوانٍ، حـروفٌ مغلفـةٌ بـالحنو والحنـان، خرجَـت لتأخـذني مـن عـالمِ اللاوعـي وترجعنـي إلـى عـالم الـوعي، كانَـت كلماتهـا كالبوصـلةِ التـي ترشـدُ شخصـاً تائهـاً فـي الصـحاري، كانَـت حروفهـا كفرحـةِ الأم بطفلهـا الـذي أهـداه الله لهـا بعـد سـنواتٍ عديـدة مـن الحرمـان، صـوتها سلسـبيل رائـع ومستسـاغ، إنّهـا هديـة غاليـة اسـتحقها قلبـي وبجـدارةٍ، مثلمـا اسـتحقَت الأم المحرومـة، إحسـاس الأمومـة بعـد مواسمٍ وسنوات من الصبر المرير..

قالَـت بنبـرةٍ خجلـة وعلـى شـفتيها ابتسـامة صـغيرة: اعذرني لم أنتبه، فكما ترى كنتُ أقرأ..

كيف استطاع صوتها أنْ يفعلَ بي كُل هذا؟

كيف استطاعتْ نظراتها أنْ تأخذني إلى مدنِ التيه والحيرة؟

كيفَ لحروفها العذبة أنْ تسرقني من العالم وحتى من نفسي؟

كيف لها أنْ تسكنَ فيّ وتتغلغلَ في دمي وعروقي في لحظةٍ خاطفة؟

أذكرُ أني في يومٍ مِن الأيام، سألتُ غيث سؤالاً أعتبرهُ غريباً -حينئذ- إذ قلتُ له:

-كيف تعرفُ أنَّكَ وقعتَ في الحُب يا صديقي؟

لا أزال أتذكرُ ضحكتهُ الصادحة -وتلك من المرّات النادرة التي ضحكَ فيها- وسؤالهُ لي: ما الذي دهاكَ يا رجل؟ لا تَقُل لي أنَّكَ..

قطعتُ كلامه قائلاً: أني ماذا؟ واقعٌ في حُب امرأةٍ ما مثلاً؟ كلا أيها الغبي، أعني أنت، حينما وقعتَ في الحُب.. كيف عرفتَ وكيفَ اعترفت لها؟

وكأني بسؤالي هذا، كنتُ قد كسرتُ قلبهُ وحولته إلى فتاتٍ، وكأن سؤالي هذا كانَ قد طحنَ قلبه، كما تُطحَنُ حبّات البن، إذ أجابَ إجابة مقتضبة: أتذكرُ الاقتباس الذي قلتهُ لي؟ ذلك الاقتباس الذي قلتَ عنهُ أنهُ وبشدةٍ يخصني أنا؟

قلتُ بشكلٍ لا إرادي، إذ تغلغلَ الاقتباس في ذاكرتي:

-"أنت تستحق أن تكون في حياة أحد يراك ثامن العجائب".

_أحمد عبد اللطيف / عن أشياء تؤلمك.

فقالَ مؤكداً: هو ذاك، أدركتُ يا صاحبي وبعد فوات الأوان، أنَّه يشبهني ويخصني جداً!

فقلتُ مرتجياً: لِم لا تحكي لي يا هذا مَن هذه، مَن تكون وما حكايتكَ معها؟

فقال ببرودٍ: اترك الوقت والصُدَف توضحُ لكَ كل غامض يا صاحبي، لا تستعجل الأشياء؛ فرُبما يكونُ ما تستعجل حدوثه، سبباً في تحطيم قلبكَ إرباً، خذها كنصيحةٍ، وإنْ استطعتَ، آمن بكُل حرفٍ منها، كُل شيء يحدثُ معنا، يكونُ نتيجةً أو سبباً لخطءٍ ارتكبناهُ أو ارتكبهُ غيرنا، قد لا تُصدقُ ما أقول أو قد تتخذني كأبله، لكننا مرتبطونَ كارتباطِ الدقائق بالثواني ومنها بالساعات.. أو إذا أردتَ شيئاً أشد من ذلك ارتباطاً فبإمكاني أنْ أقولَ لك، أنَّنا مرتبطونَ بكُل شخص نلتقيه كارتباط اسمنا باسمِ والدنا ومنه بجدنا وما بعده من أسماء كثيرة، لكُل شخص نلتقيهِ في حياتنا حكاية يسطرها معنا وهو كذلك له معنا قصة يكتبها، كل شخص نقابله في طريقنا، له بطريقةٍ أو بأخرى تأثير علينا، فمِن الناس مَن يجعلكَ تحُب نفسكَ وتدللها، ومنهم مَن يجعلكَ تكرهُ نفسكَ وتُذلها، الفرقُ بين الإذلال والدلال بسيط، لكن مَن يهين نفسك ويجعلونَكَ

تكـرهُ نفسـك، أكثـر بكثيـرٍ مِمَـن يجعلونـكَ تحبهـا الكسـرُ كثُـر يـا صـاحبي، لـذلك تـرى أغلـبَ النـاس يبحثـونَ عـن شـخص واحـد مِـن بـين مئـةِ شـخصٍ يخفـفُ عـنهُم وجعَهم ويجبرُ بأفعالهِ وكلامه اللين، قلبهم المكسور.

فهمـتُ حينهـا ومـن خـلال تلميحاتـه أنَّ قلبـهُ قـد تكسـرَ بأيـدي تلـك المـرأة التـي أحبهـا يومـاً ولـم أشـأ أنْ أتبـع غريـزة الفضـول أكثـر مـن ذلـك، فأوقفتهـا عنـد هـذا الحـد تاركـاً تتمـة القصـة للأيـامِ والصُـدف كمـا قـال صـاحبي: لتحكهـا لـي عنـدما تحـين الفرصـة المناسـبة والوقـت المناسـب كـذلك فأنـا لا تربطنـي بغيـث سـوى الصـداقة ولا شـيء غيرهـا؛ إذ لـم أكُـن معـه ولـم أرَ شـيئاً مِـن قصـته الموجعـة تلـك، فقـد تعرفـتُ عليـه بعـد مـرورِ عـدة أشـهرٍ علـى علاقتـه الفاشـلة تلـك، إذاً لا شـأنَ لـي بألمـهِ إذا لـم تكُـن لديـه الرغبـة فـي أن أشـاطره إيـاه فـي النهايـة نحـن أصـدقاء، علـى الأقـل فـي الوقـت الـراهن أمـا فـي المسـتقبل، فـلا أدري مـا يمكـنُ أن يحصـل.. ولا أريـدُ أنْ أعرف أبداً إذ كما قالَ جبران خليل جبران:

"كـي يبقـى الجميـل فـي عينيـكَ جمـيلاً.. لا تقتـربْ منـهُ كثيراً".

لـذلك، أحـب دائمـاً أنْ أجعـلَ بينـي وبـين الألـمِ مسـافة صـغيرة.. أتجنـبُ مـن خلالهـا عواقبَـه المحتملـة، ممـا يسـهلُ علـيّ التعـايش مـع الأمـور السـيئة التـي -بـلا ريـب- قـد تواجـه الأشـخاص يوميـاً، فـالنفَس الـذي أتنفسـهُ نعمـة،

والبصر الذي به أرى كُل شيء مِن حولي نعمة، النبض الذي ينبضهُ قلبي، اللمسة التي أميز فيها ملمَس الأشياء، السمع، المشي، البدن السليم، وكُل يوم الذي أستيقظ فيه خالياً من العلل، هو كذلك نعمة يجبُ عليّ أنْ أشكر ربي عليها.

حتى الابتلاء الذي يصعبُ علينا في كثيرٍ من الأحيان أنْ نتقبله نعمة، إنْ أردتُ أنْ أعُد كم نعمة لدي فإني قد أمضي دهراً بكاملهِ دونَ أنْ أنتهي مِن العد، فنِعَم الله لا تُعدُ ولا تُحصى، عليكَ فقط أنْ تتعاملَ مع الحياة على أنّها مغامرة ممتعة، وستشعرُ وقتها بالراحةِ والرضا، وتتقبلُ كُل ما يحدثُ لك ومعك، المسألة سهلةٌ جدا، عليكَ فقط أنْ تقتنعَ، القناعة أهم شيء، أما إنْ أمضيتَ عُمركَ متوجعاً على ما ضاعَ منك، فستبقى عالقاً في ذلك المكان الحالك.. عليكَ أنْ تمضي قدماً يا عزيزي.

فالحياة رحلة طويلة وشيقة، إنها كروايةٍ ممتعة تتألفُ منْ ستة أجزاءٍ -مثلاً- سترى القارئ يأكلُ الورق بشراهة.. دون مللٍ ولا كلل، ذلك لأنَّه يعشقُ القراءة ولا يسمحُ لأي عثرةٍ يصادفها، أنْ تكبحَ شغفه وتوقفهُ عند نقطةٍ ما وهكذا هو الأمرُ بالنسبةِ للحياة، تحتاجُ إلى مَن يمضي فيها قدماً، لا لِمَن يستسلمُ مِن العثرةِ الأولى.. ويجعلُ قلبه وفكره ووقته كُله لذلك اليوم ولتلك اللحظة، اللحظة التي أطلقتْ فيها الحياة رمحها الأوَّل أجل، فالحياة تقتُل المرء كل يوم وبشتى الطُرق

تقتلــهُ بالفقــدِ، بالخيانــةِ وبالخســارة، وذلــك النــوعُ مِــن المــوت يُـدعى «المــوت الصــغير»، وهــو مــوتٌ بإمكاننــا النجـاة مِنـه إنْ أردنـا، عـن طريـق قتـل الـذكريات الشـنيعة، لتولـد بـدلاً مِنهـا ذكريـات رائعـة، مثلمـا يُخلـقُ الجنـين فـي رحــمِ الأم التــي أجهضَــت مــرَّات عديــدة.. إذ يعوضــها الخــالق الكــريم، بهديــةٍ تُنسـيها ألــمٌ عاشــتهُ ســابقاً، يمكننــا تلخـيص العِبـرة باختصـار: أمامـكَ فرصـةٌ وحيـدة لتحيـا، إمــا أنْ تســتغلَها وتضــيعها، كُلنــا نمُــر بظــروفٍ وأيــامٍ عصـيبة، لكـن هنـاك أُنـاس -وهـم قليلـون- يتخطـون العقبـة بقلــبٍ وبــروحٍ مرحــة، إنَّهــا -أي الحيــاة- كســباقِ الخَيــلِ، والنـاس هُـم «الخيـول»، فمـنهم مَـن يسـتطيعُ تخطـي العقبـة ليُكمـلَ السـباق ومـنهم مَـن يقـفُ عنـد تلـك العقبـة ويقـررُ الاستســلام لليــأسِ والقنــوط.. ســاد الصَّــمتُ لبضــعِ دقــائق ثُـم قطعَـه، مُبتسـماً نصـف ابتسـامةٍ، تلـك التـي يتبسـمُ بهـا المرءُ، عندما يحاولُ إخفاء ما تعجُ به دواخله، وقالَ:

أنــتَ ســألتَ ســؤالاً، وأنــا ســأجيبكَ علــى مــا ســألتَ يــا صـاحبي سـتعرفُ أنَّـكَ وقعـتَ فـي الحُـب فـي اللحظـة التـي تشـعرُ فيهـا أنَّ قلبـك ينـبضُ بجنـونٍ، سـتعرفُ أنَّـك عاشـقٌ لتلـك التـي ستصـادفها يومـاً فـي اللحظـة التـي تـرتعشُ فيهـا روحــكَ، بمُجــردِ ســماعكَ للفظــةِ اســمها، ســتُدركُ أنَّــكَ أحببتَهـا، منـذ النظـرة الأولـى، رعشـة اليـد الأولـى، منـذ الموقــف الأوَّل والحــديث المغلــف بالخجــلِ والارتبــاك، ســتعرفُ أنَّــكَ واقــعٌ فــي عشــقها، عنــدما تهــبُ عليــكَ

كالعاصفة لتخلس عقلكَ وتزلزل نبضات قلبك، ستعرفُ أنَّ الحُب طرقَ بابَك، في اللحظة التي لا تسمعُ فيها صوتاً عدا صوتها، ولا تأنسُ روحكَ إلا بقربها ستعرفُ الحُب، عندما يصيرُ الوقت والانتظار أكثر شيئين تمقتهما والوِصالُ ولقاء المحبوبة، أكثر شيء تحبه وترتجي ألا يزول.. هذه هي دلالات الوقوع في الحُب، فإنْ حصلَ وراودتْكَ إحدى هذه الدلائل، فاعرف حينها أنَّكَ واقعٌ في الحُب!

الآن فقط الآن، أدركتُ أنّي غارقٌ في بحر الحُب، أشعرُ بقلبي الذي يتشرب تلك المرأة، كتشرب الورد الجوري لقطرات الندى.. أشعرُ بها تنمو وتنتشرُ في عروقي، مثلما تنمو وتنتشرُ الورود في فصلِ الربيع؛ لآن، فقط الآن.. أشعرُ بقلبي يرقصُ ويتمايلُ على أنغامِ الحُب، مثلما يرقصُ ويتمايلُ العروسان فرحاً أمام المَلأ.. الآن، فقط الآن، أشعرُ بمهجتي وروحي وكُلي، ينجذبُ نحوها مثلما ينجذبُ الحديد نحو المغناطيس، تلك المرأة أذابَتني كذوبان الثلج بفعلِ الحرارة، جعلَت قلبي ينصهرُ مثلما تنصهر المواد الكيميائية، تلك المرأة هي كيمياء خاص كيمياء يختلف كُل الاختلاف عن الكيمياء الذي نعرفه، فالكيمياء التي نعرفها، تؤثرُ على المواد، أما هي، فإنها تؤثر بالروحِ التي تلتقيها أو تعرفها.

أجبتُهـا بحـروفٍ مبعثـرة: لا عليـك، لا تعتـذري، لا بـأس يا...

ابتسـمَت وقالـتْ وهـي تصـافحني بكفهـا الأملـد: مارفـل، اسمي مارفل.

فـرددتُ بنبـرةٍ مرتبكـة: وأنـا يعقـوب، تفضـلي كتابـكِ، وأعتذر على الوقت الذي أضعتيه بسببي..

ابتسمَت وقالَت: لا عليك، سررتُ بلقائك.

_ وأنا كذلك.

ومضـى كُـلٌ مِنـا فـي طريقـهِ لكـن، مضـينا شخصـين مختلفـين تمامـاً عـن الشخصـين اللـذين كُنـا عليهمـا قبـل التلاقـي، مضـينا مـع شـعورٍ لا مُتنـاهٍ، شـعور ينمـو ويتعـاظمُ ويتضـخمُ كُـل لحظـة، مثلمـا ينمـو الطفـلُ داخـل رحـمِ أمـه شـعورٌ يُباغـتُ المـرء فجـأة ويخطـفُ قلبـه.. مثلمـا يُباغتُـه المـوت ويخطـفُ مِنـه الـروح التـي تربطـهُ بالحياة، شعورٌ يُدعى «الحُب»...

الفصل الرابع

مارفل:

ذهب، وأخذ معه أكثر شيء يربطُ المرء بالحياة، ذلك اللص صاحبُ أجمل حدقتين بُنيتين، تلك التي اقتبسَت مِنهما القهوة وقطعة الشوكولاتة، اللون البُني المُبهِر كعنوانٍ مُلفتٍ للنظرِ -غيرةً مِن محبوبي-، ذلك الفتى سرقَ قلبي ومضى، أفقتُ مِن سباتي الهادئ لأرى، مَن يكونُ ذلك الشخص الذي سرقَ قلبي وهرب فإذا بنا نتلاقى، يرتطمُ كُلٌ مِنا بالآخر، أرى قلبي بين يديه فأحاولُ أنْ أسترجعه، لكن دون جدوى؛ فقد تشبثَ به، مثلما يتشبثُ الطفلُ المذعور بأمهِ وقبل أنْ يهربَ.

قال لي: أنتِ تخصيني، وقلبكِ الذي أحمله بين أصابعي المرتعشة لي، هذا شيء يجبُ أنْ تتيقني به، لا تحاولي الهرب مِني فأنا لك، مهما حاولتِ اللحاق بي -ظناً مِنكِ- أني لربما أتعبُ، وأقفُ معلناً استسلامي، عليكِ أنْ تعي أننا مهما حاولنا الهرب مِن ذلك الشعور فإنَّه سيظهرُ أمامنا، في كُل مكانٍ وزمان، مهما حاولنا أنْ ننوصَ مِن بعضنا، فسنصادفُ بعضنا في كُل الأمكنة وكُل الأزمنة، لأنَّ هناك شعورٌ يجذبُ قلبانا نحوَه، شعورٌ لا نعرفُ متى يبتدئ ولا متى ينتهي، يأتي فجأة ويذهبُ فجأة وهذا الشعورُ هو «الحُب»، الذي يجعلكِ -وفي لحظةٍ خاطفة- لصة متمرسة تسرقُ قلب الرجل وعقله، بنظرةٍ مِن عينيها، أو بابتسامةٍ من ثغرها، في

الحُـب تكـونُ المحبوبـة جانيـة، والمُحـب ضـحيتها أو يكـونُ الحُب جانياً والمُحبان ضحاياه.

الآن، لا أعــرف أيــن موضــع ذلــك الرجــل مــن تلــك المعادلـة، لكنـي أعـرف جيـداً أننـي ضـحية تلـك الصـدفة، وأنَّـه بابتسـامتهِ الخجولـة، نظرتـه الثاقبـة ونبرتـهِ الرخيمـة، أضـرمَ نـار الهُيـام، التـي لـم ولا ولـن تنفـكَ عـن أكـلِ قلبـي بـنهمٍ، فالحُـب عاطفـة دائمـة الجـوع، تتلـذذ بالتهـامِ قلـوب العُشاق دونما شبع..

يعقوب

في الطريق، أثناء رجوعنا إلى المنزل لاحظ غيث التغير المُفاجئ الذي طرأ عليَّ، فسألني بقلقٍ:

-ما بكَ يا يعقوب؟ منذ ساعتين وأنتَ على هذه الحال.

-لا شيء، معدتي تؤلمني قليلاً، لا تشغل بالك بي.

-أمتأكد أنت؟

-قلتُ لك، لا شيء مهم، مجرد ألم في المعدة.

-حسناً، فهمت لا داعي للانفعال!

لـم تكُـن معـدتي هـي الوحيـدة التـي أطلقَـت العنـان للألـم، بـل نصــف جســمي؛ إذ شــعرتُ برأســي يــدور فــي حلقــة لا متناهيـة وكـذلك قلبـي الـذي انتابـه وبشـكل مفـاجئ نوبـة ألـم حاد.. كأنَّ أحداً ما يرميه بالسهام دون توقف.

-يعقوب!

صرخَ غيث ساناداً إياي على كتفه، هتف: ما بكَ يا رجل؟

-لا شيء، أنا مرهق فقط.

-يجب أن ترتاح، سأصحبك إلى المنزل وسأقول لوالديك ما جرى، كي يمنعاك من المجيء غداً.

قلت مستغيثًا:

-أرجوك لا تفعل!

قال جازمًا:

-لا مجال للعناد، ستغيب غداً!

أجبته بنفاذ صبر:

-حسناً، كما تريد .

عندما دخلنا المنزل، أسرعت أمي لتأخذ بيدي إلى السرير، أما غيث فبقي مع والدي في غرفة الجلوس، عندما تأكدَت أمي أنني استلقيت في السرير، سألَت بعطفها المعهود:

-أهي آلام المعدة ثانية؟

-كالعادة، أجبتُ مبتسماً.

-ألا يسعكَ نسيان ذلك الحادث يا ولدي؟

-للأسف لا أستطيع يا أمي.

-مضَت عشرون سنة، فعلنا أنا ووالدك كُل ما بوسعنا لجعلكَ تنسى ما حدث.. لكن لا جدوى، إذ كلما اعتقدنا أنكَ تخطيتَ الواقعة، يتبين لنا أنكَ تتغلغل فيها أكثر من ذي قبل! قالَتها بنبرة يشوبها الألم.

-لا تشغلي بالكِ يا حبيبتي، ستأتي لحظة أنسى فيها كُل ما أوجعني، فقط أمهليني بعض الوقت.

-كلام مستهلك، لقد أمهلتك دهراً و لم ألحظ أي تغيير، قالَت ساخرة.

-ثقي بي، هذه المرة سأفي بوعدي!

-أتمنى ذلك يا عيوني، قالَت وهي تمسحُ جبيني بكفها الناعم.

عندما خرجت من الغرفة، رأيتُ غيثًا قادماً فتصنعتُ النوم بحجةِ الإرهاق، فقالَ مداعباً، موجهاً كلامه لوالدتي:

-أرى أنّ مجيئي يزعجه يا خالتي، فقد اختبأ تحت اللحاف عندما عرف أني جئتُ لغرفته.

-تمهل يا صاحبي! ألستَ أنتَ مَن جلبتني إلى المنزل لأرتاح؟ قلتُ وأنا أرميه بالوسادة.

-ربما كنتُ مخطئاً، لأنني أرى أنّكَ تعافيت وصرتَ قادراً على أن ترميني بالوسادة.

-وسخيف أيضاً.

ضحكنا كثيراً، إلى أن جاءت أمي بفنجانِ القهوة لغيث، قدمت الفنجان ثم جلست على الأريكة التي بمحاذاتي وقالت:

-ألا ترى أنَّ نوبات ألم المعدة، كثرت في الآونة الأخيرة؟

-أخشى أن هناك امرأة جميلة تُفقد يعقوب أعصابه يا خالتي، قال ممازحاً.

-غيث! لستُ في مزاج يسمح لي بمجادلتك، أرجوك أريد أن أرتاح قليلاً.

-حسناً، لا داعي للغضب يا صاحبي، سأخرج، قال بهدوء.

-ولا تعُد لذكر هذا الموضوع ثانيةً رجاءً، قلتُ مترجيًا إياه.

-وما المشكلة في ذلك؟ قالَت أمي، صديقك يريد أن يراكَ سعيداً، يريد مساعدتك كي تتخطى تلك الذكرى الشنيعة وبما أننا لم نفلحْ في انتشالكَ من عتمتك، أرى أنه لا بأس في أن تحِب لعلك تجد في الحُب عزاءً.

-هكذا إذاً، قلتُ: الحُب ليس سهلاً كما تعتقدين يا أمي، إنه أصعب مما تظنين؛ إنه شعور ذو وجهين، قد يجدُ فيه المرء عزاءه وقد يجد هلاكه بالمختصر، الحُب ليس سبباً للنجاة كما تظنين..

قال غيث الذي كان يقف خلف والدتي، والذي امتقع وجهه فجأة:

-ربما تكون محقاً..

التفتتْ أمي صوبه وقالَت: ماذا الآن؟ ما هذا التناقض؟ قبل قليل كنتَ تقول أنَّه ربما يتعافى بفضلِ الحُب، والآن تغير رأيك وتوافقه في وجهة نظره؟ لا يمكنني أن أصدقك حقاً، لا أستطيع التصديق!

أمي لا تعرف شيئاً، لا شيء أبداً عن حكاية غيث مع تلك المرأة الغامضة، قاطعتها قائلاً:

- صدقي أو لا، قلتُ: لكُل منا وجهة نظره يا أمي.. وأنا أؤمن جدًا بمقولة فيكتور هوغو عن الحُب: "الأمور الوسط لا يعرفها الحُب، فهو إما أن يُنقذ وإما يُحطِّم، الحُب حياة إن لم يكن حتفاً".

-غير صحيح، الحُب ينجح في إنقاذ أكثر الناس وجعاً!

-مسألة النجاح تلك، ليسَت أكيدة، الحُب لا ينجح في كل الأحوال..

-لا فائدة من مجادلتك، قالَت أمي: أنتَ لم تذق طعم الحُب بعد، لكني متأكدة، أنكَ عندما تحب سيتغيرُ كل شيء، على كل حال سأتركك لترتاح، هيا لنذهب يا غيث.

مـا إن خرجـا و أغلقَـت البـاب، حتـى تنفسـتُ الصـعداء؛ هـي محقـة فـي كُـل مـا قالَتـه عـن الحُـب، لكنـي كنـتُ مضـطراً لأن أبـدي ردة فعـل مغـايرة حتـى لـو كانـت مزيفـة، علـى الأقـل أمـام غيـث، صـاحب القلـب المحطـم بسـبب الحُـب، لأنـي لا أريـد أن أتبـاهى بالحُـب أمـام شـخص عـانى بسـببه.. لكـن الآن و بعـد أن تلاشـى مـن أمـامي، بإمكـاني أن أكـون أسـعد شـخص فـي العـالم، كيـف لا؟ وأنـا عاشـقٌ لصـاحبةِ أجمـل حـدقتين، كيـف لا؟ وقـد ذقـتُ طعـم الحُـب أخيـراً، الشـعور الـذي ربمـا يخرجنـي مـن دهـاليز مـاضٍ مـؤلم ويسـاعدني علـى التغلـب علـى ألـمٍ زرعـهُ الـزمن فـي قلبـي، ربمـا بفضـلِ الحُـب.. أتخطـى عقبـة الفقـد وأنسـى ذلـك الكـابوس الشـنيع، الـذي لا ينفـك يطـاردني منـذ عشـرين سـنة، ربمـا بفضـل تلـك المـرأة وابتسـامتها العذبـة، تتلاشـى تلـك اللحظـات الموجعـة، لتحـل محلهـا لحظـات أجمـل، لحظـات يشـوبها الهـدوء والرِّقـة، الضـحكات والفـرح لحظـات يطغـو فيهـا الحُـب علـى كُـل شـعور سـيئ ليكـون هـو وحـده، بكُـل مـا فيـه مـن غبطة وجمال، سيد الموقف واللحظات.

غفـوتُ مغتبطـاً، مرتـاح البـال ومنفـرج الأسـارير يجـبُ أن أرتـاح، وأن أتغلـب علـى آلام المعـدة، يجـب أن أتعـافى وبسـرعةٍ؛ لأتمكـن مـن لقياهـا ثانيـةً، لأتـوه فـي دهـاليز عينيهـا الخضـراوين، يجـبُ أن أغلـب الألـم، لأتمكـن مـن

الـذهاب فـي رحـلات لا متناهيـة إلـى مدينـة الربيـع الـدائم، القابعة في قزحتيها الرائعتين.

عنـدما اسـتيقظتُ، كانـت عقـارب السـاعة تشـير إلـى السـاعة السادسـة مسـاءً لقـد غفـوتُ قرابـة الخمـس سـاعات دون أن أشـعر، قفـزتُ مـن السـرير برشـاقةٍ وتوجهـتُ إلـى غرفـة الجلـوس وعلـى وجهـي ابتسـامة عريضـة عنـدما دخلتُ للغرفة صحتُ بمرحٍ:

-مساء الخير يا أصدقاء!

-أهلاً بيعقوب الكسول، قال والدي مداعباً.

-لستُ كسولاً يـا والـدي، لقـد غفـوت لخمـس سـاعات بفعـلِ التعب.

-غفوت؟ قال وهو يضحك: قل أنكَ كنتَ في غيبوبة!

-دعـه وشـأنه يـا عزيـزي، أن ينـام كـل تلـك المـدة دون الكـوابيس المزعجـة التـي تطـارده دومـاً، هـذا إنجـاز بالنسبة لنا.

-هيـا، لا تكـوني متشـائمة لتلـك الدرجـة، إنـه ينـام أكثـر مني ومنكِ حتى! قال والدي ممازحاً.

قالت أمي بغضب:

-ألن تتخلص من مزاحك الزائد عن حده؟

-يـا إلهـي، لقـد بـدأتُ أشـعرُ بالنـدم، لأنـي نمـتُ كـل تلـك المدة.

-لا بأس عليك يا ولدي، لا تشغل بالك بنا، نحن نتجادل على أتفه الأشياء، وأنت تعرف ذلك..

-لكن يا أبي، ألا ترى أنَّ مشاجراتكما زادتْ عن حدها مؤخرًا؟

-إنه العُمر يا ولدي، قالَت والدتي وهي تضحك، عندما يتقدم بك العمر.. يصبحُ الجدل مع مَن تحِب عادة يومية.. لكن ذلك لا يعني -بالضرورة- أنَّك بدأت تنفر منه بل على العكس، المشاجرات تجعلك تتعلق وتعشق مَن تحب أضعاف عشقك له.

-الحمد لله أنني أعزب، قلتُ ساخراً

عندما خرجتُ من الغرفة، سمعتُ والدي يقول ممازحاً -كعادته-:

-كم أحسد ذلك الفتى، لأنه في نعمة لم أكُن أدرك قيمتها.

-يا هذا! صرختْ أمي.

وسمعتُ بعد ذلك ضحكهما، فضحكت حتى دمعت عيناي.

-ما أروع الحُب! قلتُ وأنا أتنهد.

ذهبتُ إلى المطبخ لأرتشف بعض الماء، وعدتُ بعد ذلك لغرفتي، مزاجي جيد والألم قد تلاشى جزئياً، إذاً سأمسكُ الريشة وأرسم، لأرسمها هي سبب سعادتي

"مارفل " المرأة التي بسببها، عرفتُ ملامح الحُب، والغبطة المصاحبة لذلك الشعور، فرشاة وألوان وكُراس للرسم، أشياء ساعدتني وكانت سنداً لي، بعد المحنة الفظيعة التي حلَّت بنا إذ قرر والداي أن يفعلا المستحيل ليجعلاني أنسى ما حدث في ذلك اليوم المشؤوم.. ولكي يلهياني، قررا أن يعلقاني بالرسم، الألوان والدفاتر وبالفعل نجحت خطتهما، إذ صرتُ أمضي ساعات في رسم كُل ما يخطرُ ببالي، كل ما أشعر به وكل ما أمر به من مواقف الشمس، القمر، الرياحين التي تملئ حديقة منزلنا الغيوم، النجوم، الفرح والكآبة، وكذلك الكوابيس، لا زلتُ أتذكر ردة فعل والداي عندما أريتهما رسمة أسميتها "ليلة مليئة بالدماء"، كانت الرسمة تجسد ما عشناه في تلك الليلة الشهيرة، التي غيرت حياتنا بشكل جذري، ليلة غرقنا فيها بنهر الدماء وصرنا أصدقاء الفقد المرير، كان ذلك في ليلةٍ من ليالي تموز، عندما قررنا الذهاب إلى المزرعة للاحتفال بعيدِ ميلادي الخامس، كانتْ أمي - وقتئذ- حبلى في شهرها السادس بأختي سارة التي كانَت ستشاركني لحظاتي، لولا وقوع ذلك الحادث الذي أماتها قبل أن تحيا، إذ بسبب ثرثرتي وكثرة التفات أبي إلى الخلف، حيث كنت أجلس؛ ليجيبني على أسئلتي التي لا تنتهي، لم ينتبه للطريق ولم يلحظ أنَّ السرعة زادَت عن حدها المعهود، إلا عندما صرخت أمي منبهة إياه:

-تمّام، انتبه للطريق أرجوك، سنموت بسبب هفواتك.

لكن لا فائدة، فقد حدث ما كانَت أمي تخشاه، إذ ماتت الطفلة في بطن أمي، أما نحن.. فقد تعرضنا لكدمات وكسورٍ عدة لكن دون أن يموت أحدنا.. وكأنَّ تلك الطفلة ضحَتْ بحياتها من أجلنا لا زلتُ أذكر صرخات والدتي، عندما أبلغها الطبيب أنها يجب أن تخضع لعمليةٍ جراحية، كي تجهض الجنين الميّت.

-مستحيل، لا أصدق ما تقول إنها حية، سارة لا تزال حية وستأتي لهذا العالم بعد ثلاثة أشهر.

-كفى يا حبيبتي، أرجوك كفي عن تعذيب نفسك وتعذيبي معك، قال والدي مترجيًا.

-كانَت ستأتي يا تمّام، بعد ثلاثة أشهر، لِم سترحل الآن، بعد أن مضى كل هذا الوقت، لم تستطع أن تصمد قليلاً؟

-كفى أرجوك، هذا هو قدرها.

-لكن يا تمّام، لقد كانَت فرصتي الأخيرة كي أنجب أختاً لابننا يعقوب والآن، انتهى كل شيء، تحطم كل شيء سيبقى يعقوب وحيداً، قالت وهي تبكي.

-كلا يا عزيزتي، يعقوب ليس وحيدًا، لديه نحن، أنا وأنت وسنظل بجانبه لنعوضه وليخفف علينا ألم الفقد لذا، عليكِ أن تجري تلك العملية لأجل يعقوب، ابنكِ الوحيد..

بقيتْ تبكي وتتأوه إلى أن اقتربتُ منها وقلت لها بعينين دامعتين:

-أنا آسف يا أمي، آسف جداً..

-لمَ تعتذر يا حبيبي؟ سأل والدي.

-أنا السبب، أنا مَن قتل الطفلة.. كل ذلك بسببي، قلتُ وأنا أبكي:

-لا يا ولدي، لستَ السبب في أي مما حدث، إنه قدرها، مقدرٌ لها أن تموت ونبقى نحن على قيد الحياة.. قال والدي وهو يضمني إلى صدره.

ما إن خرجتُ من بين ذراعيه، ركضتُ صوب أمي التي اختفت ملامح وجهها بفعل الدموع وقلتُ لها:

-أرجوكِ سامحيني يا أمي، أنا آسف جداً..

-أنتَ لم تفعل شيئاً يا ولدي، لستَ أنتَ مَن أماتها بل إنَّ سارة أنقذتنا، قررت أن ترحل لنبقى أحياء، فعلَت ذلك لأنها تحبنا.

-أجل يا صغيري، قالَت والدتي وهي تقبل جبيني، والدك محق.

أجرَت والدتي العملية، وتوارَت سارة خلف التراب، لكن الحكاية لم تنتهِ، إذ بقيَت أحداث تلك الليلة ومنظر الدماء الملتصقة بزجاج السيارة.. وصرخات والدتي وتأوهاتها تطاردني حتى يومي هذا، في الوقت الذي

ظن فيه والداي أني نسيتُ ما حدث، كانَت أحداث تلك الليلة المشؤومة، تتكرر كل يومٍ في كابوسٍ مرعب، أرى فيه وجه طفلةٍ صغيرة -أفترض أنها سارة- تحدقُ فيَّ بحنو، وعندما أهم بالاقتراب منها، تبتعدُ مودعةً إياي، وبعد ذلك أجد نفسي وسط بركةٍ من الدماء، أصرخ مناجياً تلك الصغيرة طالباً منها أن تساعدني لكنها لا تستجيب لنجدتي، إذ تتلاشى بعد أن تقول جملتها التي حفظتها عن ظهر قلب:

-لا أستطيع البقاء هنا يا أخي، فالموت ينتظرني وداعاً!

عندما أريتُ والداي رسمة "ليلة مليئة بالدماء" صاحا بنبرة يشوبها الألم:

-لا زلتَ تتذكر، بعد كُل تلك السنوات ورغم كل ما فعلناه لجعلك تنسى ما حدث.

-سارة لا تُنسى، إنها معي دائماً، حتى في كوابيسي، لكني أكابر وأقول لكما أني نسيتها.

-لكنها ماتَت منذ عشرين سنة، قالت والدتي وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

-لا تريدين أن تفهمي يا أمي، قلتُ وأنا أتنهد.

-أنتَ الذي لا يريد أن يفهم ويتقبل أن الفتاة قد ماتت بالفعل، منذ عشرين سنة! صرختْ.

-غير صحيح يا أمي، جسدها اختفى خلف حفنة من التراب، لكن روحها وذكراها هاهنا في هذا المنزل!

خرجتْ من الغرفة وهي تحجب دموعها خلف كفيها الناعمتين، فقال أبي مرتجياً:

-يعقوب، يا ولدي، أرجوكَ أن ترحم والدتك، فهي متعبة بما فيه الكفاية ولا تنفكُ تلوم نفسها على ما حدث، لذلك أرجوك يا حبيبي، أشفق على نفسك وعليها ولا تعد لذكر الموضوع أمامها.

-أتطلب مني أن أنسى؟ صحتُ، مستحيل يا والدي، أنتَ تطلب المستحيل، لن أنسى أبداً أنني كنت السبب في موت أختي، أتسمع؟ أبداً.

-يا إلهي ساعدني! الأم وابنها سيجعلانني أجن، صرخ وهو يخرج.

كان هذا منذ عامٍ مضى، أما الآن وفي هذه اللحظة تحديداً.. قد تبدل كل شيء؛ فأنا الآن عاشق لأجمل امرأة رأتها عيناي، المرأة التي ستنتشلني من كهف الألم المكفهر، لنرى ونكتشف سوياً، مفاتن العشق وجماله!

هيا، لنبدأ برسمِ "منقذتي ".

مارفل

عدتُ للمنزل أخيراً، بعد يومٍ حافل، مليء بالصدف والعجائب! يوم غريب، عرفتُ فيه معنى الحُب من خلال ذلك الرجل صاحب النبرة المرتبكة والنظرات الخجولة!

دخلتُ إلى البيت وصعدتُ إلى غرفتي، دون أن أُلقي -كعادتي- التحية على أمي، مما أثار استغرابها هي الأخرى.. فسألتني بقلقٍ:

-مارفل، حبيبتي هل كُل شيء على ما يُرام؟

-أجل يا أمي، لا تقلقي أنا فقط متعبة قليلاً، لذا سأصعد لغرفتي لأنام بعض الوقت، لا تنسي أن توقظيني عندما يجهز الغذاء، قلتُ لها وأنا أقف على الدرَج.

-حسناً يا حبيبتي، كما تريدين، قالت مبتسمة.

صعدتُ إلى غرفتي بخطى مستعجلة، وضعتُ الحقيبة جانباً، فتحتُ رواية غيوم ميسو، وبدأتُ أقلّب الصفحات.. فظهر أمامي ذلك الاقتباس نفسه، الذي ظهر عندما قابلتُ ذلك الشاب: "تكفي لحظةٌ واحدة، نظرةٌ واحدة، لقاءٌ واحد، كي تتغير حياتك، يكفي الشخص المناسب في اللحظة المناسبة، يكفي أن تتواطأ النزوة مع الصدفة".

ما هذا؟ أيعقلُ أنْ تكون الصدفة مجنونة لتلك الدرجة! الجملة التي أمامي، تبدو وكأنها تمثلُ ما حدث معي منذ

بضع ساعات، يا للعجب! كم تبدو الأمور غريبة أحياناً لدرجةٍ تبعث على الجنون...

بقيتُ جامدة في مكاني، أعيد قراءة ذلك الاقتباس عدة مرات وفي كُل مرة أقرؤه فيها كانَت الابتسامة ترتسم على شفتي لا إرادياً.. إنها الأحداث المجنونة، التي تجعلُ الخيال حقيقة!

اضطجعتُ في السرير، بقيتً أحدقُ في السقف وأبتسمُ كالبلهاء ولا أشكُ أبداً، أنني إن شوهدتُ في تلك الحالة سأبث القلق في قلب أمي، التي تبالغ -أحياناً- في خوفها علي لدرجةٍ أشعر معها بالانزعاج -أغلب الأحيان- إذ أنها تعاملني كطفلةٍ صغيرة، حتى وأنا في هذا العمر في مراتٍ كثيرة، كنتُ أفكر في السبب الذي يدفعها لتتصرف على هذا النحو ولم أجد إلا سبباً واحداً وهو أني ابنتها الوحيدة التي لم تُرزق بها إلا بعد سنواتٍ طويلةٍ من الصبر والانتظار؛ إذ بقيَت -أثناء حملها بي- مضطجعة في السرير لتسعةِ أشهر بالتمام والكمال، دون أن تتحرك أو تجهد نفسها في أعمال المنزل.. فعملية زرع الجنين تتطلب الراحة الكاملة، وعدم القيام بأدنى مجهود، ولكي يُوفَّر لها ذلك، كان أبي يعتني بها أغلب الأوقات، وكذلك جدتي التي بقيَت معها حتى نهاية الرحلة.

بينما كنتُ شاردة الذهن، سمعتُ طرقات خفيفة على الباب، فقفزتُ بحيوية وفتحتُ الباب:

-أهلاً أمي، قلتُ مبتسمة.

-هيا يا مارفل، بما أنكِ مستيقظة تعالي إلى المطبخ، الغذاء جاهز ووالدكِ ينتظرنا.

-حسناً يا أمي، أنا قادمة أمهليني خمس دقائق فقط، سأمسد شعري وآتي.

-حسناً، ولكن أسرعي، والدكِ جائع ولن يأكل إلا إن كنتِ موجودة، أنتِ تعرفينه.

-أعرف، أعرف، قلتُ وأنا أضحك.

مسدتُ شعري سريعاً ولحقتُ أمي إلى المطبخ، حيث كان والدي بانتظاري:

-كيف حالك يا أبي؟ قلتُ بمرح.

-الحمد لله يا حبيبتي، ماذا عنكِ كيف كان يومكِ؟ سأل بحنان.

-ممتاز، بل في غايةِ الروعة!

-أراكِ مغتبطة جداً، ما الذي حدث؟ سأل والدي.

-ليس الآن يا والدي، همستُ في أذنه، أنتَ تعرفها تخاف عليّ من ظلي!

-فهمتُ، إذاً بعد الغذاء نصعد معًا لغرفتكِ، وتخبريني بذلك السر..

التفتت أمي، التي كانَت مشغولة بسكبِ الطعام، وسألت:

-أنتما الاثنان، بماذا تتهامسان؟

-إنه سر لا يجب أن تعرفيه، قال والدي مداعباً.

-كما تشاء، صاحَت: تهامس أنتَ وابنتك، وأبقياني خارج عالمكما!

-أمي، أرجوكِ! ليس الوقت مناسباً كي تغضبي، قلتُ مترجية إياها.

-كما تريدين يا مارفل، صرخَت: فلتتهامسي مع والدك، أنا لن أتدخل بينكما.

عقب الجدال، صمتٌ ثقيل، قطعته مستأذنة:

-الحمد لله، سأصعد إلى غرفتي. قلتُ بنبرةٍ يشوبها التلميح، ففهم أبي مقصدي وهم هو الآخر في مغادرة المطبخ:

-وأنا أيضاً، سلمَت يداكِ يا سوزان، قال مبتسماً: لكنها لم تجب، فقد كانَت غاضبة.

فهممنا بالانصراف، دون أن نزيد على كلامنا، إذ لم نكُن نريد أن تزيد الحالة سوءاً.

صعدنا إلى الغرفة، جلس أبي على حافة السرير، أما أنا فجلستُ على المقعد الخشبي المنجد، بدأ والدي الحديث سائلاً:

-إذاً، أسمعيني ما لديكِ يا مارفل، ما هو هذا الشيء الذي يجعلكِ مغتبطة؟

-أعتقد أظنُ أني وجدته يا أبي، قلتُ متلعثمة.

-وجدتِ ماذا؟ قال مستغرباً.

-لقد وجدتُ الشخص المناسب، أنا مغرمة يا أبي، قلتُ بخجلٍ.

-يا إلهي! أحقاً ما تقولين!

-أجل يا أبي، لقد استمعتُ إلى نصيحتك، سأسقي قلبي من كوثر الحُب، لكن..

-لكن ماذا؟

-أمي، ألا ترى أنها تبالغ في قلقها علي يا والدي؟

-لا تنسي أنها تعذبَت كثيراً لأجلك، قال والدي بحنان: لقد كان حلم الأمومة مستحيلاً بالنسبة لها.. لكن، الشكر لله.. فقد كافأنا بفتاةٍ رائعة مثلك، ولمعلوماتكِ.. أمكِ وأنا نخاف عليكِ لأننا نحبكِ.

لم أعرف كيف أجيبه؛ إذ أننا نضعف أمام عاطفة والدينا، تلك العاطفة اللامتناهية التي يقدمانها دون أن ينتظرا شيئاً منا، يفعلان ويعطيان كل ما لديهما من عطف باسم الحُب.

ارتميتُ في حضنه وقد اغرورقَت عيناي بالدموع، شعرتُ ولوهلةٍ بالخوف وبالحاجة الشديدة، خفتُ من

خسارة ذلك الرجل العطوف، الذي أعشقه بجنونٍ، خفتُ أن يأتي ذلك الصباح الكئيب، الذي لن أسمع فيه ضحكاته، ولنْ أتمكن مِن تقبيلِ يده الخشنة، خفتُ أن يجيء ذلك اليوم، الذي سأُحرَم فيه من حضنه ورائحته، روحه المرحة ونصائحه التي أعتبرها بوصلتي في هذه الحياة .

-لا تعرف كم أحبك يا أبي، أنا أعشقك لدرجة أني أخاف حين أفكر في ذلك اليوم الذي لن أستطيع أن أراكَ فيه مجدداً، قلتُ وأنا أبكي.

-لا تخافي يا روحي، أنا هنا بجانبك لا داعي للخوف، فأنا لن أترك فتاتي وحيدة.

-أحبك!

-وأنا أيضاً.

بعد ساعةٍ كاملة من الحديث، خرج والدي من الغرفة ليذهب إلى أمي، عند خروجه، قال ممازحاً:

-أتمنى لكِ التوفيق يا ابنتي، أنا ذاهب لرؤية أمك، إذا لم يصل إلى سمعكِ أي كلمة مني، اعرفي حينها أنَّ والدتك قتلتني.

قهقهتُ حتى دمعت عيناي:

-بالتوفيق، أتمنى أن تتملص من المصيبة التي أقحمتُك فيها.

-لا تقلقي على والدك الحذق!

عندما ذهب، اضطجعتُ على السرير وصرتُ أفكر في شخص واحد: يعقوب.

ASRUD
للنشر الالكتروني

الفصل الخامس

يعقوب

انهمكتُ في الرسمِ، دون أن أشعر بشيء من حولي، لقد نسيتُ العالم، الوقت والألم ولم يبقَ في مخيلتي سواها، بشعرها الفحمي ووجهها الأبيض كحبات الثلج، ويديها الرقيقتين وهما يأخذان الكتاب من بين يدي، لوهلة شعرتُ أنها ها هنا، تقف أمامي بجسدها الممشوق وابتسامتها المذهلة، وروحها المرحة التي تنسيكَ كل شيء، بحضورها الطاغي.. يتلاشى كل شيء من حولك العالم، الطبيعة، الهواء، الزمن، الواقع.. الكواكب والنجوم، الغيم، والألم، لن تشعر بغياب الأشياء من حولك، إذ ستكون هي كل شيء بالنسبة لك، عندما تحب فستكونُ المرأة كوكباً، وأنتَ المدار الدائر حولها.

بعد ساعاتٍ من الرسم، ها قد اتضحَت أخيراً ملامح "منقذتي" الفاتنة، رسمتها بملامحها الراسخة في ذهني، مع لمسةٍ من الخيال.. فقد تخيلتُ الحُب كما أتمنى أن يكون، "العزاء الجذري" الذي سيُنسيني ألم الشعور بالذنبِ، إذ كانَت "منقذتي" تمد لي يدها لكي تساعدني على إيجاد منفَذ، بعد أن تهتُ في متاهةِ الألم المرعبة.

وبينما كنتُ منهمكاً في إضافة اللمسات الأخيرة للوحة، اهتز الهاتف معلناً عن وجود رسالةٍ جديدة، من غيث:

-أجل، لقد خف الألم، بالمناسبة، لِمَ ذهبتَ قبل أن أستيقظ؟

-هل جننت؟ تريد مني أن أنتظركَ خمس ساعات!

ضحكتُ على رسالته الأخيرة، لكني كنتُ مشغولاً بها، المرأة التي استولَت على دقائقي وثوانيّ وساعاتي، لذلك نسيتُ غيث ورسالته، ورجعتُ إليها.

بعد أن انتهيت، نسقت الأغراض وبدلتُ ثيابي التي تلطخت بالألوان الزيتية، نزلتُ إلى الأسفل، حيث كانا أمي وأبي يحتسيان الشاي، عندما رآني أبي سألني:

-أين كنتَ كل هذا الوقت؟

-كنتُ أرسم، قلتُ بمرح.

-إنها المرة الأولى التي أراكَ فيها بهذه الحيوية، قالَت أمي متشككة.

-إنه هكذا دائماً، هو فقط يتدلل علينا يا عزيزتي، قال والدي مداعباً.

-اسمعا، سأخرجُ لأرفه عن نفسي قليلاً، لأني إن بقيتُ هنا، فسأتعفن في السرير.

ضحكا على جملتي الأخيرة، ودعتهما، غسلتُ يدي من البقع، وخرجتُ.

في الطريق، صادفتُ محمد صديقي في الحي، ابن السمّان أبو علاء، محمد هذا كان أصغر إخوته في

العشرينات من العُمر، داكن البشرة، نحيل، صاحب حزقتين عسليتين، وروح مرحة، معروف بلقبه "مجنون ليلى"؛ إذ كان عاشقاً لفتاةٍ في الحي تُدعى ليلى، لوّحتُ له فابتسم وقال بمرح: يعقوب، كيف حالك يا رجل؟

-الحمد لله، صحتُ: ماذا عنكَ؟

-بأجزلِ حال، تفضل، اشرب معي الشاي!

-في المرة القادمة إن شاء الله، أبلغ سلامي للعم زين.

-حسناً، في انتظار زيارتك!

ودعتُه واستأنفتُ المشوار، كنتُ أمضي كمَن فقد ذاكرته، أو كالذي تاه في صحراء قاحلة، أمشي في طريق بلا ملامح؛ فقد محى الحُب كُل شيء من ذاكرتي، ولم يبقَ في عقلي سوى صورة واحدة.. صورة المرأة التي أحب: مارفل.

مارفل:

بعد ساعةٍ من الشرود والابتسامات البلهاء، قفزتُ من على السرير وتوجهت نحو مكتبي الصغير، التقطتُ من أحد الأدراج دفتر المذكرات الصغير، الذي أدون عليه بعض الاقتباسات من الكتب التي أقرأها، فتحتُ الدفتر، على صفحة بيضاء وبدأتُ أدوّن:

"تكفي لحظةٌ واحدة، نظرةٌ واحدة، لقاءٌ واحد، كي تتغير حياتك، يكفي الشخص المناسب في اللحظة المناسبة، يكفي أن تتواطأ النزوة مع الصدفة".

اليوم حدث معي شيء غريب، لقد وجدتُ وبالصدفة رجلاً يقفُ أمامي، مرتبكاً وخجِلاً، بعد أن اصطدم بي دون أن ينتبه أحدنا لوجود الآخر؛ فقد كنتُ أمشي مصوبة عيني على الكتاب الذي في يدي وعندما اصطدمتُ بذلك الشاب، تهاوى الكتاب وانفتح على صفحة معينة، ظهر فيها هذا الاقتباس الغريب في الأمر، أنَّ هذه الأسطر حاكَت بالظبط ما حدث معي اليوم.

كم هو غريب الحُب؛ إذ بإمكانه أن يجعلَ الكلام المسطَّر على الورق حقيقةً ملموسة بإمكانه أن يحوّل خيال كاتب، إلى قصة واقعية، من خلال بثه لروحِ الشخصيات التي يبتدعها الروائي، في جسد شخصيات من الواقع، أنا محظوظة حقاً، إذ بفضلِ ذلك الرجل الذي اقتحم حياتي فجأة، وبفضلِ الحُب تمكنتُ من تحقيق رغبة مجنونة، تمكنتُ من خلطِ خيال الكتب، بحياتي الواقعية، إذ أعيش الآن قصةَ حُب كالتي نقرأها في الروايات، اليوم، رأيتُ ملامح الحُب بوضوحٍ وعن قُرب، بفضلكَ يا محبوبي، لذا أنا ممتنة لكَ جداً يا رجل

المعجـزات، وسـأكونُ ممتنـة أكثـر، عنـدما تمسـكُ بيـدي ونجوب معاً مدينة الحُب.

أغلقتُ الدفتر، وذهبتُ إلى غرفة الجلوس.

يعقوب:

فـي طريقـي، صـادفتُ امـرأة عجـوز جالسـة فـي حديقـة منزلهـا، كانَـت المـرأة -حسـب مـا لاحظـت- متوعكـة، تجلـسُ قبالـة الـورد الموجـود فـي الحديقـة، مـرَّت بضـعة دقـائق قبـل أن يقبـل رجـل مـن الـداخل وبيـدهِ كـأس مـن عصير البرتقال، صاحَ عندما رآها:

-ها قد أتيتُ.

-عزيـزي! شـكراً جـزيلاً، لا أعـرف مـاذا أفعـل لـولا وجودك بقربي، آسفة على إتعابك، قالتْ مبتسمة.

-أبـداً، لا تعتـذري يـا حبيبتـي، تسـتحقين أكثـر مـن ذلـك بكثيرٍ.

-عزيزي! قالَت وقد التمعَت عيناها.

ولكـي يُعبـر لهـا عـن شـدة امتنانـه، وحُبـه وولعـه بهـا، ألقـى شعراً لابن سهل الأندلسي:

فلكَ الدلال وأنتَ بدرٌ كاملٌ ويحقُ للمحبوب أن يتدللا.

يـا إلهـي، مـا أروع الحُـب، تمتمـتُ وأنـا أمضـي عائـداً إلـى البيت. مغتبطاً بالبرقية التي أوصلها إليّ الحُب!

وصلتُ في ساعة متأخرة من الليل، دخلتُ إلى المطبخ، فوجدتُ ورقة صغيرة موضوعة على الطاولة:

-عشاءً هنيئاً، لا تتأخر في العودة إلى المنزل.

تناولتُ عشائي على عجلٍ، وصعدتُ إلى غرفتي.. وعلى الرغم من التعب الذي كان يسيطر عليّ، إلا أنني لم أستطعْ النَّوم، فقد قضيتُ الليل بطولِه.. أفكر في طريقة للقياها.

مارفل:

ذهبتُ لأرى ما حدث مع أبي، وتمنيتُ لو أني لم أذهب إذ؛ عند الباب، قبل أن أدخل الغرفة.. تناهى إلى سمعي صراخ والدتي:

-أتظنُ أنني خرقاء لهذه الدرجة؟ قالت وهي تبكي: أعرف أنها تكرهني، الفتاة التي تعبتُ فيها تسعة أشهرٍ، تمقتني لدرجة أنها تُفضلكَ عليّ يا صابر!

- لا، ليس كما تعتقدين لا توجد فتاة تكره أمها، قال محاولاً تهدئتها.

- بل يوجد، أقول لك ابنتك تكرهني ألا تفهم!

دفعتُ الباب بعصبيةٍ وصرختُ:

_ كلا يا أمي، أنا لا أكرهك بل أكره قلقكِ المفرط عليّ، كفي عن معاملتي كطفلةٍ حتى ولو كنتُ ابنتكِ

الوحيدة، فهذا ليس مبرراً يسمح لكِ بأن تُضيقي عليّ بسبب خوفكِ، اتركيني وشأني أريدُ أن أضحك، أبكي، أركض، أبتسم، أحب أكتئب، أفرح، أريد أنا أحيا!

بقيَت أمي متجمدة في مكانها، دون أن تنطقَ بكلمةٍ أما والدي فلحق بي إلى غرفتي، حيثُ دفنتُ وجهي بين يدي وأخذتُ أشهق كطفلٍ رضيعٍ، لمّا رآني والدي في تلك الحالة المزرية، ضمني إلى صدره، دون أن ينبس ببنت شفة -كعادته- عندما يراني في حالةٍ كتلك.. إذ كان يرى أنه لا فائدة من الكلام، فعندما يكون المرء متعباً فهو بحاجةٍ إلى الاحتواء أكثر منه إلى النُصحِ، وهذا ما فعله بالضبط، إذ بقي صامتاً ينصتُ إلى شهقاتي وتأوهاتي.

-لا أستطيع أن أتحمل كل هذا، قلتُ: تعبتُ يا أبي، لم يعُد لدي طاقة لأتحمل كلامها الجارح وخوفها الخانق!

-لا بأس يا ابنتي، لا بأس، قال بهدوء.

-لن تفهمني، هي لا تريد أن تفهمني إنها تعاملني على هواها، تظنُ ومن خلال اهتمامها المبالغ فيه، أنها تعطيني ما أحتاجه من حنان وعطف، لكن الحقيقة هي، أنني أموت، إنها تميتني ببطء، أحبها يا أبي والله إني أحبها، لكنها لا ترى ولا تشعر بذلك أبداً!

بقيتُ في حضنه حتى هدأت ثم عندما صار الوقت مناسباً قال بشيء من الأسف:

- لقد حاولتُ مساعدتكِ قدر ما أستطيع، لكن والحالة هذه فمِن الواضح أنَّ والدتكِ لن تتغير، بل إن حالتها تزداد سوءاً.. لا أعرف ما أفعل يا ابنتي، أنا عاجز تماماً، لا حل أمامكِ سوى أن تتحملي، حاولي أن تتقبلي قدركِ، انشغلي بأي شيء دون التركيز على المشكلة، وإلا فسيمضي بكِ الزمن وأنتِ على هذه الحال، على أحدكما أن تتعود وتتعايش مع مشكلة الأخرى، وبما أنَّ والدتكِ لم تنجح في ذلك يجب عليكِ أنتِ إذاً، أن تقومي بهذه الخطوة.

كان كلامه بمثابةِ المنفذ الذي نعثرُ عليه في نهاية النفق المظلم، لقد سمعتُ بالضبط ما كنتُ بحاجةٍ لسماعه، والدتي لن تتغير، هذا واقع يجب أن أتقبله رغم ما فيه من ألم، وإذاً، لأغير أنا من نفسي؛ لأدربها على التعود والتعايش مع هوس أمي، وهكذا لن يكون قلقها عائقاً أمام الحياة التي أريد أن أحياها. لدي شيء سينسيني مرارة أيامي، شعور رائع يطفو على السطح سيبعدُ كُل ما يعكر صفو مزاجي، ليسكن هو وحده في مخيلتي وقلبي، فتحتُ الدفتر ثانية، وكتبتُ في ذات الصفحة:

"رغم كُل ما أحملُ في قلبي مِن ألمٍ.. فسأكون أوّل شخصٍ يحتويكَ عندما تتألم، أما أنا فبدونِ أدنى شك، سأهرعِ إليكَ -مثلما أفعل الآن- عندما يزورني الألم.. لأحتمي بين أحضانك. "

يعقوب:

حـــلّ الصـــباح، دغـــدغتْ أشـــعة الشـــمس وجهـــي.. فاســتيقظتُ مغتبطــاً، نظــرتُ لنفســي فــي المــرآة.. فرأيــتُ شخصــاً بشــعرٍ أشــعثٍ ووجــه فيــه لمســة مــن الشــحوب، فقلتُ وأنا أضحك:

_ أبدو كشخصٍ سيفارقُ الحياة خلال يوم أو اثنين!

نهضــتُ، غســلتُ وجهــي وقمــتُ بتنظيــف أســناني ثــم توجهتُ إلى المطبخ لأتناول الفطور مع والداي.

-صباح الورد! قلتُ بمرحٍ.

-أهلاً بوردتنا، أجابا مبتسمين.

تناولــتُ الفطــور علــى عجــلٍ، وقمــتُ ســريعاً كــي أغيــر ثيابي وأذهب لزيارة محمد.

-إلى أين ستذهب في وقتٍ كهذا؟ سأل والدي.

-لقد وعدتُ محمد أني سأزوره.

-حسناً، لكن لا تتأخر، قال آمراً.

خرجــتُ مــن البيــت والابتســامة تعلــو شــفتَي، إذ لــم يكُــن هـدفي هـو زيـارة محمـد وحسـب، بـل هنـاك غايـة أخـرى من تلك الزيارة.. ألا وهي التحدث عن الحُب!

عنــدما وصــلتُ إلــى المحــل، وجدتُــه يغنــي مــع عبــد الرحمن محمد:

خلقتِ من الإشراق والنور والبهاء، وصورة في عقلي فجَلَّ المُصوّرُ.

صحتُ كي يسمعني:

-صباح الورد، كيف حالك أيها العاشق؟

-يعقوب! قال مبتسماً: لم أتوقع أنكَ ستأتي -كعادتك- إذ أنك منشغل دائماً.

-ها قد أتيتُ، أفلا تحضر القهوة؟ قلتُ مداعباً.

-أمهلني خمس دقائق فقط.

وبينما انهمكَ في تحضير القهوة، كنتُ أنصتُ إلى الأغنية التي كانَت تُضفي على المكان مسحة رومانسية.

ونصفكِ كافور وثلثكِ عنبر، وخِمسُكِ ماء وردٍ وباقيكِ سُكَرُ.

-أتحبها لهذه الدرجة؟ سألته.

-بل أكثر مما تظن.. قال وقد لمع بريق في عينيه.

-إذاً لِمَ لا تتزوجها؟

-في الوقت الراهن، نحن مكتفيان بما نحن عليه لكن، قد يتغير كل شيء لاحقاً.

-تماماً، كما حدث معي بالضبط.. لقد تغير كُل شيء بين ليلة وضحاها.

-أتقصد! حملق فيّ بسعادة.

-أجل أنا عاشق، اعترفتُ.

-يا رجل! صاح بفرحٍ: لقد أفرحتني حقاً، قُل لي هل عائلتك على دراية بالأمر؟

-لا، أخشى أن أذكر الموضوع أمام والدتي، فهي لا تعرف كيف تكتم الأسرار وخصوصاً هذا النوع من الأسرار.. أخاف أن تعرف بالأمر فتفصحُ به لغيث، الشخص الوحيد الذي لا أريد أن يعرف ذلك فكما تعرف، هو يمقتُ شيئاً يُدعى «الحُب».

بعد ساعة من الحديث، ودعتهُ عائداً إلى البيت، قال قبل أن أذهب:

-إذا أردتَ أنْ تكون فرِحاً، يجب عليكَ ألا تحكي لأحدٍ عن سبب غبطتك، وإن فعلتَ فسيتبخر ويتلاشى كضباب الصباح، وإذا أردتَ تأكيداً.. فإليكَ ما قال جبران خليل جبران:

"لا تخبروا الناس بكل شيء جميل تملكونه، ليس الجميع لديهم حسن النوايا، بل معظمهم لديه الحسد والغيرة" .

لقد كان كلامه منطقياً، فبعضُ الناس حتى وإن أظهروا لكَ أنهم فرِحون لأجلك؛ إلا أنهم في أعماقهم يتمنون أنْ تزول النعمة التي وهبكَ الله إياها، فقط لأنهم محرومين

منهـا، لـذلك، إنْ أردنـا دوام النعمـة، ينبغـي علينـا ألا نقـول لأحدٍ عنها، وإلا فإننا سنفقدها بين عشية وضحاها.

عـدتُ إلـى المنـزل، لأرتـاح قلـيلاً فقـد عـاودتني وعلـى حين غرة، آلام المعدة التي لا تنفك تنهشني.

وعـادَت كـذلك، صـورة الطفلـة الصـغيرة وربمـا يرجـع فـي المساء، ذلك الكابوس اللعين!

عنـدما رآنـي والـدي فـي تلـك الحالـة، صـاح والـدتي كـي تعينـه فـي نقلـي إلـى غرفتـي التـي شـرعَت فـي البكـاء عندما رأتني في حالة مزرية كتلك.

-أنا مرهق يا أمي، لم أعُد أحتمل، قلتُ وأنا أتأوه.

-مـا العمـل، يـا إلهـي مـاذا أفعـل كُـل ذلـك بسـببي، أنـا السبب في كل ما يحدث لك!

بقـي والـدي جامـداً، عـاجزاً عـن فعـل شـيء لكلينـا، هـذه ليسـتْ المـرة الأولـى التـي ننهـار فيهـا هكـذا، بسـبب ذلـك الـذنب الـذي يُفسـد علينـا حياتنـا، والحالـة هـذه، لـم يكُـن أبـي قـادراً علـى جعلنـا -أمـي وأنـا- نتخطـى تلـك الـذكرى المُوجِعة.

-ما الذي دهاكَ يا ولدي؟ سأل والدي بحنان.

-لا أعـرف، لقـد عـادوني الألـم فجـأة، فـي طريـق عـودتي إلى هنا.

-حاول ألا تتعب نفسك يا ولدي، أعرف أنّ ذلك عصي عليكَ لكن أرجوك، لا تهلك نفسكَ بالتفكير والتدقيق على أتفه تفصيل، جرّب أن تتعايش مع الألم، تجاهلهء، لكن لا تبقى عالقاً هناك، في اللحظة التي أُوذيتَ فيها.

-لا أستطيع يا أبي، لا أستطيع، هززتُ رأسي: لقد انتشر الألم في كُل أنحاء جسدي، وأصبح من الصعب عليّ مداراته.

-رُحماك يا ربّ! قال أبي بعد أن استنفد كُل ما لديه مِن طاقة.

عندما خرجا، أغمضتُ عينيَّ متخيلاً مارفل وصرتُ أكلمها وكأنها هاهنا، معي تُنصتُ إليَّ وتُداري جروحي .

مارفل:

أحسستُ بخيوط الشمس الدافئة تداعب وجهي، فنهضتُ متثاقلة الخُطى وذهبتُ إلى المطبخ حيث كان والدي يتناول الفطور وحده، سألتُ مستغربة:

-أين أمي؟

-في غرفتها، من الواضح أنها أكلت قبلنا، قال والدي بنبرة يشوبها الأسى.

-كما تريد، لن نتدخل، فلتتصرف كما يحلو لها، هززتُ كتفيَّ.

-لا تكوني قاسية يا ابنتي، على كُل، كلي فطورك أنتِ، وأنا سأذهب لأتحدث معها.

عندما أنهيتُ فطوري، غيَّرتُ ملابسي وانطلقتُ إلى الجامعة، حيث سأراه ثانيةً، كنتُ قد نويتُ أمس، أن ألتقيه وأتحدثَ معه أطول مدة ممكنة، لذلك، نسيتُ غضب أمي والمشكلة التي يحاول أبي حلها، وانشغلتُ بشيء وحيد: الحصول على فرصةٍ، أتمكن فيها من لُقياه مرة أخرى.

وكما قال والدي، سأشغلُ نفسي بالرجل الذي اقتحم حياتي، فمن الواضح أنَّ أمي لن تُغير من طبعها شيئاً، ولكيلا أفقد صوابي.. سأحاول أن أتقبل خوف أمي وأعتاد عليه، دون أن أجعله يعيقُ طريق حياتي الطويل، بل سأجعلُ منه سبباً يحفزني على اكتشاف ملذات الحياة وجمالها، وها هي، أوّل بارقة أمل تلتمعُ في سماءِ حياتي المكفهرة: الحُب.

يعقوب:

ليتكِ كنتِ معي يا حبيبتي، في تلك اللحظات التي هي أشبه بالبحر، يجرني وبسرعةٍ خاطفة إلى قيعان الموت المظلمة، رغم كُل المحاولات التي قمتُ بها كي أرجع

إلى بر الحياة، أشعر يا حبيبتي، أنّي شخص مشلول.. أجلس على ذلك المقعد الرمادي منذ زمن طويل، دون أن يكون لدي فرصة كي أتمكن من المشي مجدداً، أنا عالقٌ في المكان نفسه، في اللحظة والذكرى المشؤومة نفسها منذ أمد بعيد، أنا بحاجةٍ إليكِ، بحاجةٍ إلى ابتسامتكِ، ويدكِ الرقيقة التي ستُمسكُ بيدي، ونركض معاً، مبتعدين عن ذلك المكان الموحش.

طرقات خفيفة على باب الغرفة ثم دخل غيث وفي عينيه قلق جامح:

-ما الذي جرى؟ ألم تقُل لي أنَّ الألم قد زال؟ سأل.

-لا أدري، لقد عاد ثانيةً.. في ساعات الصباح، عندما كنتُ في طريق العودة إلى المنزل، قلتُ بنبرة مرهقة.

-هل تتألم؟ سأل بعطفٍ.

-كثيراً..

-ليكُن الله في عونك، على كُلٍ، أتيتُ لأطمئن عليكَ قبل ذهابي إلى الجامعة، إذا احتجتَ لأي شيء لا تتردد في طلبي، قال مودعاً.

هل سأمضي حياتي مضطجعاً في السرير؟ أهذه هي حياتي؟ كوابيس ودموع، ولعنة تلتصق بي منذ الصغر؟ تمتمتُ يائساً. أريد أن أحيا حياة حقيقية، بملامحي الحقيقية، أريدُ أنْ أكون شخصاً حقيقياً، يُظهر مشاعر وردود أفعال حقيقية.. مللتُ من الزيف، تعبتُ

مـن الكـذب.. صـحيحٌ أنـي ذو طبـعٍ مـرِح، لكـن فـي أعمـاقي، توجـد هـوة.. يوجـد فـراغ وألـم هائـل، ولا شـيء، علـى الإطـلاق، قـادر علـى إخفـاء آلامـي، سـوى امـرأة وحيدة.. أفكر فيها في هذه اللحظة: مارفل.

مارفل:

"القليـل فـي الحُـب كثيـر، القحـط والجفـاف واللاشـيء بالحُب خير من النُزر اليسير".

-مي زيادة.

كـم كنـتُ مغتبطـة، أشـعرُ بالخفـة والحيويـة لأنـي سـألقاك، حتـى ولـو لبضـعِ دقـائق؛ فهـي كافيـة بالنسـبة إلـي، لأنّـي سـأتمكن مـن خطـف تلـك الـدقائق.. لأمتـع نـاظري وأسـقي قلبـي الظمـآن مـن كـوثر الحُـب الكـريم. لكـن كُـل آمـالي تحطمَـت، وتلاشَـت معهـا فرحتـي لأنـكَ كنـتَ غائبـاً، ممـا يعنـي أنـي لـن أتمكـن مـن رؤيتـكَ، بتاتـاً فقـد حـال الغيـاب بينـي وبينـك، دون أن يسـمحَ لنـا بـالتلاقي. أتعـرف؟ تمنيـتُ لـو أنـي أسـتطيع اختـراق الغيـاب، لأتشـبثَ بحضـورك، برائحتـك ونبرتـكَ المُرتبكـة لكنـي لا أسـتطيع، فـنحنُ فـي النهايـة، نحيـا حيـاة واقعيـة، بعيـدة كُـل البُعـد عـن الخيـال. أكثـر شـيء أحبطنـي فـي تلـك اللحظـة، هـو المبالغـة فقـد توقعـتُ الكثيـر ولـم أحصـل فـي المقابـل

على شيء، لا شيء سوى الخيبة، مما ضاعف كآبتي، لدرجةٍ فقدتُ فيها الثقة بالحُب.

-أيعقلُ أني خُدِعتُ؟ تمتمتُ في طريق العودة إلى البيت.

عندما وصلتُ، صعدت إلى غرفتي دون أن أُشعر أحداً برجوعي، لقد كنتُ مكتئبة، ولا أرغب في رؤية أحد، أحتاج لأن أبقى وحدي، مع دموعي وخيبتي، وحبيبي، كتبتُ في دفتر الملاحظات:

"أهكذا تكون حكايتنا، نهاية قبل البداية؟ أهذا هو الحُب الذي كُنا ننتظره؟ أعرفُ أنَّه يؤلم، لكن مع الحالة هذه، فأنا لا أستطيع أن أستوعب شيئاً مما حدث، لقد كُسرَ قلبي منذ البداية، خاب ظني قبل أن يبدأ لقد بدأتُ أشكُ في ماهية الحُب، «خدعة يطليها علينا القلب»، هذا ما قلتهُ لنفسي، فهل أنا مخطئة في اعتقادي؟ رُبما أكون كذلك وربما لا، الأمر يعتمد عليكَ، لأنكَ المَعني في هذه المسألة، يُسمعنَي ما يريحني وينتشلني من حالة الضياع، أرجوكَ، ساعدني وأسعدني، سأكون تلميذتك ولتكُن أستاذي، عندما أخطأ تُصححُ أخطائي وتعلمني الطريقة الأنسب للحل، سأفعلُ كُل ما تطلبه مني، وسأعتمد طريقتك وأسلوبك في الحل، لأنك أستاذي وأنا تلميذتُك، الدي أمنية وحيدة: أرجو ألا تكون الشخص الذي سيُحطم قلبي، لأني لن أحتمل أذية أحبّ الناس إلى قلبي!"

وبدون أن أشعر، انهمرتْ دموع الألم على خدي، لقد انطفأت شعلةُ الحُب، أنا خائفة، ضائعة، ولا أستطيع التمييز، فقد تهتُ في العتمة وأضعتُ طريق العودة إلى مسكني الدافئ «قلبك» وأرجو ألا يطول هذا الضياع كثيراً، فأنا على وشك الانهيار، أشعر بالبرد والخوف، وقلبي يتضور جوعاً، إنه بحاجةٍ إليك، بحاجةٍ إلى عطفكَ، حُبك، يحتاجُ لوجودكَ إلى جانبه، فهلا أنصتَّ لرجائه وأتيتَ؟

كفكفتُ الدموع، اضطجعت على السرير، وغفوتُ.

يعقوب:

لم أستطع الكف عن التفكير بتلك المرأة، ألقيت نظرةً على الساعة التي كانَت موجودة على المنضدة.

2:00 مساءً! أبقيتُ كل هذا الوقت مضطجعاً في السرير؟ قمتُ وذهبتُ إلى المطبخ، لأجد أمي التي كانَت منهمكة بتحضير الغذاء:

-لِمَ، لمْ توقظيني يا أمي؟ سألتُ.

-لأنكَ متعب وبحاجةٍ للراحة، لا تكابر، لن تنجح في إخفاء ألمك على أمك، ربما تنطلي الخدعة على الجميع، لكنها لن تنطلي على والديك، قالت بهدوء. ربما كانَت محقة، فأغلبنا لا يريد أن يعترفَ بأنَّ الألم ينهشه بل يكابر ويُخفي ذلك الألم حتى اللحظة الأخيرة؛

أنه يرى في الإفصاح إهانة للذات، لكنه وبتكَّتُمه هذا يهينُ نفسه ويوجعها؛ فالتكتم لا يُجدي ولا يحقق لنا ما نبتغيه، دع عنكَ ظنون الناس ولا تشغل نفسك بكلامهم، إن تألمتَ قُل أنكَ تتألم، إن تعبت، قُل أنكَ متعب، الإنسان جملة من المشاعر، يتميز بقدرته على الشعور لذا، استخدم ميزتك وكُن إنساناً، عبّر عن مشاعرك، ولا تمثل دور الصخرة التي لا تشعر بشيء.

-حسناً، لكن الألم قد تلاشى، كُل شيء على ما يُرام الآن، قلتُ محاولاً إقناعها.

-أرى ذلك، قالت بمكرٍ.

-لا أفهم، أتسخرين مني أم ماذا؟

-بل أنتَ الذي تسخر مني ومن نفسك أيضاً، هلا تشرحُ لي لِمَ أنتَ عنيد لتلك الدرجة؟ سألت بغضب.

-لا أريد إثارة قلقك، هذا كُل ما في الأمر، قلتُ، يكفي ما سببته لكِ في الماضي.

-بل أقلقني، أشغل بالي ولا تدعني أرتاح ولو لثانيةٍ واحدة، أنا أمك يا يعقوب أتفهم؟ الشخص الوحيد الذي لن يملَ منكَ ولا من الإنصات إليك.

قالَت وقد تدحرجت دمعة على خدها.

-أحبكِ، عانقتها وبكيتُ.

"عليكَ أن تعلم علم اليقين، بأنَّ المرء يخوض صراعًا بينه وبين نفسه كل يوم، مع ألف هَم، وألف حُزن، ومائة ضعف؛ ليخرج أمامك بكل هذا الثبات".

-تشيخوف.

-إلى متى سنبقى على هذه الحالة يا أمي؟

-من الواضح أنَّ الطفلة تنتقم من كلينا، تنهدت.

-إلى متى؟ ألا تكتفي بالعشرين سنة التي أمضتها وهي تثأر لنفسها ولحياتها الضائعة؟

-لا أعرف، قالت بألم، لقد حرمناها من الحياة، وهي بدورها تحرمنا منها.

-هذا ما أراه، قلتُ بنبرةٍ متوجعة: إنَّ لعنتها تلاحقني أينما ذهبتُ، أريدُ أن أرتاح يا أمي لقد تعبتُ من المكابدة، أنا منهار أتفهمين؟ في أعماقي نار متأججة، لا تنطفئ مهما حاولتُ في داخلي فضاء هائل، ثقب أسود لا يكف عن سحبي إلى أعماقه وكأني ذلك النجم الضخم الذي ينهار عند نهاية دورة حياته.

-اهدأ يا حبيبي، اهدأ أعرف أنك تتألم، لكن ذلك لا يعني أن تفقد الرغبة في الحياة، الألم مشكلة يمكن حلها، وأنتَ يا بني لا تزال في مقتبل العمر، مما يعني، أن الوقت لا زال مبكراً جداً على انهيارك، قالت وقد عانقتني .

هنـاك ألـف سـبب فـي هـذا العـالم، قـادر علـى إشـعال وهجـك الـذي انطفـئ، وأول وأهـم سـبب هـو: الحُـب، أن تحـب امـرأة، يعنـي أن تحـب الحيـاة، الحُـب حيـاة ثانيـة يهبنـا الله إياهـا، عنـدما نكـون علـى شـفير المـوت، أنـا بحاجـةٍ إليـك يـا حبيبتـي، تعـالي، هلمـي يـا مارفـل، لتعيـدي تلـوين حيـاتي بـألوان الفـرح، تعـالي ولتبثـي الحيـاة فـي أعماقي الميتة.

ASRUD
للنشر الالكتروني

الفصل الخامس

مارفل:

"إني لم أتألم أبداً في حياتي كما أتألم اليوم، ولم أقرأ في كتاب من الكُتب أنَّ في طاقة بشري أنْ يتحمل ما أتحمل".

_مي زيادة.

استيقظتُ بعد ساعةٍ كاملة، متعبة ومتأففة، كبحتُ تثاؤباً وقمتُ لأفتح الباب الذي كان أبي واقفاً خلفه.

-أهلاً أبي، قلتُ بنبرةٍ ناعسة.

-ألا تأتين لتجلسي معنا، أنتِ هنا منذ رجوعك من الجامعة، والدتكِ قلقة عليك.

-قلقة! صحتُ: أمي قلقة؟ يا لها من طرفة مضحكة.

-مارفل! يكفي، لا تنسي أنها والدتك، صرخ والدي بغضب.

ثم خرج من الغرفة دون أن يضيف على كلامه شيئاً، وكأنه تعب منا نحن الاثنان -أمي وأنا- ولم يعد يعرف كيف يتصرف.

لا يهم، فقلق أمي صار جزءاً من حياتي، كل ما يهمني الآن هو يعقوب، فقد كنت قلقة من عدم رؤيته -وهو احتمال راجح- وفي الوقت نفسه، لدي فضول عنيد

لمفاجآت الغد الذي علّقتُ عليه طموحاتي في الحُب، ربما أبتسم ابتسامة الرضا، وربما الغد، الغد فقط هو مَن سيحدد ذلك، عدتُ إلى دفتري:

"كما ترى، أنا أحيا في بيت لا يعرفُ معنى السكينة والاطمئنان؛ فأمي دائمة القلق عليّ، لا تتركني وشأني، كلما قلتُ لنفسي أنها ربما تُغير من طبعها الجاف، تزداد الحالة سوءاً، ويصبحُ قلقها أسوأ من ذي قبل، ما يُعزيني هو وجود والدي، الذي يحيطني بالدفء والثقة التي من المستحيل أن أنالها من أمي؛ إنّ خوفها يخنقني، يُحيل بيني وبين الحياة التي خُلقتُ لأحياها، أنا عاجزة يا حبيبي لساني عاجز عن النطق، لا أجد كلاماً ولا طريقة لحل تلك المشكلة المعقدة، ليس لدي ما يعزيني، بدأتُ أفقد الثقة في كل ما يحيط بي، وأخشى أن أفقد كذلك، ثقتي بالحُب وبمصداقية مشاعري نحوك، أنا أتمزق يا يعقوب، في أعماقي صرخة عنيدة مكابرة وألم يمزق أحشائي، أنا أتعذب هذا فقط ما يمكنني قوله، لقد طغى السواد على كل شيء حولي، فأضحَت الحياة -في نظري- كئيبة، لا تحملُ بين طياتها قبساً للغبطة".

بكيتُ بمرارة، إلى أن غفوتُ -وبدون أن أشعر- على حافة السرير، إلى أن جاء الصباح الرائع، ذاك الذي رأيتكَ فيه فتجددت آمالي، وعادت الحياة تسري في عروقي!

يعقوب:

"أريد ان أراك وأتحدث معك، أريد لكلينا ان نبدأ كل شيء من البداية".

-هاروكي موراكامي.

في تلك الليلة نمتُ مضطرباً؛ إذ لم يكُن الألم قد تلاشى تماماً، قد رأيتُ الكابوس نفسه، إن حالتي ميؤوس منها، هذه حقيقة لا مفر منها، إلا إذا...

استيقظتُ متململاً -وتلك عادتي- إذ في كُل مرة أستيقظ فيها، كنتُ أشعر أنني بحاجةٍ لبضع ساعات إضافية من النوم، كان ذلك في البداية، فقد عادَ إليّ نشاطي بمجردِ التفكير في الأمر: اليوم، سأحاول أن أراها، لن أطيل المكوث في المنزل أكثر من ذلك إن أردتُ أن أتغلب على ألمي، إن أردتُ أنْ أقتل كوابيسي يجب أن أراها.

أسرعتُ في ارتداء ملابسي وهرعتُ متوجهاً إلى الجامعة.

-لا تذهب قبل أن تأكل يا ولدي، صاح والدي.

-لستُ جائعاً يا أبي، قلتُ: وأنا أخرج، سآكل في وقت لاحق.

رأيتها، بعينيها الخضراوين وابتسامتها الجذابة، ودون أن أشعر، وجدتُ نفسي أمشي نحوها، خطوات قليلة

تفصل بيننا، بدَت في تلك اللحظة.. طريق طويل لا نهاية له، لكني وصلتُ، وهذا ما يهم في النهاية، لقد وصلتُ إليها، إلى المرأة التي عرّفتني على أكثر المشاعر جنوناً: الحُب.

والتقينا، والتقت العيون، بقينا جامدين، ينظر كُل منا إلى الآخر بعيونٍ يلتمع فيها طيف الحُب.

-مرحباً، يعقوب، قالت بخجلٍ.

كيف أجيب وبماذا أجيب؟ لقد فقدت القدرة على الكلام، أمام تلك النظرة الجارفة التي أرجعتني إلى ذلك الوقت الذي كنتُ فيه طفلاً رضيعاً، لا يفقه شيئاً ولا يُدركُ بعد معنى الحياة.

-أهلاً، مارفل، تلعثمتُ.

وصمتنا لبضعِ دقائق.. كانَت كافية لالتماس الوجع القابع خلف تلك النظرة الطفولية.

-آسف، قلتُ دون أن أشعر.

-لماذا تعتذر؟ قالَت بنبرةٍ قلقة.

فأسرعتُ في الإجابة، كي أطرد مخاوفها..

-أمس، عندما أوقعت كتابك، آسف، لم أنتبه.

-لا بأس، لا توجد مشكلة، زفرَت.

-أتقبلين أن أدعوكِ على فنجان قهوة؟ قلتُ بتوترٍ واضح؛ إذ كنتُ أخشى أن يُقابل طلبي بالرفض.

-الآن؟

-هل توجدُ مشكلة؟ سألتُ بشيء من عدم اليقين، فقد اعتقدتُ أنها لن تقبل لكن.

-لا، لا مشكلة، قالَت مبتسمة.

يا له من يوم عجيب! أحقيقي ما يحدثُ، أم أني أهلوس وأتخيل؟ أنا الآن بصحبةِ "منقذتي" يا لها من لحظات ساحرة، طلبنا القهوة، وانتظرنا بضع دقائق، قبل أن أبدأ بالحديث:

-أرجو أن تعذريني...

-لا مشكلة، قطعَت كلامي قبل أن أكمل وكأنها عرفَت ما سأقول.

-إذاً؟

-إذاً ماذا؟

-لا أعرف، هززتُ كتفي.

وضحكنا معًا، صحيح أنّي حظيتُ بلحظاتٍ سعيدة، لكن تلك اللحظة.. كانَت وستظل من أكثر اللحظات سعادة في حياتي كلها.

-لأسألكَ أولاً، قررتْ البدء، هل قرأت رواية لغيوم ميسو من قبل؟

يا له من سؤال، ويا لها من بداية غريبة!

-لا، لم أقرأ له لكن أعتقد أن صديقي قرأ أغلب كتبه فهو يحب أسلوبه المشوق كما يقول دوماً.

-في هذه الحالة، قالَت وقد أخرجَت من حقيبتها رواية «سنترال بارك» سأعطيكَ هذه الرواية، لتتأكد أنَّ صديقكَ لم يكُن مخطئاً..

-لكن، نظرتُ إليها مطولاً.

-لقد قرأتُه بالفعل، أجابَت.

يا لهذه المرأة، كيف بإمكانها أن تفهمني دون أن أنطقَ حتى!

كيف يمكن لشخصٍ التقيتهُ تواً، أن يعرف ما يجول بخاطري، كيف بإمكانه أن يكونَ قريباً لتلك الدرجة؟ شعرتُ أني أعرفها منذ زمن طويل، وأنَّها لم تكُن غريبة عني، لم أكُن بحاجةٍ إلى التعرف عليها -كما ظننتُ- فحديثها السهل والممتع، يشعران الشخص حتى وإن كانتْ غريبة عنه أنه يعرفها بالفعل.

-أأعتبر فنجان القهوة، تعبيراً منكَ عن الاعتذار؟

-أجل، ربما..

-حسناً، اعتذارك مقبول، قالت مبتسمة.

-سأقرؤه، قلتُ مشيراً إلى الكتاب.

-وستعطيني رأيك بصدق، اتفقنا؟

-اتفقنا، عندما أنتهي منه سنتقابل هنا، وأقول لكِ رأيي.

ومضينا، كُل منا في طريقه مغتبطين حد الجنون، فعندما يجلس المرء قبالة شخصٍ يحبه -ولو لدقائق معدودة- ينسى الألم وكذلك العالم، لقد أصبحتُ مغرماً بتلك الدقائق التي تأخذني إلى عالم موازٍ، عالم لا يخلو من الغبطة، لا ألم فيه ولا كوابيس، بمجرد لمحة من عينيها، لمسة من يدها وهمسة من شفتيها أنتقلُ - وبسرعة أكبر من سرعة الضوء- إلى عالمها هي، العالم الذي يتلاشى فيه كُل شيء عداها، إذا أردتُ أن أنسى ماضيّ وألمي، يجبُ عليَّ أن أحصل على أكبر قدر ممكن من تلك الدقائق، ولتحقيق ذلك يجبُ أن أصبح لصاً متمرساً، أخترع الأسباب والحجج، لأتمكن من خطف بضعة دقائق من الأربع والعشرين ساعة خاصتها، أوليست الحاجة أم الاختراع؟ إذاً، سأخترع أي سبب حتى ولو بدا تافهاً؛ فأنا محتاج لوجودها بالقرب مني، محتاج لتلك الدقائق القليلة، التي أكتشف فيها المعنى الحقيقي للحياة.

مارفل:

أخيراً تحققت أمنيتي في ملاقاتك والحديث معك، أشعر بسعادة غامرة لم أشعر بها من قبل ولم أعشها إلا برفقتكَ يا محبوبي، تلك لحظات يجبُ أن تبقى محفورة في ذاكرتي إلى الأبد؛ لعلي أستطيع أن أسترجعها في يومٍ من الأيام، عندما أكون بقربكَ، وقد كسا الشيب

شعركَ وامتلأ وجهك بتجاعيد الزمن، ولا يوجدُ شيء أفضل من الكتابة التي تمكننا من عيش لحظاتنا الجميلة مراراً، عندما تدون الذكريات، فإنكَ تشيدُ باباً يمكنكَ من خلاله العودة إلى الماضي متى ما شعرتَ بالحنين للحظاتك الجميلة.

"لا يمكنكَ أن تتصور مدى سعادتي قط، أشعر بالراحة لمعرفتي أنَّكَ معي، وأنَّ الحُب حقيقة وليس خدعة كما ظننتُ، مغرمة بك وبالوقت الذي قضيته معك -رغم ضآلته- فالدقائق بقربكَ تصيرُ عُمراً ويهرب الألم تاركاً مكانه تيهًا لا متناهيًا، أحببتُ خجلك وسكونك، وارتباككَ الواضح رغم محاولاتك البائسة في إخفائه، وأحببتُ أكثر كيف أنّكَ قبلتَ أن تأخذ الكتاب الذي أعطيتكَ إياه، ووعدتني أن تقرأه، رغم أنّكَ -كما قلتَ لي- لم تقرأ كتب غيوم ميسو من قبل.. أي أنها المرّة الأولى التي ستقرأ فيها كتاباً لكاتبي المفضل، أرجو أن ينال إعجابك، وذلك سبب آخر يُضاعف من فرحتي؛ لاكتشافي أنَّكَ ستقرأ كتاباً لأجلي، لكن هناك شيئًا أود أن أسألكَ عنه، هل أنت على ما يُرام؟ لأني -واعذرني على فعلتي- رأيتُ في عينيكَ ألماً هائلاً واكتشفتُ، من خلال وجهك المُصفر وبُنيتكَ الهزيلة، أنّكَ متعبٌ، لكن لا تقلق، طالما أنا موجودة، فلَن تعرف معنى الألم لأني لن أسمح له أن يقترب من حبيبي.

سنلتقي ثانية، وستفصحُ لي عما يؤلمك ويؤرق فكرك؛ فأنا لا أحب أن أرى أكثر شخص أحبه على هذه الحالة دون أن أفعل شيئاً.

طُرق الباب ودخل من خلفه أبي، الذي فرِحَ عندما رآني والبسمة لا تبرح شفتي.

-ما الذي يجعلكِ سعيدة لتلك الدرجة؟ سأل بحنان.

-الحُب يا والدي، والرجل الذي أعشقه.. قلتُ وقد التمعَت عيناي.

-كم أحسده، فقد حظِي بقلبِ أغلى فتاة على قلبي، قال وهو يبتسمُ.

-أحبكَ يا أبي! عانقته.

بعد ذلك سألته عن أمي، فقال أنها لا تزال غاضبة، وطلب مني أن أرافقه للتحدث معها ومحاولة تليين قلبها.

-وماذا لو لم ترضَ؟ سألتُ.

-سترضى، قال جازماً: فقلبها رقيق، وهي تحبكِ قبل كُل شيء.

رافقته إلى المطبخ، حيث كانَت أمي جالسة تحتسي القهوة.

-أنا آسفة، قلتُ وقد دنوتُ منها.

-لا بأس، قالت وهي ترفع بصرها نحوي، لقد اعتدتُ على جنونك.

-لا حرمني الله منك، قلتُ بمرحٍ.

-لكن لا تكرريها ثانية، أنتِ ابنتي الوحيدة ومن الطبيعي أن أخاف عليكِ.

-فهمتُ يا أمي، قبلتُ جبينها.

تناولنا الغذاء ورجعتُ بعد ذلك إلى غرفتي

يعقوب:

"دائماً ما تكون ثمة لحظة، حيث أخيراً، يشير الوعد إلى مخرج".

-غيوم ميسو.

لأول مرة وبعد عشرين سنة من الهلاك، أشعر بهذا الكم الهائل من الغبطة والسكينة؛ فقد هدأ اضطرابي وتلاشت أوجاعي لتحل محلها راحة لا متناهية، وعلى الرغم من أنَّ اللقاء كان قصيراً، يكتنفه الخجل والارتباك -الذي لم أفلح في كبحه وقتئذ- إلا أنّي شعرتُ بأنَّ الله قد وهبني فرصة ثانية لأصحح أخطائي في ما مضى وأتمكن من ملامسة تلك التي ندعوها بالحياة..

عند وصولي، صعدتُ الدرج سريعاً لأتوغل في غرفتي، نبشتُ في حقيبتي إلى أن عثرتُ على «سنترال بارك» اضطجعت في السرير وبدأتُ أقرأ، تلك أول حيلة كنتُ أنوي استخدامها، لكي أتمكن من رؤيتها مجدداً، فهي أعطتني السكينة، الدفء والطمأنينة التي أفتقدها منذ زمن طويل. ولا بد أن نتمسكَ بهذا النوع من الأشخاص، فقد أصبح وجودهم نادر في أيامنا هذه.

هجمت على ذلك الكتاب، دون أن أتركه ولو لدقيقةٍ واحدة لقد أعجبني، وجدتُ فيه كُل شيء وجدتُ فيه نفسي، بكُل ما تحمله مِن ألمٍ وهَم، لدرجةِ أنّي بدأتُ أشكُ في مدى معرفة تلك المرأة لي، فقد وقعتْ عينيّ على عدد من الجمل التي تحكي بالضبط عما أشعر به، كيف يمكن لكتابٍ، أن يكونَ واقعياً لتلكَ الدرجة، بل كيف يمكن للكاتب أن يكونَ على هذه الدرجة من المعرفة، بما يجول في أعماقنا، لقد وجدتُ "أليس": المرأة التي عانَت ذات الألم الذي أعانيه: ألم الفقدان وشعور قاتل بالذنب، لدرجةِ أني كنتُ أبكي عليها بحرقةٍ ووجدتُ "غابرييل"، منقذ أليس الذي يشبه وإلى حد كبير حبيبتي مارفل، يا لها من رواية رائعة!

لا أعرفُ كيف سأعبر عن مدى إعجابي بها عندما أرى مارفل؟ تلك المرأة التي أعطتني المفاتيح، لأبواب ظننتُ أنها لن تُفتحَ أبداً، يا لها من امرأة رائعة،

مارفل، كم أنا محظوظ بها، محظوظ بالهدية التي وهبني الله إياها.

عندما أنهيتُ قراءة الكتاب، كان النعاس قد غلبني فغفوتُ دون أن أنتبه للوقت إذ ولأول مرّة أنام بفعلِ الإرهاق، وليس هرباً من الألم أو رغبة مِني في قضاء أكبر عدد من ساعات اليوم لأكون نائماً في السرير، دون أن تكون لدي النية في الاستيقاظ، وقضاء يوم آخر في مكابدة الألم العنيد، وهنا، يكمنُ جوهر الحُب فهو يعني، أن تعثر على ذلك الشخص، الذي سيرتقُ كُل جرحٍ سببته لك الأيام.

جاء الصباح، حيث تجهزتُ على أكمل وجه، وغادرتُ المنزل -للمرة الثانية- دون أن أتناول الفطور، فأنا الآن في سباق مع الزمن، ويجبُ عليّ الفوز في ذلك التحدي لأظفر ببضعِ دقائق من وقتها، ولأسكتَ قلبي الذي يُنادي باسمها ليل نهار دون أن يملَّ ولو للحظة واحدة ودون أن يرضى بتلك الدقائق القليلة، في الوقت الراهن لا أستطيع إلا أن أخطفَ من وقتها القليل، ربما في الأيام القادمة سيستحوذُ كل مِنّا على وقت الآخر، دون أن يتركَ ثانيةً واحدة تُفلِت من يديه؛ لأنَّ وقتها سيصيرُ ملكاً لي، وكذلك الأمر بالنسبة لوقتي، ففي الحُب تتلاشى الأنانية، ليحل محلها عطاء متبادل.. فهدف الإنسان من الحُب هو أن يجدَ الشخص الذي سيساعده على كبحِ غرائزه والتغيير من شخصيته..

ليخـرجَ إلـى العـالم بنسـخته الجديـدة، التـي تخلـو مـن كُـل مـا هو سيئ.

والتقينا.

ASRUD
للنشر الالكتروني

الفصل السادس

مارفل:

لا يمكنني الانتظار حتى يأتي الغد، حيث سأعرف رأيك في ما أحب وإلى أن يحين موعد لقائنا، فإني لن أكفَّ عن سؤال نفسي، هل سيحُب ما أحب، هل سيشاركني الشغف والاهتمام ذاته؟ أم أنه -ربما- سيراني مجرد امرأة "بلهاء"، تقرأ كُل ما يقع في يدها، دون أن يكونَ لها اختياراتها وذوقها الخاص، والحالة هذه، لا يمكنني أن أرجح أحد الاحتمالين على الآخر، فأنا لا أعرفكَ بما يكفي لكي أكونَ جازمة في اعتقاداتي، لذا سأنتظر مجيء الغد الذي سأتمكن فيه من معرفتكَ بشكلٍ أدق.

ومَن يدري؟ لربما وجدتُ فيكَ نفسي الضائعة والمتوجعة؛ فالحُب في نهاية المطاف، يقرِّبُ بين شخصين يتقاسمان الألم ذاته رغم الاختلاف الطفيف في الأسباب التي شوَّهَت ملامحَ الفرح في نفسيهما، وهاهنا تكمنُ أهميته، فهو يربط بيننا لكي يساعد أحدنا الآخر، على إعادة هيكلة أرواحنا، التي حطمها الألم في يومٍ من الأيام.

وبما أني فتاة مهووسة برائحة الورق وعبق الذكريات، رحتُ أدَوِّن ما أشعر به في تلك اللحظة.

"ألا يوجد في العالم شيء، بإمكانه أن يتغلب على ذلك الوقت الطويل؟ فيما مضى، كنتُ أحِب تلك الفكرة المتمثلة في وجود أربعٍ وعشرين ساعة، يستطيع المرء فعل كُل ما يريد وعلى أقل من مهله، لكن الآن وقد أصبحتُ عاشقة لأكثر رجل جذاب في الكون، فقد اختلفَ الوضع مائة وثمانين درجة، فقد بدأتُ أمقتُ الوقت، وشعرتُ لبرهةٍ أني قد دخلتُ في صراعٍ عنيف معه وكنتُ متيقنة، أني لن أستطيعَ التغلب عليه؛ فهو خصمٌ عنيد في النهاية، استسلمتُ لفكرةِ الانتظار المميتة، فبدأتُ أعدُ الدقائق والثواني التي تفصلُ بيننا، إلى أن يجيء الصباح حيثُ سأتمكنُ من رؤيتك، يا إشراقة الشمسِ التي تزورني في الصباح، فتُجملُ يومي وتدُب الغبطة في أوصالي، أنا في انتظارك.

أغلقتُ الدفتر، ورحتُ أقرأ رواية جديدة، إلى أن غلبني النعاس، فنمتُ.

يعقوب:

"أستطيعُ أن أحبَّ الأشياء بمجردِ أن أراها تحبهم، هكذا علمتُ بأنني أُحبُها."

-كريستوفر بويندكستر.

وأخيراً جاء الصباح، حيث سأتمكنُ من رؤيتها والحديث معها عن ذلك الكتاب الذي وجدتهُ في منتهى الروعة ولكي أتجنبَ أسئلة والداي، توجهتُ إلى المطبخ لأتناول الفطور على عجلٍ، لكن ذلك لم يمنعهما من سؤالي، فما إن جلستُ حتى راحا يرمقاني بنظراتٍ متعجبة وبفاه فاغر:

-ما هذه الأناقة، ألديك موعد مع فتاة؟ سأل والدي بمكرٍ.

-لا، أحاول أن أكون أنيقاً كبقية الرجال، هذا كل ما في الأمر، أجبتُ بثقةٍ.

-دعه يفعل ما يريد، قالَت أمي مبتسمة.

-هل سمعتَ يا أبي؟ فلتأخذ بنصيحةِ والدتي، قلتُ بمرحٍ.

-أيها الوغد!

نظر كُل مِنا إلى الآخر وضحكنا جميعاً، كنتُ مغرماً بتلك اللحظات القصيرة، التي يكتنفها الدفء العائلي حيث يشعر المرء فيها، أنَّ الزمن قد رجعَ به إلى مرحلة الطفولة.

قمتُ والتقطتُ حقيبتي التي كانَت تقبعُ بالقربِ مني ثم هرعتُ سريعاً إلى الباب الذي يُفضي إلى خارج المنزل وتوجهتُ إلى الجامعة، حيثُ سأجتمعُ بها ونتحدثُ عن ذلك الكتاب العجيب!

عندما وصلت وجدتها تدلف الجامعة، ودون أن تنتبه لوصولي استوقفتها قائلاً:

-مرحباً مارفل، كيف حالكِ اليوم؟

-أهلاً! صاحَت بمرحٍ، بأفضل حال ماذا عنكَ، هل؟

وبدون أن تتفوه بالباقي، فهمتُ قصدها فقلتُ: رائع، لقد أعجبني لدرجةِ أني أمضيتُ الليل بطولهِ أقرأ ذلك الكتاب، إلى أن أنهيتُه.

-يا إلهي! قالَت بنبرةٍ طفولية: أنتَ فضولي بشكلٍ رائع.

-وأنتِ حذقةٌ ودقيقة في اختياراتك، أشكركِ على المتعة التي شعرتُ بها أثناء قراءتي لذلك الكتاب!

رأيتها وقد احمرَّ وجهها خجلاً، بعد أن سمعتْ كلامي وكأنّ موجةً كاوية عبرَت جسدها للتو، فتغيرَت ملامحها واعتراها توتر وارتباكٌ جلي

فقالَت متلعثمة: على الرُحبِ والسعة.

-هل يمكنني أن أراكِ بعد نهاية الدوام؟ سألتها بشيء من القلق.

-أجل يمكنك، ألتقيكَ بعد الدوام، في مكانٍ قريب من هنا، حيث سأدعُكَ تتذوق ألذ شوكولاتة ساخنة.

قالَت بعفويةٍ: حسناً، اتفقنا.

مرَّ الوقتُ سريعاً، تحت تأثير الفرح الذي شعرتُ به بعد ذلك اللقاء في الصباح والموعد الذي يعقبه، لم

أشعر بالوقت؛ فقد كنتُ على موعدٍ ثانٍ مع مسببة الفرح وذلك تقدمٌ مذهل يستحقُ أن أحتفل بتحقيقي له، فقد تمكنتُ -وللمرّة الثانية- من ملاقاتها في اليوم نفسه، مما يعني أني بدأتُ -وبالتدريج- أستحوذ على أكبر قدر ممكن من وقتها، وهذا سببٌ آخر، يدعو إلى الشعور بالغبطة، فقد أحببتُ كيف أني استطعت أن أدخل حياتها، وأكون بين كومةِ التفاصيل التي تشغل تفكيرها ويومها، شعرتُ بأني تلك التفاحة التي تدحرجَت واصطدمَت برأسِها، لأصبحَ بعد ذلك، شغلها الشاغل والتفصيل الوحيد الذي يشغلُ الجزء الأكبر من وقتها والذي ستكتشف بفضلهِ قانوناً جديداً عن التجاذب العام، الذي يحدثُ بين قلبين التقيا مصادفةً في الجامعة، ووقع كُل منهما في حُب الآخر.

الحُب أساس الحياة، والشعور الذي تكلم عنه العلماء والفلاسفة على حدٍ سواء أحببتُ تلك الفكرة، المتمثلة في كوني تفاحة، كتلك التي اصطدمَت برأس نيوتن.. الذي اكتشفَ بعد تلك الحادثة العابرة قانون الجاذبية.

بعد نهاية الدوام، التقيتُ بها واقفةً عند الباب تنتظرني، لوحتُ لها:

-عذراً على التأخير، صحتُ.

-لا بأس، قالَت بعفوية.

مشينا على طول الطريق، دون أن ينطقَ أحدنا بكلمة.. إلى أن توقفنا أمام محل صغير، فقالَت وقتئذ:

-ها قد وصلنا، تفضل بالدخول إلى مكاني المفضل.

"تفصيلٌ مهم يجبُ أن أحشره في ذاكرتي".

عندما دخلنا المقهى، طلبَت كوبين من الشوكولاتة الساخنة وبدأنا نتحدث، إلى أن يجهز الطلب.

-إذاً، عم تريدُ أن نتحدث؟ سألَت.

-كما تعلمين، في لقائنا السابق لم نتحدث بما يكفي أعني لم أستطع التعرف عليكَ.

-آه فهمتُ، أنتَ تريد أن تعرف اهتماماتي والأشياء التي أحِبُ، قالَت بشيء من الخجل:

-بالضبط، أكدتُ لها.

-لك ذلك، لكنكَ ستفعل الشيء نفسه، ستحدثني عن نفسك.

-اتفقنا، قلتُ مبتسماً.

وهكذا، أمضينا ساعة كاملة تحدثنا فيها عن كُل شيء، وحتى عن ألمي! وهي كذلك وفَت بوعدها وكلمتني عن كُل ما تُحبُ وتهوى، أكمَلَت:

_أحب الشعر، الكتابة و الكتب، ما إن أفتح كتاباً يتلاشى ألمي تلقائياً، وأغوص في عالمٍ آخر وحياة أخرى، وكما ترى.. لقد أتينا إلى مكاني المفضل، حيث

أقضي هنا أغلب أوقاتي، أقرأ وأكتب وأحتسي الشوكولاتة الساخنة، ملحوظة مهمة: لستُ من عُشاق القهوة، وأنا وحيدةُ أبوَي، إضافة إلى تفاصيل أخرى، كاللون المفضل ونوع الموسيقى الذي تفضله وما إلى ذلك..

-مهلاً لحظة! استوقفتها: أتكتبين؟

-أجل أفعل، أكتب المذكرات أو أي شيء يخطر في بالي.

-رائع حقاً! صحتُ بإعجاب.

-شكراً لك، والآن حان دورك.

-أنا من عُشاق الرسم، أرسم كُل الوقت، أي شيء أراه أو أشعر به، أحبُ أن أجسده في لوحةٍ، أقرأ الروايات الرومانسية، وأحِبُ الشاي، ملحوظة: لدي التهاب في المعدة، وهذا هو السبب في أنني هزيل وذو وجه شاحب، وأنا أيضاً، وحيد أبوَي.

«دون أن أذكر لها، أنها المرأة التي أفقدتني صوابي وأني أحبها».

-التهاب المعدة، أليس الوقت مبكراً على ذلك؟

- قرأتُ في الكتاب الذي أعطيتني إياه اقتباس شدّ انتباهي؛ لأنه يشبه وإلى حد كبير معاناتي.

-ما هي؟ سألتْ بحماسٍ.

-ومع ذلك، فإن مصيبتنا لا تكمن فيما سرقته منا السنون، ولكن فيما تخلفه و هي تمضي قلتُ بسرعةٍ خاطفة.

-هل يمكنني أن أعرف، سبب ارتباط حياتكَ بهذا الاقتباس؟

-أجل يمكنك، ألا تتذكرين أننا اتفقنا أن نتحدث عن كُل شيء، لكي يعرف أحدنا الآخر بشكل أوضح؟

-بلى، أتذكر، أجابَت بعفويةٍ:

عندما حكيتُ لها قصتي، سكنَت لبرهةٍ قبل أن تقول: اسمع يا يعقوب، صحيحٌ أنَّكَ تتألم لكن صدقني، هناك كثير من الناس يعانون ويتألمون وإن كانوا أشداء من الخارج.. فإنهم ليسو كذلك إطلاقاً، هم فقط ينجحون في إخفاء ألمهم عن الآخرين، خوفاً من أن يُستغلوا ويصيرُ وجعهم موضوعاً للسخرية والإهانة ففي الوقتِ الراهن، صار الشخص الطيب نادر الوجود كأنْ تبحثَ عن الديناصورات في عام 2030، فإن العثور عليها أصبح مستحيلًا.

- كلامكِ منطقي، أظنُ أنَّ الناس صاروا يتعاملون مع آلام غيرهم باستهزاء مُطلق فهُم يرون أنَّ جروح الآخرين لا تساوي شيئاً بالمقارنة مع جروحهم.

-تماماً، قالَت مؤكدة، فلنفترض أنّ معدتكَ تؤلمكَ، وأنّ رأسي يؤلمني وجلسنا -كما نفعل الآن- معاً، ستقولُ لي

أنَّ ألـم المعـدة لا يُحتمـل وسـأقول لـك أنَّ الصـداع أشـد إيلامـاً مـن التهـاب المعـدة، هكـذا هـم النـاس لـن يشـعروا، فهُم يعتقدون أنَّ آلامك لا تساوي شيئاً، مقارنة بآلامهم.

كم أعجبني حديثها ليسَت إنسانة عادية، إنها فيلسوفة!

بعـد ذلـك اللقـاء الحُلـو، وبعـد أن تحـدثنا قرابـة السـاعتين، عـاد كُـل مِنـا إلـى منزلـه هـادئ البـال سـاكن الـروح ومغتبطـاً لأبعـدِ حـدّ، فقـد بـدأنا نشـعرُ بعـدمِ الاكتفـاء بالوقـت، وأننـا نحتـاجُ لسـاعاتٍ إضـافية نكـونُ فيهـا معـاً، وهـذه أولـى دلائـل الحُـب: التعلـق بمَـن تُحـب والشـعور الدائم بالحاجة إليه.

ذرعـتُ مـدخل المنـزل، وصـعدتُ بخطـواتٍ سـريعة إلـى غرفتـي حيـث سأرسـمُ "اللقـاء الأول" الـذي تمكنـتُ فيـه مـن معرفـة محبـوبتي عـن قُـرب و بشـكل أكثـر وضـوحاً، بالإضـافة إلـى ذلـك، فقـد عرفـتُ أشـياء مهمـة عنهـا، يجـبُ علـيّ أن أبقيهـا فـي ذاكرتـي وهـذه علامـة أخـرى توكـد علـى حُبـي لهـا: أن يقـومَ المُحـب بدراسـة كاملـة عـن محبوبـه، يعـرفُ مـن خلالهـا أدق التفاصـيل عنـه، لكـي يحشـرها فـي ذاكرتـه ويصـونها وتصـيرُ تفاصـيل الشـخص الآخـر، مـن أحـبّ الأشـياء علـى قلبـه، بـل أكثـر أهميـة مـن تفاصـيله حتـى، فتـراه -وبشـكلٍ مفـاجئ- يسـتمعُ إلـى أغـاني محبوبـه المفضـلة، ويقـرأ الكتـب التـي يقرأهـا حتـى أنـه يـتلفظ -لا إراديـاً- بكلمـاتٍ يقولهـا محبوبـه وقـد يغيـرُ مـن قناعاتـه لتتناسـب مـع قناعـات الشـخص الآخـر،

يحِب الأماكن التي لم يسبق له أن زارها.. وتبنى هوايات شخصه المفضل لهذا يُعتبر الحُب من أسمى العلاقات، فهو يغيرُ من طباع الرجل والمرأة على حد سواء.

ليس لدي ما يكفي من الوقت، يجبُ عليّ أنْ أرسم أكثر اللحظات سعادة، لتبقى حية حتى وإن دفنها الزمن تحت تراب النسيان..

مارفل:

"أحبك لأنك الشخص الوحيد الذي أستطيع التحدث معه عن ظل غيمة، وعن أغنية، وفكرة لا معنى لها! لأنك مَن أستطع أن أشاركه جميع ما يهم وما لا يهم."

-أنطون تشيخوف.

يا لهذا الحُب، الذي يُشعركَ -وبشكلٍ مُباغت- أنّكَ أكثر الناس حظاً على هذا الكوكب.

كُل شخص لديه طريقته في إيجاد المتعة وبالنسبة لي خلال الأربع وعشرين ساعة فإني لا أجد المتعة إلا بالدقائق التي أمضيها معكَ.. حيث أتصرَّف على سجيتي، وأشاركَ تفاصيل يومي حتى تلك التي تُعتبر في غاية التفاهة، والتي لا أستطيع مشاركتها مع الكُل

لأنهم ربما لن يفهموني مثلما تفعلُ أنتَ، مثلاً أن أحدثكَ بشغف -مبالغ فيه- عن جملةٍ في كتاب ما، أو عن الأحلام التي أراها أثناء نومي وإن لم أجد شيئاً ذا أهمية، فإني -ربما- سأحدثك عن تلك النجمة الوحيدة في السماء وأسألك وكأنك عالمُ فلكٍ، عن سبب وحدتها، أو عن لوحةِ فان جوخ الشهيرة "ليلة مليئة بالنجوم"، أو عن جبران خليل جبران ورسائله الطافحة بالرومانسية لمي زيادة بإمكاني أن أشاركك شغفي و حُبي للأشياء، فقط لأنني أحبُك.

وأنتَ، أنتَ بإمكانكَ أن تشاركني تفاصيل يومك، وكُل ما يؤرق فكرك فإني لأحبُّ قدرتي على استكشاف أعماقكَ.. لأتمكن من إزالة الشوائب وأزرعُ عوضاً عنها بستان رياحين أوج.

دخلتُ المنزل وتوجهتُ إلى المطبخ حيثُ وجدتُ أمي منهمكة في إعداد قالب حلوى، فصحتُ:

-أمي الغالية تعدُ قالب حلوى يا له من يوم رائع!

-أهلاً حبيبتي، قالَت مبتسمة: هيا اصعدي إلى غرفتكِ، بدلي ملابسكِ، وتعالي لتتناولي الغذاء.

-كما تريدين يا أمي، قلتُ بمرحٍ.

صعدتُ الدرج بخطواتٍ واسعة، قمتُ بتبديل ثيابي، أعدتُ تمسيد شعري وعدتُ إلى المطبخ.

-يا لها من رائحة! لا أستطيع الانتظار حتى أتذوق الكعكة، صحتُ بنبرةٍ طفولية.

-تريثي يا ابنتي، قالتْ وهي تضحك: تناولي غداءك أولاً.

أذعنتُ للأمر، وتناولتُ الغذاء بشهيةٍ. ثم صعدتُ إلى غرفتي.

-ألن تتذوقي قطعة من الكعك، سألَت أمي.

-ليس الآن يا أمي، ليس الآن.

أشعرُ بغبطةٍ غامرة؛ أرى الحُب متمثلاً أمامي، باسطاً لي ذراعيه، يغدقني بعطائه اللامتناهي.

يجبُ عليَّ أنْ أُدَونَ تلك اللحظات، أكثر اللحظات سعادةً في حياتي، «في رفقة السعادة» كتبتُ على الدفتر:

"اليوم، أمضيتُ أجمل ساعتين في رفقة السعادة.. أربعٌ و عشرون ساعة، أي ما يُعادلُ ألف وأربعمائة وأربعين دقيقة، استأنفُ منها ساعتين؛ أي: مائة وعشرون دقيقة أمضيتُ مائة وعشرين دقيقة برفقتكَ.. أكثر الدقائق روعةً في يومي وحياتي.. بصحبتكَ، يكتسبُ الوقت رونقاً خاصاً، معنى مختلفاً وجمالاً جامحًا.

إنَّ الساعات التي أقضيها معكَ، أكثر راحة حتى من تلك التي أمضيها نائمة، فهي تمضي سريعة، لطيفة ومليئة بالغبطة، التي قلّما أحصلُ عليها، وقد أجبتني على كُل الأسئلة التي كانَت تؤرقُ فكري و بالأخص، أجبتَ على أكثر الأسئلة أهمية بالنسبة إليَّ، تحدثتَ عن السبب الذي يجعلكَ تبدو كئيباً وهزيل البنية والآن وقد عرفتُ الأسباب التي أفقدتكَ رونقكَ وحيويتكَ -لا تزال جذاباً على الرغم من ذلك- فإني سأبذلُ ما في وسعي لأجعلكَ تنسى ألمكَ، هناك شيء لفت نظري وأعجبني فيك -كُل ما فيك يعجبني- وهو: ابتسامتكَ التي لا تزول، رغم كُل ما تعانيه فإنَّ تلك الابتسامة هي طريقتك الخاصة في إخفاء ما تعانيه من آلام.

أنتَ صلبٌ رغمَ ألمكَ، ضعيف رغم صلابتك وأنا متأكدة، أنَّ لا أحد ممن تعرفهم، يقدر على تمييز الألم القابع في عينيك، إلا أولئك الذين يعرفونكَ عن قُرب وهذه صفة جيدة قلّما نجدها في الأشخاص إذ أنَّ أغلب الناس، يمضون حياتهم وهم متذمرون مما لديهم من نقص، دون أن ينجحوا في مداراة آلامهم بمفردهم، هذه النوعية من الأشخاص، هي أكثر ما يبعثُ في نفسي الاشمئزاز، الجميع يبحثُ عن الكمال، ناسينَ أنَّ الكمال لله وحده، والأغرب من كُل هذا، أنهم لا يملون من التذمر والشكوى، كأنَّ ذلك سيساعدهم في الحصول على ما يريدون، ليسَت المشكلة في الشكوى، إنما في

مَن تشتكي إليه، فلنفترض أنَّكَ اشتكيتَ لصاحبك وقلتَ له أنَّكَ لا تستطيعُ أن تحتملَ الألم وأنَّكَ ترغب في الموت.. سينصحكَ ويواسيك بعباراتٍ -مللتَ من كثرة سماعها- وبعد؟ ماذا سيفعلُ بعد ذلك؟ لا شيء، لن يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك، لا أحد قادرٌ على مداراة جراحكَ، سوى الله لذي خلقكَ وسوّاك، فتوكل عليه ولتذهب إليه بقلبٍ صادق، وسترى بعد ذلك، التغير الجذري -الذي ظننتَ أنَّه مستحيل- في حياتِكَ كاملة.

لقد أحببتكً، بكُل النُدب التي خلفها الزمن في نفسكَ، أحببتُ عيوبك، وجهك المُصفر وجسدك الهزيل والأهم، أحببتُ تلك الابتسامة التي تُظهركَ بمظهر الشخص الصُلب!

أغلقتُ الدفتر وعدتُ إلى عائلتي...

ASRUD
للنشر الالكتروني

الفصل السابع

يعقوب:

رسمتها، كملاكٍ هادئ يبسط لي جناحيه من العدَم ويخرجني من مستنقعِ الكوابيس العفِن بابتسامتها التي تشبه ابتسامة طفلٍ، وشعرها الذي كانَت قد جدلته، بدَت في تلك اللحظة، نسخة طبق الأصل من أختي سارة، التي طالما تخيلتُ ملامحها، هل يُعقل أنَّ الله بعثَ بِأختي مجدداً، ولكن بصورةٍ وشكلٍ مختلفين؟ أيعقلُ أنَّها تُشبهها فتأتي تلك الفتاة لتنتقمَ مني وتجرعني السُمَّ مرَّة أخرى! أم أنها كما أتخيلها دوماً، المرأة التي ستتمكنُ من إنقاذي وبثّ الحياة في أوصالي الميتة؟ لا أعرف ما يمكن أن يحدثَ ولا أدري إن كان أي من هذين هو المشكلة: أن أكونَ على معرفةٍ كاملة بما يجري، أو أن أكونَ على جهل تام به، الأمر الذي يمكنني أن أكونَ متيقناً منه، هو أنَّني سأتألم في كلا الحالتين وإن كان أحد الاحتمالين أقل إيلاماً من الآخر، تلك غريزة موجودة لدى غالبية الناس، أن يتمكنوا من معرفة ما سيحدث، لدى اختيارهم للأشياء أو الأشخاص، وكأنَّ ذلك سيساعدهم على تجنب الألم المحتمل.

بينما كنتُ غارقاً في التفكير، اهتز الهاتف بالقربِ مني رسالة من غيث:

-لم أكُن أعتقد أنّي منسي لهذه الدرجة، ألا تسأل عني يا يعقوب؟

-أهلاً غيث، اعذرني يا صديقي.. فقد هدّني التعب في الفترة الأخيرة، كيف حالك؟

-لكن ذلك لا يمنعكَ من السؤال عن صديقك، على كُل حال.. أراكَ غداً.

-ألن تقول لي ما الذي يحدث؟

-ستعرفُ كُل شيء غداً.

بعد الرسالة الأخيرة، شعرتُ بالخوفِ يشلُ أطرافي.. وبدأتْ آلاف الاحتمالات تتزاحم في رأسي؛ ماذا يقصد بجملته، أيعقلُ أن تكون أختي لا زالت على قيد الحياة، هل يمكن أن تكون قد نجَت من الحادث؟ هل عُثرَ عليها بعد كُل تلك السنوات التي أمضيتها في جحيم الذنب؟ أم أنَّها ماتت بالفعل وأنَّ آمالي في عودتها، ما هي إلا دربٌ من الجنون.

أكاد أفقد صوابي، ما الذي فعلتَه يا غيث ألا أستطيع أن أنام بسببك!

رميتُ الهاتف جانباً، وجبتُ الغرفة جيئةً و ذهاباً إلى أن تعبْتُ، وبعد أن أمضيتُ أغلب الوقت في الرسم كان جسدي يصرخُ مستغيثاً، فاضطجعتُ على السرير وغفوتُ بصعوبةٍ بالغة، تبًا، لقد أفسدتَ عليَّ فرحتي! جاء الصباح، حيث سأفهم كُل شيء، مشيتُ بخطوات

متثاقلة إلى المطبخ لأرتشف بعضاً من الماء، وعدتُ إلى غرفتي.. ارتديتُ ثيابي وذهبتُ لمقابلة غيث، حيث سنلتقي في مقهى قريب من الجامعة، ولكي أملأ معدتي الفارغة، تناولتُ شطيرة الجُبن التي أعدتها أمي على عجلٍ، لكي لا أخرج دون أن أتناول شيئاً..

-مرحباً غيث! لوحتُ له

-أهلاً صديقي.. قال بفتورٍ.

-ما بكَ يا صديقي؟ سألتُه: لقد أقلقتني.

-لقد تركتُ المنزل، قال بعينين محمرتين: أبي طردني ليلة أمس.

-ماذا تقول! قلتُ فاغر الفاه.

-كما سمعت، هز كتفيه بلا مبالاة.

-ولكن ما السبب؟

-يريدني أن أتزوجَ، لقد تصرف معي بلا مبالاة وعندما قلتُ له أني لن أفعل ما يريد غضب مني وطردني لأنه يعتقد أني ولد عاق.

-مشكلتك أصعب مما تصورت، والدك عنيد ولا أظن أنه سيتفهمك.

-مشكلتي مع أبي قبل كُل شيء، قال بنبرةٍ متهدجة: فهو لا يريد أنْ يفهمني.

-اسمع، ستأتي معي، ستبقى في منزلنا إلى أن تجد حلاً، قلتُ محاولاً تهدئته.

وبالرغمِ من محاولاته البائسة في التملص إلا أنه رضخ في نهاية الأمر.

-لكني سأنامُ على الأريكه، اتفقنا؟

-كما تريد يا صديقي! قلتُ محاولاً إقناعه.

ثم دلفنا الجامعة، وهناك حدث شيء غريب، فجأة وبينما كنا في صدد الدخول إلى القاعة قال غيث:

-سأذهبُ لأتحدث مع خالتي، لعلها تجدُ حلاً لمشكلتي.

واختفى..

في تلك الأثناء، وجدتُ مارفل التي كانَت هي الأخرى في صدد الدخول إلى قاعتها.

-مرحباً يا مارفل، صحتُ بفرح.

التفتت صوبي، وقد ارتسمَت ابتسامةٌ على شفتيها:

-أهلاً يا يعقوب، كيف حالك؟

-بأفضل حال وأنتِ؟

-الحمد لله.

-أيمكننا أن نلتقي ثانيةً، فقد أحببتُ ذلك المكان والشوكولاتة الساخنة التي يقدمونها هناك.

-بكُل تأكيد، ابتسمَت.

-أراكِ بعد الدوام، وداعاً.

وذهب كُل مِنا في طريقه، بقيتُ أنتظرُ قدوم غيث، الذي جاء بعد عشر دقائق.

-لِمَ تأخرتً يا رجل؟ ستفوتنا المحاضرة.

-أعتذر، لقد صادفتُ صديقي في المدرسة، إنه يدرس هنا، تحدثنا لبعض الوقت و...

لكني قاطعت كلامه قائلاً: حسناً لقد فهمتُ، هلّا ذهبنا الآن؟

-طبعاً.

بعد الانتهاء من الدوام، ذهب غيث ليتناول الغذاء في مطعم يقدم الوجبات السريعة فهو -على حد قوله- لا يريد أن يشعرَ بالحرج، بينما ذهبتُ إلى المكان الذي سأقابل فيه مارفل، و قد تمكنتُ من خداع غيث.. إذ قلتُ له أني سأنتظره في المنزل.

في طريقي، وبينما كنتُ أبطئ من خطواتي لكي لا أسبقها، صاحَت من خلفي:

-آسفة على تأخري، قالَت وهي تلهثُ: لكني اضطررتُ للوقوف مع صديقاتي إلى أن انتهين من الحديث.

-لا بأس، ضحكتُ، فكما ترين، عمدتُ إلى الابطاء من خطواتي لكي لا أذهب وحدي، فقد خشيتُ أن أضيع.

-حسناً، من الجيد أني أتيتُ!

لا تصدقيني، أنا لا أخشى الضياع، فأنتِ بوصلتي ولن أضيع برفقتك.

-إذاً، كيف حالكِ اليوم؟

-الحمد لله، ماذا عنكَ؟

-بأجزل حال، دعيني أسألكِ سؤالاً.

-تفضل، قالَت مبتسمة: أنا أسمعُك.

-هل سبق لكِ أن قرأتِ، رواية ما رواه البحر لساندرا سراج؟

-لا، لم أقرأها.. لِمَ تسأل؟

سأدعكِ الآن تعرفين ما يمكنُ للحُب أن يفعله؛ إنه ليس شعوراً مُحطماً كما يعتقد البعض، فبفضل الحُب نتخطى وجعاً ألمَّ بنا، ويهدينا الله آلاف الفُرص، كما حصل مع ليل وعاصي.

-ستعرفين عندما تقومي بقرائتها، ناولتها إياه: لستِ الوحيدة التي يمكنها إهداء كتاب، لكاتب يستهويها، قلتُ بشيء من الدعابة.

-بدون شك، هزّت كتفيها، فالقراءة لا تعرف الأنانية، إنما هي تبادل كامل للمعرفة، فإن قرأتَ كتاباً ما وحصلتَ على المتعة والاستفادة المرجوة من قرائتك له، يجبُ عليكَ أن تقوم بإعطائه، لكُلِّ شخص يشاركَ شغف القراءة.

-هـذا بالضـبط مـا أقصـده مـن إعطائـكِ ذلـك الكتـاب، ستحصلين على المتعة وتستفيدين منه أيضاً.

-لا أشكُ في ذلك، طالما أنَّ مَن قرؤه هو أنتَ!

يا لـكِ مـن امـرأة متواضـعة، لدرجـةِ أنـي أفقـد تـوازني أمـام هـذا الإطـراء والرومانسـية المغلفـة بـالغموض والخجـل، مـع أننـا لـم نعـرف بعضـنا إلا منـذ أيـام إلا أنَّـكِ تمنحينـي ثقتـكِ وكأنـكِ تعرفينـي منـذ زمـن بعيـد، وهـذه نقطـة يجـب أن أتوقـف عنـدها.. فهـي مخيفـة بقـدر مـا هـي مُفرحـة، حتـى وإن جمـع الحُـب بيننـا، فأنـا أُفضـلُ أنْ تكـون هنـاك لمسـة مـن الغمـوض فـي ملامـح كُـل منـا، حتـى نـتمكن مـن اكتشـاف بعضـنا الـبعض، ولنمـنح أنفسـنا فرصـة الشـعور بالانبهـار، أحـب أن أعرفـك وأكسـب ثقتـك، لكـن لـيس بهـذا الشـكل، إنمـا بـبطء وبصـبرٍ شـديدين، فـلا أحـد يُعطـي مفتـاح روحـه لأولِ شـخص يصـادفه فـي الطريـق، وبالتـالي، فأنـا لـم أتمكـن مـن التعـرف عليـكِ بِمَ يكفـي، كـي أمنحـكِ مفتـاح روحـي -أقصـد ثقتـي- ممـا يعنـي، أننـي لا أزال أشـكُ فـي مـدى صـدقكِ معـي، علـى الـرغم مـن هـذا الشـعور الجـارف الـذي لا يرضـى بقليـل مـن العقلانيـة والمنطـق، لابـد للمـرء أن يشـكَ، حتـى يصـلَ إلـى الحقيقـة المُطلقة الذي يبحث عنها في ملامح الآخر.

-شـكراً علـى تواضـعكِ، لكـن لا تسـتعجلي الأمـور، اقـرأي الكتاب أولاً.

شعرتُ بملامحها تتغير، و قد بدَت محرجةٌ بعض الشيء من كلامي، يا لكَ من مغفل! كيف ستعالج الموقف الآن؟

-أعتذر، قلتُ مرتبكاً: لم أقصد إهانتكِ يا مارفل.

-لا بأس، اعذرني يجبُ أن أذهب فقد تأخرتُ، جمعَت أغراضها وأخذت الكتاب الذي أعطيتها إياه وانصرفَت.

أيها الغبي! ها قد جرحتها، هل كنتَ ستخسرُ شيئاً لو أنَّك لم تتفوه بتلك النصائح؟

شعرتُ لوهلةٍ أني ارتكبتُ حماقة، على الرغمِ من أنَّ نيتي كانَت تقديم النُصحِ، إلا أني وبلحظةٍ حطمتُ كُل شيء، لكنك عرفتَ على الأقل سراً من أسرارها الدفينة.. إنها تغضبُ بسرعة لذا، ينبغي عليّ أن أتوخى الحذر في الأيام القادمة.. قبل أن أتفوه بأي شيء قد يجرحها أو يضعها في موقف محرج، وهذا ما كنتُ أقصده عندما تحدثتُ عن الرويةِ في الاكتشاف، حيث يجبُ أن أعرف أسوأ طباعها قبل أفضلها؛ فالحُب أيضاً لا يخلو من بعض العثرات، إنه ليس مجرد ضحكات ولحظات تغمرها الغبطة، بل فيه لحظات تتخللها المرارة والشك والغضب وبعض العناد والمكابرة وربما الكذب، قد تكتشف وبعد فوات الأوان أنَّك لم تكُن سوى ضحية، وشخص انطلَت عليه خدعة الحُب.

أنا الآن في مأزقٍ لم أكُن أتوقع حدوثه، لا أعرف كيف أتصرفُ في موقفٍ كهذا فأنا لا أعرفها بمَا يكفي لكي أتوقع ردود أفعالها و لستُ متأكداً من أنها ستُسامحني على أول خطأ اقترفته بحقها، ما هذه البلوى، أيعقلُ أنّي عاثر الحظ لهذه الدرجة؟ أأُحرَم من الحُب حتى قبل أن أبدأ به أو أعرفه؟

مارفل:

يا لكَ مِن شخص مغرور لدرجةِ أنَّك تقول كلامك دون أن تُراعي شعوري، هناك شيء استفزني فيك، بعيداً عن كُل ما قلته من كلام جارح، وهو استخفافكَ بي وبالثقة التي منحتك إياها دون أن تطلب ذلك حتى! ماذا تقصدُ بتصرفكَ المُهين هذا؟ أتقصدُ أني امرأة بلهاء تثق بأي شخص تصادفه في طريقها؟ أم أنَّ المرأة التي أمامك ليسَت سوى محتالة تريد أن تخدعك باسمِ الحُب؟ أنتَ لا تعرفني، أنا امرأة أتسم بالعناد وحُب التحدي وسترى ذلك بأمِ عينيكَ، سأجعلكَ تعضُ أصابعكَ ندماً وأسفاً، وستعرفُ أنّي صادقة وأنَّ وجودي في حياتك ليس إلا لسبب واحد فقط، وهو الحُب، وسأبذل جهدي لكي أثبتَ لكَ ذلك أنتَ مَن أقحمتَ نفسكَ في هذه اللعبة، وعليكَ أن تكون صبوراً وتتحلى بالصلادة، لأنكَ ستُهزم.

انكببتُ على قراءة ذلك الكتاب؛ لعلّي أجد إشارة أستطيع من خلالها حل اللغز الذي يشغلُ تفكيري منذ أكثر من ثلاث ساعات، رُبما أجد بين تلك الصفحات، أجوبة للأسئلة التي تؤرق فكري وكذلك أتمكن من فهمه وفهمِ غاياته من إعطائه إياي تلك الرواية، وأعتقد أني -بعد أن التهمتُ نصف صفحات الكتاب- تمكنتُ من الوصول إلى نتيجة.

إنه يريدُ أنْ يتوغل في أعماقي، يريدُ أن يكتشف أسوأ ما فيّ، فهو لا يهتم إطلاقاً بالصفات والطباع الجيدة التي أحملها، بل يعتقدُ أنها تشكلُ عائقاً يحول بينه وبين المعرفة الحقيقية للشخص؛ إذ -ربما- ينخدع بالصفات الجيدة دون أن يعرف النية الحقيقية للمرأة التي اقتحمت حياته فجأة، ولكي أكسب التحدي يجبُ عليّ أن أمنحه فرصة التروي في اكتشافي، بمعنى آخر، يجبُ أن يرى عالمي الموازي، العالم الذي أنجح من خلاله في كبح كُل مساوئي، لإبانة الجيد في شخصيتي فقط، لكن ذلك لا يُجدي -كما عرفتُ- في الحُب نفعاً، فكيف سيعرفني إن لم أُظهر له سوى الجانب الجيد، وكيف سيثق بي إن لم أبسط ماضيّ أمام ناظريه؟

يا لكِ من غبية! لقد استعجلتِ في حُكمكِ عليه للمرة الثانية، فهو لم يكُن يقصد الاستخفاف بك، إنما كان يريدُ أن يعرفك، يعرف كيف تتصرفين وكيف تغضبين، كيف تصرخين وكيف تواجهين الألم، كان

يريد أن يعرف الأسباب التي تحثكِ على الكآبة، والأسباب التي تجعلكِ تبكين، لم يكُن يريد أن يتعرف إلى مشروبك المفضل ولا نوع الروايات التي تقرئينها ولا الموسيقى التي تسمعينها، المعرفة في الحُب لا تقتصر على تلك الأشياء، إنها أعمق ممَا ظننتُ.

-لقد تسرعتُ في ردة فعلي، تمتمتُ وأنا أقرأ. هو لم يكُن يهيننني بل كانَ قصده ونيته واضحة: أن نتعرف إلى بعضنا بشكلٍ أعمق وبصبرٍ وبطء شديدين.

كيف سأتمكنُ من ملاقاته بعد التصرف وردة الفعل الصبيانية التي أبديتها وقتئذ؟ يجبُ عليَّ أن أجدَ طريقةً فعالة، أتمكن فيها من إعادة الأمور إلى نِصابها ثانيةً، يجبُ عليَّ أن أجده، وهذه المرة سأضرب بالغرور والمكابرة عرض الحائط وسأعترف أنني أخطأت وكذلك هُزمتُ! كتبتُ في دفتري:

"لقد هزمتني كما تفعلُ دائماً، أشعرُ بالخزي من نفسي لأنني -وللوهلة الأولى- فهمتكَ على نحو خاطئ بل وكرهتُك لأنني اعتقدتُ أنكَ شخص مغرور، سامحني أرجوك، فأنا امرأة لم تعرف الحُب إلا حين اقتحمتَ حياتها، وبصفتي مبتدئة في تلك التجربة، فإنَّ معرفتي فيها ضئيلة، أشكرك على هديتك الرائعة، فبفضلِ ليل وعاصي، تمكنتُ من فهمك وفهم مطلبك، أنتَ تريد أن تعرفني بشكلٍ أعمق، تريدُ أن تعرف الجانب الآخر من شخصيتي، ولا ألومُك على ذلك، فأعماق

الإنسان كمفاتيح البيانو، فيها الجيد وهو الأبيض وفيها السيئ وهو الأسود، وأنتَ تريد أن تعرف السيئ؛ حتى تتمكن من فهمِ سيكولوجيتي وتتعامل مع ردود فعلي على النحو الصحيح، لقد تعلمتُ اليوم أنَّ التسرع لا يُجدي نفعاً وأنني يجب أن أكون صبورة في تعاملي مع الأشياء والأشخاص وحتى المشاعر.

لذلك عندما أراكَ، سأجيبكَ على كُل الأسئلة التي تتزاحم في ذهنك، حتى تتأكد من مدى مصداقيتي معك، ولا بأس إن أردتَ أن تتريث، لا مشكلة حتى وإن سألتني في الشهر مرة، فأنا أحب أن أكونَ موضع اهتمامك على المدى الطويل.

يجب عليكِ أن تكملي الكتاب حتى تتمكني من ملاقاته في الغد، توغلي في الكتاب، اشعري وافهمي؛ فالقراءة لا تتوقف على العاطفة، بل ينبغي أن نستخدم العقل كي نتمكن من فهم المكتوب ونكوِن فكرة عن الكتاب، أن تقرأ يعني أن تفهم العالم مما حولك ثم يأتي الشعور الذي هو في الأساس تحفيز من الدماغ، لذلك يجبُ عليّ أن أفهم حتى أشعر، والأمر سيان بالنسبة للحُب، حيث يجبُ أن يقوم كُل منا بقراءة الآخر مستعملاً عقله حتى يتمكن بعد ذلك من تكوين معرفة عميقة عنه ثم يأتي دور الشعور وبعد أن عرفنا الشخص معرفة دقيقة، يمكننا أن نحددَ طبيعة مشاعرنا نحوه.

ســـأحاول غـــداً ملاقاتـــك والتحـــدث معـــك، يـــا أســـتاذي وفيلسوفي المُبهر، الذي بفضله عرفتُ الحُب وخباياه.

ASRUD
للنشر الالكتروني

الفصل الثامن

يعقوب:

"أم تُـراه خُلـق مـن أجـل ذلـك لكـي يبقـى ولـو لحظـة على مقربةٍ من قلبك".

-إيفان تورغينييف.

لا أستطيع النوم بسبب الهم الجديد الذي اقتحم حياتي، منذ أكثر من ساعتين وأنا أفكر في المشكلة التي سببتُها لنفسي، لدرجة أني أجدُ صعوبة في ممارسة أقل الأشياء جُهداً، فالأفكار التي في رأسي تعيق ذلك، أفكر دون توقف لدرجةٍ أشعرُ معها أنَّ عقلي يصرخُ مستنجداً إياي، أشعرُ أحياناً أنَّ الأفكار كطبلٍ، لا يكفُ عن إحداث الضوضاء في رأسي، أود لو أستطيع قضاء يوم واحد دون أن أفكر، أريدُ أن أرتاح وأُرِيح عقلي المسكين، لكن لا شيء يوحي إلي بذلك، فالهموم تلاحقني أينما ذهبت وأنا الذي ظننتُ أني سأجدُ العزاء في الحُب، فلم أجد منه سوى هم جديد يُضاف إلى همومي القديمة.. ولنفرِض أنها ستُصفحُ عمَّ فات، ما الذي يؤكد لي أنها لن تتركني بعد أن تعلقتُ بفكرة وجودها بحياتي، لاعتقادها أني لستُ سوى شخص مجنون، يبكي على الأطلال ولا ينفكُ يطاردُ طيف الماضي.

لا أستطيع أن أتقبل رحيلها بعد تعلقي بها وكأنها منقذتي من الغرق، هل كان تصرفي في تلك اللحظة عقلانياً، أم أنَّه تصرف ينمُ عن الكبرياء والغرور؟ ما كان ينبغي أنْ أهينها وأشعرها بأنها عجولة، أو ربما أخطأتُ في إيصال الفكرة، ألا وهي التريث في أمور الحياة عامة وأيضاً، أن تمنحني فرصة اكتشاف حقيقية، أعرف من خلالها تفاصيلاً أهم عن حياتها، غير موسيقاها ومشروبها ولونها المفضل، ريدُ أن أعرفها هي، بعثراتها وأخطاءها بمشاعرها المختلفة وبالكآبة التي تخفيها عن الغالبية وربما علاقاتها الفاشلة التي استنزفَت روحها وكرهتها بالحُب، أريد أن أعرف إن كانَت صادقةً في نيتها ومشاعرها نحوي، أم أني لستُ سوى وسيلة تستطيع -من خلالها- الانتقام من الرجل الذي أذاها؟

-ألم تنم بعد؟ قال والدي وهو يذرع الغرفة.

-لا أستطيع، التفكير يمنعني من إغماض عيني.

-فيمَ تفكرُ في وقتٍ كهذا؟ قال بعطفٍ، نمْ يا ولدي ودع عنكَ التفكير في أمور مضَت، فما الحياة إلا رحلة قصيرة، فاحرص على اغتنامِ الفرصة وعِشها كما ينبغي.

-سأحاولُ يا والدي، قلتُ بنبرةٍ يتخللها عدم اليقين.

مـا أسـهل أن ينصـحكَ النـاس، الـذين لـم يمـروا بتجربتـكَ، وكـأنَّ كلامهـم سـيغيرُ شـيئاً، وكأنَّـكَ كنـتَ فـي انتظـار نصـيحتهم لتُعـاود الوقـوف وتسـتأنف المُضـي فـي طريـق الحياة.

وفجـأة تـذكرتُ غيـث! يـا إلهـي كيـف نسـيتُه ولِـمَ، لـم يـأتِ كمـا وعـدني؟ هـل حـدث لـه مكـروه أم أنـه لـم يـأتِ لأنَّـه خاف من أن يضايق أحداً؟

أمسكتُ الهاتف وكتبتُ:

-لمَ تأخرتَ في المجيء إلى هنا؟

وانتظـرتُ جوابـاً، ربـع سـاعة كاملـة مـن الانتظـار دون أن أجـدَ منـه جوابـاً، اتصـلتُ عشـرين مـرة وفـي كُـل مـرّة أجد النتائج ذاتها، لا أحد يُجيب!

تباً! ما الذي يجري الآن؟ ما هذا الذي يحدثُ معي؟

سـارة، مارفـل، وغيـث، كلهـم لـديهم غايـة وحيـدة، يريـدون أن يفقدونني صوابي.

أين اختفيتَ يا غيث ولمَ لا تجيب على اتصالاتي؟

-ما المشكلة؟ سأل والدي بقلقٍ

-غيـث، مـن المفتـرض أن ينـام هنـا كمـا اتفقنـا لكنـه لـم يـأتِ والأسـوأ مـن هـذا، إنـه لا يجيـب لا علـى رسـالة ولا علـى اتصال! قلتُ وأنا أضع رأسي بين يدي.

-اهدأ يا حبيبي، ربما لم يُرد إحراجك، فذهب عند أحد أقاربه.

-لكن...

-قلتُ لكَ اهدأ واخلُد إلى النوم، قال محاولاً تهدئتي.

-حسناً، أذعنتُ على مضض.

بجسدٍ نصف مستيقظ، ذهبتُ إلى المطبخ لأعدَ بعض الشاي، إذ كنتُ مستيقظاً في وقت أبكر من المعتاد، بسبب القلق الذي ما انفكَ ينغص عليّ نومتي، مما اضطرني إلى تركِ السرير.

وبينما أُعد الشاي، تفحصتُ سجل المكالمات وتطبيق الرسائل، لا شيء، لقد تبخر منذ أمس.

فكرتُ فيه، بمارفل وبنفسي، ثلاثة أشخاص، كُل مِنا لديه حكاية خاصة وألم خاص، وجميعنا -على نحو غريب- مترابطون ببعضنا وكأنّ أحدنا يكمل نقص الآخر، غيث يمنحني عاطفة الأخ التي حُرمتُ منها، وأنا أمنحه الثقة التي عجز أهله عن إعطائه إياها، ومارفل.. ماذا تمنحني بالمقابل؟ لا يمكنني أن أكون متأكداً بخصوصها؛ فأنا لا أعرف شيئاً حتى هذه اللحظة، هي في نظري امرأة غامضة بحاجةٍ إلى رحلة اكتشاف طويلة، حتى أتمكن في النهاية من تحديد موقعها في الجملة، أهي مبتدأ أم خبرٌ، ماضي أم حاضر ومستقبل؟ أم أنها -بالفعل- ماضيّ وحاضري

ومستقبلي، لكنّ الخوف يمنعني من تصديق ذلك، ويدفعني إلى الاعتقاد بأني مخدوع؟ أيمكنُ أن تكونَ الصدفة التي جمعَت بيننا حقيقية أم أنها كذبة اختلقتها لكي تؤذيني؟ وهذا الشعور، ماذا أفعلُ به؟ إنهُ لا يكفُ عن سحبي وكأني عالقٌ في بركة رمال متحركة.. وكلما حاولتُ الهرب تتشبثُ بي وتسحبني بعنفوانٍ أكبر من ذي قبل.

ألم أكن في الأمس مغتبطاً بوجودها، ألم أقُل أنها منقذتي والشخص الذي سيساعدني على تخطي الألم؟ ما الذي يجري وما الذي تغير فجأة؟ ولِمَ لا أستطيع أن أوقفَ ذلك الصوت الذي لا ينفكُ يتردد في مسامعي، قائلاً أنَّ هناك مصيبة تتخفى وراء ذلك الوجه الأنثوي الجذاب؟ لِمَ أشعرُ بالخوف من الطمأنينة التي هبطَت على حياتي فجأة؟ لِمَ لا أستطيع أن أتقبل التغير الذي طرأ على حياتي والذي قد يُنسيني مرارة ما عانيته سابقاً؟ لماذا أرفض إطلاق العنان لقلبي وللحُب..

ارتشفتُ ما تبقى في الكوب دفعة واحدة ثم توجهتُ إلى غرفتي، حيث تهندمتُ وأعدتُ تمسيد شعري الذي كان أشعثاً بفعلِ النوم، وهبطتُ الدرج متوجهاً إلى الجامعة لعلي أجدُ الأجوبة لكُل الأسئلة التي لا تُبارحُ فكري منذ أمس.

حسناً، تمالك نفسك فرُبما تكتشفُ ما يُريحك ويصرفُ عنكَ الوساوس، ورُبما لا، الأمر يحتاج إلى بعض الصلابة حتى تتمكن من تقبُلِ ما ستكتشف.

على مقربةٍ من الجامعة، لا يفصلُ بيني وبين الحقيقة سوى بضعة خطوات، شيء ما يدفعني لأن أكمل الطريق، فيقف الخوف في الوسط مانعاً إياي من التقدم، لكني استجمعتُ قواي ومشيتُ الخطوات المتبقية، إلى أن وصلتُ وكما توقعتُ، كانَت تنتظرني، واقفة تحت فيء الشجر، تحتمي من حرارة الشمس اللاذعة لشهرِ آب، ما إن رأتني حتى ارتسمَت على شفتيها ابتسامة مطمئنة وهرعَت بخطوات شبه متعثرة نحوي.

ها قد بدأنا المغامرة، لنسمع ما لديها من كلام.

-كيف حالُك؟ سألتْ بنفسٍ شبه متقطع.

-أنا؟ الحمد لله، قلتُ متلعثماً وقد اعتلت الدهشة ملامحي.

-آه، يبدو أنَّ هناك سوء تفاهم، قالَت بنبرةٍ شبه متوترة.

-أمس، اعتقدتُ أنَّكِ تضايقتِ من كلامي! صحتُ بانفعالٍ واضح.

-لا يمكنني نكران ذلك، في البداية تضايقتُ لكن حين قرأتُ الكتاب، هدأت واستوعبتُ كُل شيء، أجابَتني بصراحةٍ.

يا لكِ من امرأة صريحة، إضافة إلى مجموعة الصفات الرائعة التي تحملينها وهذا بالضبط ما كنتُ أبحث عنه، بعض الصراحة التي ستساعد في نبذ الشكوك.

-أحقاً ما تقولين؟ قلتُ بنبرةٍ متشككة.

-طبعاً، إنها الحقيقة، قالَت بثبات، ما الذي لا يمكنكَ أن تصدقه بالتحديد؟

-أنا أصدقكِ يا مارفل، قلتُ مطمئناً إياها، الأمر فقط هو أنني..

قاطعتني مخرجة من حقيبتها "كتاب الراحة" لِمات هيغ.

-هذا لك، قالت بمرحٍ.

-ما هذا الآن؟ سألتُ بشيء من الاستغراب.

-لا تقلق، أحاول مساعدتك ثم ألم تقل لي في الأمس ألا أتسرع؟ قالَت بهدوءٍ يبعث على الاطمئنان.

-أجل، حسناً.. شكراً، خرجتْ تلك الكلمات تباعاً، لدرجةِ أنها ضحكت عندما رأتني أتفوه بالكلام على هذا النح والباعث على السخرية..

-أجل، حسناً، أشكركَ على الكتاب الرائع.. كررت كلامي.

هل تسخرُ مني؟ أم أنها توترَت بفعلِ حديثي الذي بدا غير سوي في تلك اللحظة، وكأنها كانَت تتحدث إلى

شخص نصف مجنون! وتريدُ أنْ تنتهز فرصة الهروب قبل أن يجعلها تندمُ على حديثها معه.

والدليل على ذلك، هو كتاب الراحة هذا الذي أعطتني إياه منذ لحظات على كُل حال، لا زال الوقتُ مبكراً على الجزم، يجبُ أن أتصفحه حتى أفهمَ مقصدها من مناولتي لذلك الكتاب، وإلا فإني سأبدو رجلاً طائشاً ومتسرعاً، أنا الذي نصحتها في الأمس ألا تستعجل في شيء..

عندما ذهبتُ إلى المنزل، بدأت بقراءة الصفحات الأولى من "كتاب الراحة " ويا له مِن كتاب يبعثُ على الراحة والارتباك في آن معاً، فهو يعرفُ -على نحو غريب- كُل الآلام التي اعتقدتُ أني أُجيدُ إخفائها عن الجميع.

"لا عليكَ إن لبستَ ندوب التجربة"، كم أنَّ ذلك السطر يشبهني! تلك المرأة ليسَت كما ظننتُ، إنها تفهمني بل وتريدُ مساعدتي على تخطي محنة قديمة لا تزالُ محفورة في وجداني رُبما كانَت صادقة معي منذ البداية، لكن الوقت لم يسنح لها -كما أردتُ- أن توضحَ لي بعض الأمور التي تشغل بالي.

أشعر بالراحةِ تتسلل داخل أعماقي، وبالشكِ الذي بدأ يتبخرُ شيئاً فشيئاً مع كُل صفحة أقرأها من ذلك الكتاب، وشعرتُ لوهلة أني شخصٌ سطحي يخمن نوايا الناس قبل أن يعرفهم حتى، ربما كان ذلك بسبب ما

عانيته يوماً والذي جعلني أخشى التقرب من الناس حتى لا أكونَ سبباً في إيذائهم ذات يوم، فلا أزال حتى هذه اللحظة، أعتقد أنّي السبب في موت أختي وحرمان أمي وأبي من طفلتهما الصغيرة..

يا لكَ من فتى أحمق! لا تستطيع أنْ تدعَ الألم جانباً، والأسوأ من هذا كله، أنتَ تخلطُ بين مصابكَ الأليم في الماضي والأشخاص الذين يدخلون حياتك في الحاضر دون أن يخطرَ لكَ -ولو للحظة- أنَّكَ تتوهم..

وما الذي سيدفعها إلى أذيتي؟ في النهاية، إنها مجردُ امرأة اقتحمَت حياتي لسبب واحد فقط وهو: الحُب، لكني أرفض الاعتراف بذلك، معتقداً أنَّ البدايات دائماً ما تخدعنا، وحتى إن كانَت كذلك، ما الذي يمنعني من خوض التجربة؟ لِمَ لا أتحدى خوفي ولو لمرَّةٍ واحدة؟ إنْ كنتُ أحبها بصدقٍ، يجبُ عليَّ أنْ أعرِّضَ نفسي للخطر، فالحُب لا يخلو من المُنعطفات ولكي أصلَ إلى غايتي، يجب عليَّ أن أمشي في ذلك الطريق المحفوف بالمخاطر دون أن أفكرَ في التراجع ولو لبرهةٍ لا يمكنكِ أن تتصوري كم ارتحتُ لمعرفة أنَّكِ صادقة معي، حتى ولو كانَ ما يُثبتُ ذلك، مجرد كتاب صغير فهذا يعني الكثير بالنسبة إليّ، خاصة أنَّ الكتاب علامة واضحة على اهتمامكِ بشأني، ومحاولة أولى لمساعدتي على تخطي الألم..

غيث! لقد نسيتُ أمره تماماً.. ولكن، لو أنَّه يحملُ في قلبه ذرة احترام لصداقتنا، لَما تصرفَ على هذا النحو أبداً.. إنه حتى لم يفكرْ في الإجابة على رسالتي التي بعثتها منذ أمس وأنا الذي اختلقتُ له ألف عذرٍ يمنعه من تهدئة صديقه المُقرب..

أغلقتُ الكتاب وغفوتُ، منتظراً قدوم الغد.

مارفل:

صحيح أننا لم نحظَ بالوقت الكافي ولم نتمكن من الحديث بِما يكفي، لك ويحاولُ أني وبالرغم من ذلك كله أشعرُ براحةٍ عميقة، لاكتشافي أنَّنا نُكمل بعضنا، وأنَّ أحدنا يعرف بنقصِ الآخر بذل جهده لمساعدته، فأنتَ عرفتَ أحد طباعي التي لم أكُن منتبهة له من قبل، أو أنني انتبهتُ لكني لم أقُم بِمَ هو لازم لكي أغير من نفسي لتأتي أنتَ وتساعدني في التغيير للأفضل، أما أنا، فوالله إني أحاول قدر ما استطعتُ أن أساعدك وأخفف عنكَ ألمك، لعلكَ تستعيد شعورَ الغبطة الذي فقدته مع موتِ أختكَ، وتدرك حقيقة وجودي في حياتكَ وتتقبلها، فأنا لا أريدُ أن أؤذيك -إلا إذا كان للأيام رأي آخر- لا أريدُ إلا شيئاً واحداً وهو حُبكَ ووجودكَ بقربي.

ربما لا تستطيع أن تتقبل فكرة وجود امرأة في حياتك، لأنَّكَ لا تزال عالقاً في المكان نفسه ومع الذكرى نفسها وهي موت أختكَ قبل أن تحيا، أفهمُ أنَّك تتألم، لكن ما ذنبي لكي أُحرمَ منك؟ ما ذنبي حتى تبتعد عني، معتقداً أنَّك تفعل الصواب حيث ستجنُب نفسكَ وتجنبني الألم المحتمل وحتى إن كان الألم محتملاً، فلِمَ لا نجربه؟ لِمَ لا نجرب ألماً من نوع جديد؟ لمَ لا نُخاطرُ ونعيش تلك المغامرة الشيقة؟ أرجوك، لا تنتقم مِن ماضيكَ من خلال حاضرك، لا تخلط بيني وبين الفتاة الصغيرة التي فارَقت الحياة منذ زمن طويل حتى وإن كنتُ سأتأذى، فإني أحبُ أنْ أتألم على يديكَ وبسببك.

لم أُعطه الكتاب، نسيتُ أن أرجعه بفعل اللقاء القصير والمُربك بعض الشيء، حيث اكتشف أنَّ أسوأ توقعاته لم تكُن إلا خيالاً.. فقد ظنَّ -حسب ما أتوقع- أنني تضايقتُ بسبب كلامه في اللقاء الماضي لكني بددتُ شكوكه بظهوري أمامه، وأعتقد أنَّه كان يترقب تلك اللحظة، وتحدثي إليه، لدرجةِ شعرتُ معها برغبةٍ في الضحك، فلّما رآني اندهشَ وصار يتلعثم بالكلام وكأنَّه طفل صغير يتعلم النطقَ لأول مرَّة، لكن على الأقل تمكنتُ من إثبات صدق نيتي ورغبتي في أكونَ معه لآخر لحظة، حتى ولو كان على حافة الجنون، فأنا أحبُ أن أكونَ حبيبة شخص مجنون: أعاملهُ كطفلٍ وأذكرهُ -كل الوقت- أني أحبه، ولن أفلتَ يده الناعمة،

ولـــن أتخلـــى عـــن نظراتـــه وأنفاســـه الدافئـــة ونبرتـــه المرتجفـــة، فهـــي تفاصـــيل محببـــة لقلبـــي ولا أســـتطيع أن أحيـا بـدونها، تفاصـيل الرجـل الـذي مكننـي مـن معايشـة الحُـب، بعـد أن أمضـيتُ نصـف عمـري فـي البحـث عـن حُـب حقيقـي، أسـتطيع مـن خلالـه مكابـدة الألـم إلـى أن وجدتـه: يعقـوب، الـذي سيشـاطرني الوجـع والهمـوم قبـل الفـرح والضـحكات، ففـي النهايـة، أنـا لا أطمـح إلـى حُـبٍّ كامـل متكامـل، بـل أتقبـل وبرحابـةِ صـدرٍ، فكـرة وجـود الـنقص حتـى فـي الحُـب الـذي نتخيلـه خاليـاً مـن الهـم والغـم؛ فلكـل شـخصٍ فـي تلـك العلاقـة سـيكولوجية خاصـة، يمكنهـا أن تـؤثر فـي شخصـية الآخـر، قـد يواجـه الأشـخاص فـي البدايـة صـعوبة فـي تقبـلِ مزاجيـة وردود الأفعـال المختلفـة لمَـن يحبـونهم.. لكـنهم فـي النهايـة يعتـادون ويتقبلـون تلـك العيـوب باعتبـار أنهـا موجـودة لـدى الجميـع وحتـى فـيهم، فبـالرغم مـن إخفـائهم لتلـكَ العيـوب أمـام الجميـع إلا أنهـم يظهرونهـا وبثقـةٍ كاملـة للشـخص الـذي يحبونـه، لتأكـدهم مـن أنـه لـن يخـذلهم أبـداً، فالحُـب لـيس تبـادلاً للضـحكات والمشـاعر الدافئـة واللحظـات الجميلـة الهانئـة، إنمـا هـو أيضـاً تبـادل المعرفـة والأخطـاء والحماقـات، بهـدفِ الـتعلم وتطـوير الـذات، لتصـبح أفضـل، الحُـب أسـتاذ لأولئـك المـراهقين الـذين يهبـون قلـبهم وثقـتهم لكُـل مَـن يصـادفونه، دون أن يتوخـوا الحـذر، فهُـم لـم يختبـروا الحيـاة بعـد، إلـى أن يـأتي الحُـب أو «الصـفعة الأولـى» التـي تعلمهـم ألا يثقـوا إلا

بعد معاشرة طويلة ومعرفة عميقة للشخص، إلا إذا كانوا على درجة من الحمق تجعلهم يرتكبون الخطأ نفسه.. عندها يتنحى الحُب جانباً ليبدأ الحدث وحينها سيتمنى المرء لو أنَّه استوعب منذ الصفعة الأولى، لا أكفُ عن التفكير بك، ماذا تفعل في تلك اللحظة يا تُرى؟ ألا زلتَ تقرأ أم أنَّكَ غفوت؟ وهل استطاع ذلك الكتاب أن يلمسَ موضع وجعكَ، هل تأكدتَ من حُبي لك واهتمامي بشأنك أم أنكَ لا تزال تشكُ فيّ؟ فيمَ تفكر يا ترى؟ أتفكرُ فيّ أم أنَّكَ لا تزال عالقاً هناك، في ماضيكَ؟

غفوتُ، وذكراه تحوم حولي باعثة في نفسي شعوراً بالطمأنينة والسكون.

يعقوب:

"لا بد لنا من حُب، حُب واحد عظيم في حياتنا؛ حتى يعطينا فرصة للهروب من جميع اللحظات التي كنّا نمتلئ فيها باليأس المميت".

-كامو.

بدأَت ملامح وأعماق تلك المرأة تتضح شيئاً فشيئاً، وبدأ ذلك الإحساس يتضخم ويطغو على الخوف والشك، فشعرتُ بقلبي يكادُ يتحطم إرباً بفعلِ الحلول المُباغت لتلك المرأة وإعلان الحُب، أنها المرأة التي

تستحق أن أهبها قلبي والمرأة الوحيدة التي ستسكُن فيه وتحصلُ على كُل ما يحمله من عطف وحنان.. وما حيلة العاشق سوى أن يرضى بِما يمليه عليه قلبه وعاطفته؟ وقد رضيتُ ورضخت بكاملِ إرادتي لتلك العاطفة الجارفة وبتلك المرأة المذهلة التي هبطَت على حياتي دون سابق إنذار فلابد لي وبعد كل هذه السنوات، أن أعثر على الشخص الذي سأمضي معه بقية العُمر والذي سيشاطرني كُل لحظاتي الجيدة والسيئة على حدٍّ سواء لابد أن أفتحَ أبواب قلبي على مصراعيها، لأستقبلَ الأنثى التي جاءت إلى منزلها بعد يومٍ حافل ومتعب، لابد لي أن أتقبل وجود شخص في حياتي، امرأة يمكنني أن أهرعَ إليها عندما أجدُ أنَّ الحزن ينهش في أعماقي دون رحمة أو شفقة لتخفف عني مصابي، وتبقى بقربي إلى أن يتلاشى الوصب ثم تبدأ رويداً رويداً ببثِ السعادة في أوصالي المُرهقة، الشعور الذي فقدتُه عقب موت الطفلة الصغيرة وكأنَّها كانَت على ارتباط وثيق به، وما إن رحلَت، رحلَ معها شعور الغبطة أو إذا جاز التعبير، فقد فقدتُ أخوَاي التوأمين.

ولعلَّ الحياة تحنو عليَّ بعد كُل هذه السنوات، وقررَت أن تعيدَ إليَّ أحد التوأمين، متجسداً في تلك الأنثى، وهو شعور الغبطة الدافئ الذي يبثه وجود مارفل بقربي.

فبعدَ كُل الشكوك التي انتابتني، تمكنَت هي بِما لديها من حذاقة وعبقرية أن تبدد كل تلك الشكوك وتبدلها بثقةٍ ثابتة، لا يمكنُ لأي شيء أن يبددها أو يزعزعها.

"الصمت والابتسام ليسَت الطريقة الوحيدة للاستجابة إلى الألم".

-مات هيغ.

كم لامسني هذا الاقتباس، أنا الذي أعتقد أنَّ كبتَ المشاعر هو الطريقة المُثلى لتجنبِ استعطاف الناس، لكن ماذا لو كان اعتقادي خاطئ، وقد وجدتُ الشخص المناسب والجدير بالثقة؟ فليس الجميع يحملون في قلوبهم الخبث إذ لابد من وجود شخص من بين المائة، يستحق أن تهبه قلبك دون أن تشكَ ولو للحظة واحدة بصدقه وكرم أخلاقه، وها هي مارفل تثبتُ لي صدق نيتها من خلال اهتمامها بي فهي تحاول على قدر ما استطاعَت أن تساعدني في الوصول إلى مرحلة التعافي من خلال بعض الكتب التي تعيرني إياها، أو اللقاءات القصيرة التي تجمع بيننا والتي نتحدث خلالها عن كُل ما يشغل تفكيرنا، بغية التخفيف عن أنفسنا وكما اتضحَ لي من خلال عدة لقاءات، فإنّ مارفل تصوبُ اهتمامها نحو موضوع واحد «إعطائي المساحة الكافية لكي أبوح بألمي ومحاولتها الجادة في مساعدتي» وهذا بالضبط ما كنتُ بحاجةٍ إليه، شخص أحبه ويحبني وأثق به لدرجة أشارك معه كل الأفكار

التي تتصادم في رأسي حتى تلك التي تُعتبر "تافهة" لدى البعض.

لكن هناك شيء يبعثُ على القلق لا يمكنني بأي حال أن أُعرف ما هو؟ يوجد شيء ما غير طبيعي، كاختفاء غيث المفاجئ، لا يمكنني أن أتعامل مع الأمر على أنه "عادي"؛ إذ لابد أن يكونَ لديه غاياته التي يُخفيها عني ولكن ما هي غايته وبِمَ يفكرُ؟ هذا بالتحديد ما لا يمكنني فهمه.

أين أنتَ يا غيث، ولمَ اختفيتَ فجأة؟ أيها الأحمق البغيض، ما الذي تنوي فعله؟ ماذا تعني بتصرفكَ هذا؟

إذا كان والده قد طرده، فهذا يعني أنه أصبح متشرداً فهو بطبيعة الحال يتيم الأم، ويكره والده لأنَّه يعتقد أنّه السبب في موت والدته؛ بسبب طبعه الصارم وقلة مسؤوليته؛ فقد كان يخرجُ منذ ساعات الصباح الأولى ولا يعود إلى المنزل حتى ساعات الليل المتأخرة، تاركاً زوجته المريضة وابنه وحدهما، دون أن نذكر عنفه ووحشيته مع ابنه الوحيد.. فإذا رجع إلى المنزل ووجده مستيقظاً، كان يتلذذ بتوجيه اللكمات إلى وجه الطفل البالغ من العمر عشر سنوات ناعتاً إياه بالفاشل والجبان لدرجةِ أنَّه وجد صعوبة في استعادة ثقته بنفسه بعد كُل ما حصل وذلك بعد أن التقاني في المرحلة الإعدادية، إذ أصبحنا منذ ذلك الحين أعز صديقين، حيث أودعَ كُل أسراره لدي، وأنا بدوري كنتُ قد فعلتُ

الشـيء نفسـه.. كـان ذلـك منـذ زمـن طويـل، أمـا الآن وقـد أصـبح لكُـل منـا حياتـه الخاصـة يصـعبُ علـيَّ فهـمَ صـديقي القـديم؛ إذ أصـبح كتومـاً وتكتنفـه هالـة مـن الغموض يصعب اختراقها.

ASRUD
للنشر الالكتروني

الفصل التاسع

الظهور الأول / غيث.

اسمي غيث، صديق يعقوب وزميله في الدراسة، كنا قد التقينا منذ أكثر من ستِّ سنوات، أي في المرحلة الإعدادية، وكنتُ وقت ذاك في صدد التعافي من الجرح الذي خلفه موت أمي، التي توفيت بعد معاناتها مع مرض السل، إذ كانَت مهملة من قبل والدي الذي يعاملنا معاملة الحشرات، يغادر المنزل في الصباح ولا يعاوده إلا في ساعات متأخرة من الليل، ونبقى في ذلك الوقت وحيدين خائفين، نرتعد كلما سمعنا نسمة هواء عابرة، إذ لا يوجد في البيت مَن يحمينا.. وكان عندما يعود، يبدأ مغامرته المعهودة، إذ كان يضربني بعنف و وحشية.. مطلقاً عليّ كُل ما في الدنيا من ألقاب مقيتة، وفي البدء، كنتُ أصرخُ وأبكي لكن ومع مرور الأيام، كنتُ قد تعودتُ على ذلك، دون أن أطلق صرخة أو أذرف دمعة.

تحمل يا غيث، ليس لأجل ذلك الأب عديم المسؤولية، ولكن لأجل أمكَ التي تقترب من الموت دون أن يساعدها أحد.

لم أجد ما يعزيني في تلك الفترة، سوى حضن أمي التي كانَت تفقد رونقها شيئاً فشيئاً، إذ كنتُ أهرع إليها

بوجـــهٍ نصـــف دامٍ وأحتمـــي مـــن ذلـــك الـــوحش بـــين أحضانها.

-أنا خائف يا أمي أقول لها وأنا أرتعد وأبكي.

-لا تخـف يـا حبيبـي، أنـا معـك و لـن أتركـك، تجيـبُ بنبـرةٍ متعبة.

-لِمَ يعاملنا أبي هكذا؟

-لا أعرف يا ولدي، لا أعرف، تقول وهي تتنهد.

-لا تمـــوتي يـــا أمـــي، أرجـــوك! لا تتركينـــي معـــه، إنـــه مخيف ومتعسف.

-ليتني أستطيع يا ولدي، تقول وهي تبكي.

من هنا، عرفتُ أنها سترحل وأني سأبقى وحدي.

فـــي الليـــل وبينمـــا كنـــتُ نائمـــاً بـــالقربِ منهـــا، اســـتيقظتُ وذهبـــتُ لأرتشـــف بعـــض المـــاء وعنـــدما عـــدتُ أحضـــرتُ معـــي كوبـــاً لهـــا، لعلهـــا كانـــت ظمآنـــة، لكنهـــا لـــم تكُـــن ظمآنـــة كما ظننتُ، بل كانَت ميتة...

-أمي، استيقظي أحضرتُ لكِ بعض الماء.

هززتهـــا مـــرة، مـــرتين، خمـــس مـــرّات، دون أن أســـمع جواباً.

-أمـــي؟ هـــل أنـــتِ علـــى مـــا يـــرام.. أمـــي؟ أرجـــوكِ، استيقظي..

تهاويتُ على الأرض، ودخلتُ في نوبة بكاء هستيرية، استيقظ والدي على إثرها.

-ما بكَ أيها الوغد، لمَ تبك كالأطفال؟

-ماتت، أمي ماتَت! صرختُ.

-ألهذا السبب تبكي؟ طفل تافه وغبي قال وهو يضحك، يجب عليكَ أن تفرح لأنها ماتت، لقد ارتحنا منها؛ فهي امرأة بلا فائدة.

-أنتَ السبب، أنا أكرهك، لن أغفرَ لك، صرختُ في وجهه: لن أبقى معك، لن أسمح لك بقتلي كما فعلتَ مع أمي المسكينة

-أيها القذر، اغرُب عن وجهي وإلا...

لكني خرجتُ من المنزل قبل أن يكمل كلامه، بقيتُ تائهاً، مكسور القلب وضائعاً في عتمة الليل، لا أعرف إلى أين أذهب، وقد فقدتُ الشخص الوحيد الذي كان يساعدني على تحمل الألم.

لقد صرتُ يتيماً يا أمي، لم يبقَ لي أحد أرتمي بين أحضانه، لقد كُسرتُ يا والدتي وبقيتُ وحدي مع ذلك الأب المتوحش! لِمَ لم تتحملي، على الأقل من أجل ابنكِ الذي تحمل كُل شيء لأجلك، لما رحلتِ دون أن تودعيني؟ ألم نتحدث منذ قليل وقلتِ لي ألا أخاف وأنكِ معي، ماذا أفعلُ الآن وقد فقدتكِ؟ كيف لا أخاف وقد أصبحتُ وحيداً.

بقيتُ أمشي في العتمة، إلى أنْ تهاويتُ قرب أحد المنازل وأخذت أبكي بحرقة ثم فُتحَ الباب ليظهر منه رجل، تبدو عليه ملامح العطف، وأخذ يبحثُ عن مصدر الصوت إلى أن وجدني.

-هل أنتَ على ما يرام، أيها الصغير؟

لم أجبه، فسأل ثانية:

-أين عائلتك؟ أليس لديك أهل؟

-لا! أجبتُ وأنا أبكي، ليس لدي أحد.

-ادخل، هيا يا صغيري، تعال معي وإلا فإنكَ ستمرض. قال بحنان.

-لكن... قلتُ بنبرة غير واثقة.

-هيا! لا تعاند، تعال أيها الصغير.

تخليتُ عن خوفي ودخلتُ إلى منزل ذلك الرجل؛ لأنَّ شيئاً ما فيه أوحى إليَّ بالطمأنينة..

عندما دخلتُ المنزل، وجدتُ امرأة والتي هي زوجته وقد ذُهلت عند رؤيتي، متنقلة بنظراتها ما بين زوجها والطفل الغريب الذي معه.

-مَن هذا يا عزيزي؟ ولماذا أدخلته منزلنا؟ سألت زوجها.

-وجدتـه جالسـاً قـربَ بـاب المنـزل، قـال إنـه وحيـد ولا توجـد عائلـة ينتمـي إليهـا، أشـفقتُ عليـه فقـد كـان يبكـي ويرتعدُ من البرد والخوف.

-لكن يا عزيزي!

-ليس الآن يا عزيزتي، اصمتي رجاءً.

لا أزال جامـداً فـي مكـاني وقـد شُـلَّ لسـاني و تجمـدَت أطرافـي، متمنيـاً فـي سـري أن تسـمح لـي تلـك المـرأة بالبقاء عندهم ولو لليلة واحدة، وفجأة حدثَت المعجزة.

-أمـي، أشـعر بـالعطشِ، أريـد المـاء، قالَـت نبـرة أنثويـة ناعسة.

-اصعدي إلى غرفتكِ حبيبتي، سأجلب لكِ الماء.

لكنهـا لـم تكُـن فـي الواقـع تُنصـتُ لأمهـا، بـل كانَـت ترمـقُ «الفتـى الغريـب» الـذي كـان وقتئـذ يقـف قُـرب والـدها.. مستغربة عمّ يفعله في منزلهم.

-مَن يكون هذا الفتى؟ سألت الفتاة.

-اصعدي إلى غرفتكِ، ألا تسمعين! صرخت والدتها.

-إنـه صـديقك الجديـد يـا حبيبتـي، قـال والـدها بمـرحٍ لا يتناسب مع الموقف قليلاً.

-يـا إلهـي! هبطَـت الـدرج بخطـوات رشـيقة، صـديق جديـد؟ ما اسمك؟ وكم عمرك،...إلخ.

-اهدئي قليلاً، لن يستطيع أن يُجيب على أسئلتك، إنه متعب، سيأكلُ وسيخلدُ إلى النوم، في الغد يمكنكِ أن تعرفي كُل ما تريدينه.

-حسناً، أبي، قالَت مبتسمة: نوماً هنيئاً يا صديقي.

بعد أن تناولتُ شيئاً لا بأس به من الطعام، صحبني الرجل الطيب إلى غرفة الجلوس وأحضر لي وسادة وبطانية، وقال لي:

-في الوقت الحالي، ستنامُ هنا إلى أن نجد حلاً لمشكلك، اتفقنا؟

هززت رأسي علامة على الموافقة ثم تهالكتُ على الكنبة الموجودة في الغرفة، كنتُ في حاجة ماسة إلى النوم، لكن القلق منعني من ذلك، فرِحتُ أسترق السمع إلى حديث المرأة وزوجها.

-أنتَ لا تريد أن تفهمني يا عزيزي، الولد غريب عنا لا نعرفه ولا يعرفنا، وما أدراكَ أنَّه لن يؤذي أحدنا لغاياته الخاصة، لا يمكنني أن أطمئن بشأنه، يجب أن يرجع من حيث أتى.

-هذا الصبي، لن يذهب إلى أي مكان حتى نعثرَ على أهله أو أحد أقاربه، قال على نحو قاطع: سيبقى هنا معنا وسنعامله كأنَّه ابننا، هل كلامي مفهوم؟

-مفهوم، قالَت بشيء من الخيبة.

يا للحظ، ها قد تخلصتُ أخيراً من الجحيم، ومن الرجل المجنون الذي يُدعى "والدي" دفعة واحدة! يمكنني الآن أن أغفو مطمئن البال، فلن أكون مع والدي المتوحش ثانيةً.. بل سأكون هنا، مع الرجل الطيب وزوجته المشككة في أمري، والطفلة الفضولية، التي لم أتمكن من رؤيتها ولا التعرف عليها، بسبب التعب والخوف.

يعقوب:

ذهبتُ إلى الجامعة وأنا مرتاحٌ ومطمئن البال؛ فالضوضاء التي في عقلي تلاشت لتأخذ وعلى نحو خاطف مكانها الجديد، الذي هو قلبي، كنتُ في ما سبق، أبحث عن إشارة تثبتُ لي صدق الشعور، لكن وبفعلِ نوبات التوتر، والشكوك التي كانَت تنتابني، استعصى عليَّ إلا أن أصغي لعقلي، مبعداً ومهملاً في نفس الوقت.. كل الدلائل التي قدمها قلبي لي.

لكن الآن، وقد تبددتْ كل الأوهام والشكوك، يمكنني أن أستشعر الضوضاء التي يحدثها الحُب في قلب المرء، والتي تُعتبرُ الدليل الأول والأكثر تأكيداً على وجود المشاعر وعاطفة الحُب، إذ يشعرُ الشخص بقلبه يخفقُ على نحو غير طبيعي، ما إن ذكر أحدهم اسم محبوبه أمامه، أو سمع أغنيته المفضلة، أو قرأ إحدى رواياته المفضلة أو عندما يهتز الهاتف معلناً وصول رسائل منه، وعندما يسمعُ همساته، و يكونُ قريباً منه. حيث

سيفقد السيطرة على نفسه، كالجسم الذي يرفض الثبات في الفضاء لانعدام الجاذبية هناك. فالأمر سيان بالنسبة له، حيث يفقد رُشده -جاذبيته- عندما يكونُ مع المرأة التي يحبها وهي « فضاؤه».

الآن، يمكنني التأكد من شيء واحد فقط وهو أنَّكِ استطعتِ التسرب في أعماقي كالسُّمِ، دخلتِ إلى جسدي وأصبحتُ مريضاً بكِ، يا علّتي وترياقي، يمكنني أن أعترف لكِ، أنَّكِ خصمٌ شرسٌ لن يرضى إلا أن يغلبني والآن وقد حققتِ غايتكِ، يمكنكِ أن تكوني مغتبطة؛ لأنَّ النساء اللواتي كأمثالكِ، يفرحنَ لأنَّهن بفضلِ سحرهن وجمالهن يهزمن الرجال أمثالي، الذين يصبحون ضعفاء في الحُب، فالحُب يا حبيبتي من اختصاص النساء، ويا للرجل المسكين.. الذي يعتقد طوال الوقت أنَّه «نسخة عن الرجل العنكبوت» الذي لا يمكن هزيمته ليكتشف فيما بعد أنَّ اعتقاده كان خاطئاً، حيث يمكنُ لامرأة واحدة من معشر النساء أن تدحض نظريته، و تثبتَ له أنَّه رجل ضعيف، والآن وقد اكتشفتُ تلك الحقيقة التي ينجح الرجل في إخفائها بواسطة صلابته المزعومة، يمكنني أن أقول لكِ حتى و إن كنتُ واحداً منهم أنَّ الرجال منافقون، يوهمون الجميع بصلادتهم -التي هي ظاهرية أكثر منها حقيقية- وما إن يقعوا في الحُب، يعترفون حينئذ بصلادة المرأة.

يا حبيبتي ويا منقذتي من الهلاك، لا أعرف ما كان سيحدثُ لي، لو أنَّكِ تأخرتِ -ولو قليلاً- في مجيئكِ واقتحامكِ لحياتي، أنا المُثقلُ بالجراحِ، الذي لمْ أنجح ولو لمرة واحدة -كما يعتقدون- في مكابدة الألم.. لتأتي أنتِ وتتمكني في لحظة خاطفة من مغالبته ودفنهِ تحت طبقة من الأتربة حيث لن يتمكن من إيذائي ثانيةً، إضافةٍ إلى سعيكِ المستمر في إعادة السعادة إلى أعماقي، الشعور الذي يأبه إلا أن لا يعود وكأنَّه يخاف من ذلك الرجل الذي يشبه الأموات أكثر من الأحياء.. لكنكِ ومن خلالِ تواجدكِ بقربي عملتِ جاهدة على إعادة جملة من المشاعر، التي من المفترض أن أشعر بها بصفتي إنسان يتسمُ بميزة الشعور -ما عدا الألم- فقد اشتقتُ إلى السعادة، الراحة والسكون وللكثير من المشاعر التي يمكنُ أن يشعر بها الشخص في المواقف المختلفة، بفضلكِ، عادَت الحياة تسري في أوصالي وعادَت الابتسامة إلى شفتي، بفضلكِ عثرتُ على القطعة الأخيرة والتي كانَت ضائعة طوال هذه المُدة من القطع الخاصة بلعبة البازل والآن، وقد ركبتُها يمكنني أن أرتاح وأستكين و كأنَّ شيئاً لم يحدث.

أنهيتُ "كتاب الراحة" الذي أعطتني إياه في أمس، وبينما أرتشف آخر رشفة من الشاي.. دخلَ أبي إلى المطبخ.

-كتاب الراحة؟ عمَّ يتحدثُ هذا الكتاب، سأل والدي بمكرٍ.

-إنه عبارة عن مجموعة من النصائح، بعض الاقتباسات التي من شأنها أن تريحَ القارئ وتعيد إليه شغفه.

-علم النفس؟ تصنيفٌ رائع! وتغيير يبعث على الدهشة والاستغراب، فأنتَ لم تقرأ هذا النوع من الكتب طوال حياتك، أتذكر؟

-حسناً، لا بأس بالتغيير أحياناً، أليس كذلك يا والدي؟ هززتُ كتفيَّ

-طبعاً يا يعقوب، غمزَ لي: لا بأس في أن تغير -وعلى نحو مفاجئ- من طباعك، كأن تقرأ كتباً لم تمسسها يدكَ قط

-ماذا تقصدُ يا أبي؟ رمقتهُ بتحدٍ.

-أتعتقدُ أنّي لا ألاحظ تصرفاتك الغريبة؟ لقد تغيرتَ كثيراً يا ولدي، تأكل بمفردك، حتى أنَّكَ تخرجُ أغلب الأحيان دون أن تأكل شيئاً، تقضي أغلب الوقت في غرفتك ولا تتحدث إلا قليلاً، هذا الانطواء ما هو إلا إثبات لشيء واحد: أنتَ عاشق! ولا تحاول أن تنكر ذلك، فالنكران دليل قاطع على صحة ما أقول.

يا للمصيبة! كيف بإمكانه أن يكون متأكداً لتلك الدرجة؟ وكيف سأتملصُ من نظراته الثاقبة وأسئلته التي لا

تنتهي؟ وكيف سأتمكن من إيهامه بأني لم أتغير وأني لستُ عاشقاً! لا مفر من الاعتراف مهما حاولتُ إقناعه، فهو لن يصدقني.. أنا مَن جنيتُ على نفسي تلك الورطة، وعليَّ أن أتحمل عواقب خطئي.

-حسناً، لقد هزمتني، اعترفتُ، لكن ذلك سيبقى سر فيما بيننا، اتفقنا؟

-ولِمَ لا تريدُ لأحدٍ أن يعرفَ أنَّكَ مغرم؟

- أرجوك يا أبي حاول أن تفهمني، لا أريدُ لأي شخص أن يعرف وخصوصاً أمي فهي لن تتوانى عن إفشاء النبأ للغريب والقريب لذلك يجب أن نصبر لبعض الوقت أما الآن، أجدُ أنَّ الوقت غير مناسب إطلاقاً.

-كما تريد يا يعقوب، قال وهو يضحكُ ملأ شدقيه، لن تعرفَ أمكَ بشيء.

تنفستُ الصعداء -علامة على الاطمئنان- ثمَ قمتُ وودعتُ والدي، وخرجتُ بعد ذلك متوجهاً إلى الجامعة حيث سأتمكنُ من ملاقاة مارفل، المرأة التي أشعرُ وأنا جالس قبالتها أنّني أمام معجمٍ ضخم، يضمُ بين صفحاته كُل معاني الجمال والسحر الطاغي.

عندما وصلتُ، رأيتها كعادتها تقفُ تحتَ الشجرة، التي تطوقُ بأوراقها المخضرة الكثيفة جسد مارفل، كأنَّها تخشى أن تتأذى، فتحاوطها بظلها كي لا تتعرض لحرارة الشمس اللاذعة.

حتى الطبيعة، تخشى أن يصيبكِ مكروه! تمتمتُ في سري، بينما أتوجه نحوها.

-كيف حالكَ، وكيف وجدتَ الكتاب؟

طفلةٌ صغيرة تختبئ في جسد امرأة، هذا ما أنتِ عليه.. تمزجين بين عذوبة الأطفال وجمال النساء الساحر.. كوكتيل غريب من شأنه أن يصيبني بالدُوار.

-أهلاً مارفل! بصراحة وبدون مكابرة، وجدته مريحاً للأعصاب، أجبتُها.

-رائع! إذاً، فقد استفدتَ منه وأخذتَ بنصائحه على محمل الجد.

-ربما، يمكنكِ قول ذلك، اعترفتُ، لقد لامسني بشدة ما كُتبَ في هذا الكتاب.

-إذا، نحنُ متعادلان الآن، قالَت وعيناها تلتمعان.

-ماذا؟ بماذا نحن متعادلان؟ سألتُ والاستغراب بادٍ على ملامحي.

-أنتَ ساعدتني من خلال "ما رواه البحر" وأنا ساعدتكَ من خلال " كتاب الراحة " إذاً، لقد تعادلنا.

أنتِ وحدكِ، بكُل ما لديكِ من حيوية وبراءة وعطف ساعدتني يا مُنجيتي ونجاتي!

كيف أقولها؟ كيف أعترفُ لكِ بِما يحدثُ في أعماقي، وفي قلبي تحديداً؟ علّميني يا آنستي، كيف أعترف لكِ

بحُبــي؟ أنــتِ التــي أنقــذتِ روحــي مــن مــوتٍ مُحــتم، وأعطيتنــي دروســاً فــي حُــب الحيــاة وضــرورة تجــاوز الألــم، علّمينــي يــا حبيبتــي، الطرائــق المتباينــة التــي يستخدمها المرء لقولِ "أحبُكِ".

-آه، أجل ذلك صحيح أقررتُ، نحن متعادلان.

-هل كُل شيء على ما يرام؟ سألت بقلقٍ.

شــيء مــا يــتحطم داخلــي، لمعرفتــي بــأني لا أملــك مــا يكفــي مــن الصــلابة لأعتــرف بتلــك الكلمــة التــي بــدَت كخنجــرٍ مغــروس فــي حلقــي، يستعصــي علــيَّ إخراجــه. كيــف يمكــنُ للنــاس أن يتفوهــوا بتلــك الكلمــة ومــن أيــن يــأتون بــالجراءة اللازمــة لقولهــا؟ لابــد أنَّهــم يهلكــون ويتعــذبون طــوال الأيــام التــي يمضــونها وهــم يتــدربون علــى قولهــا، حيــث يرســمون فــي مخيلــتهم مئــات الســيناريوهات المحتملــة الحــدوث ويبــدؤون بعــد ذلــك، فــي تجســيدها وتمثيلها على أرض الواقع، ليتأكدوا من مدى فاعليتها.

لكــن والحالــة هــذه، أجــد نفســي عــاجزاً عــن التفكيــر فــي أي شــيء، وكــأنَّ عقلــي تبخــر وتركنــي وحيــداً أمــام هــذا الشــعور العــذِب والمُعــذب فــي الآن نفســه حيــث أســتلذُ بلحظــاتي معهــا، لكنــي فــي الوقــت نفســه أجــد صــعوبة فــي الاعتــراف بمشــاعري وحُبــي لهــا إذ كلمــا حاولــتُ فعــل ذلــك، تنتــابني نوبــة ارتبــاكٍ، أفقــد علــى إثرهــا القــدرة علــى النطقِ والسبب فــي ذلــك، حســب مــا أظــن، هــو أننــي أخــاف مــن أن أفقــدها -هــي الأخــرى- بعــد أن فقــدتُ أختــي بســبب

طيشي وتهوري وتسرعي، وهو آخر شيء أود حدوثه وقد تعلقتُ بها وبابتسامتها وحزقتيها الخضراوين الساحرتين.

ألا تساعديني وتخففين عني كما تفعلين دوماً، قولي لي يا مارفل، ماذا أفعلُ بالنار المضطرمة في قلبي والتي ترفض إلا أن تمزق أحشائي وتنغص عليَّ صفاء عيشي؟ أنا ضائع وسط صحراء قاحلة، وكلما اقتربتُ من واحةِ الاعتراف، أراها تتوارى وتبتعدُ أكثر من ذي قبل وأخشى يا حبيبتي ألا أستطيع الوصول إلى تلك الواحة أبداً، كيف أعترفُ لكِ؟ أنا الخجول الخائف المهووس بماضٍ بعيد لا ليس الآن، لا أستطيع أن أعترف لكِ بأي شيء، قبلَ أن أتمكن من مغالبة خوفي، اصبري كما أفعل فبعد الصبر يأتي الجبر.

-أجل، لا داعي للقلق، حاولتُ طمأنتها رغم توتري.

الظهور الثاني / غيث.

في صباح اليوم التالي، وبعد النومة الهانئة التي حظيتُ بها بعيداً عن والدي المتعسف، استيقظتُ وعلامات الغبطة بادية على وجهي، فقد نجوتُ بجلدي وتمكنتُ من تجنب نوبات جنونه التي يتشوه على إثرها جسدي.

لم يتمكن من لمسي يا أمي! سأحاول على قدر ما استطعتُ، ألا أدعه يعثر عليّ ولن أسمح له بلمسي بعد اليوم، أعدكِ يا أمي، لن تري آثاراً للكدمات ولا آثاراً

للنزف بعد الآن، ليذهب والدي ويعثر على أحدٍ غيري، يتلذذ بإحباطه وضربه -هذا إن وجد أحداً- يتحملُ ما كنتُ أتحمله كُل تلك السنوات، لقد صبرتُ لأجلكِ يا حبيبتي، أنتِ الشخص الوحيد الذي أمدني بالصبر وساعدني على مكابدة الألم طوال المدة التي قضيتها في منزل ذلك المتوحش والآن وقد فقدتكِ فلا أستطيع البقاء في منزل قاتلكِ ولو لثانيةٍ واحدة، ليتكِ كنتِ معي، ليتنا استطعنا الهرب معاً، وبدأنا حياة جديدة، حياة أكثر طمأنينة وراحة من تلك التي عشناها، حياةً هادئة لطالما حلمنا بها، ولم نتمكن من تحقيق الحلم.

وبقيتُ في مكاني ساعة كاملة، حيث اكتشفتُ أنني المستيقظ الوحيد في المنزل إلى أن أقبلَ الرجل الطيب أخيراً.

-عمتَ صباحاً أيها الصغير! قال بحيوية.

لكني كنتُ خجولاً أو إذا جاز التعبير، كنتُ أعاني من عقدة نفسية بسبب ما كنتُ أتلقاه من تعنيف ونعوتٍ تبعث على الإحباط.. فقدتُ على إثرها ثقتي بنفسي وبالآخرين رغم وجهه الذي يبعث على الاطمئنان، لم أستطعْ أن أنطقَ بكلمة.

-ما بكَ، ألا زلتَ خائفاً؟ سأل بلطفٍ لم أرَ كمثله في حياتي

-لا أريد أن أعود! قلتُ وقد اغرورقت عيناي بالدموع.

-لن ترجعَ إلى أي مكان، اطمئن، ستبقى هاهنا معنا مع عائلتك الجديدة، قال محاولاً تهدئتي.

-لكن.. أخشى أن أسبب لكم الإزعاج.

-اطمئن، لن ينزعجوا، وكيف تنزعج العائلة من أبنائها؟ ضمني إلى صدره.

يبدو أنكَ لا تعرفُ والدي أظن أنه ندمَ أشد ندمٍ لأنه تزوج وأصبح بعد ذلك أباً لي، لا تعرف وأتمنى ألا تعرف، الرجل الذي قتل أمي ليلة أمس و كان سيقتلني لولا أنني هربت، في حضنه، صرختُ متألماً.. الأمر الذي دفعه إلى إفلاتي، وعلامات الذعر على وجهه، سألني بعد ذلك عن سبب صراخي، فرفعتُ له كُم قميصي المهترئ وأريته آثار الكدمات، بعد رؤيته لذلك المنظر المُروع، وبعد أن ارتجيتُه أن يبقيني في منزله، قال على نحو قاطع: انتهى، لن تعود إلى أي مكان، أعدُك يا..

توقف لبضع دقائق، قبل أن يسألني:

-بالمناسبة، ما اسمُكَ يا صغيري؟

-اسمي غيث، أجبُته.

-حسناً يا غيث، من الآن وصاعداً اعتبرني والدك، اتفقنا؟

هززتُ رأسي علامة على الموافقة.

يا له من أب رائع! فهو يمنحني حناناً لم أحظَ به من قبل وعلاوة على ذلك، فهو لم يضربني كما يفعل والدي الحقيقي.. بل يعاملني كما لو كنتُ ابنه الحقيقي! أهذه هدية الله لي لأني صبرتُ على البلاء؟ هل عوضنا الله بعد كُل ما عانيناه؟ فرحلتِ أنتِ إلى مكان بعيد حيث لن تري ابنكِ الوحيد يتعذب بعد الآن، ووضع هذا الرجل الطيب في طريقي ليكون السبب في خلاصي من الجحيم الذي كنتُ أحيا فيه، شكراً يا رب، شكراً على الصبر الذي تمنحنا إياه في أحلكِ اللحظات، شكراً على النِعم التي وهبتنا إياها، شكراً على ابتلائك لنا، الذي ما هو إلا دليل على حُبكَ لنا، شكراً على الصلابة التي تمنحنا إياها، عندما نظنُ أننا على وشكِ الانهيار، شكراً على منعكَ قبل عطائك؛ لأنَّك العليم و نحن الجاهلون، شكراً يا رب، على كل شيء.

أتَت الفتاة الصغيرة، التي لم أتمكن من رؤيتها أمس، والآن وقد رأيتها، فإني مشدوه ومذهول من جمالها الأخاذ، الذي من شأنه أن يُفقدَ المرء وعيه لقد رأيتُ للتو ملاكاً حقيقياً يبتسمُ لي ويرمقني بفضولٍ كبير وأمام هذا الجمال، لا يمكنني إلا أن أرضخ لكُل ما تقوله وأجيب على كُل الأسئلة التي تطرحها، دون أن يغامرني الشك ولو للحظة في نواياها وغاياتها، فملاكٌ كمثلها لا يمكنه أن يؤذي أحداً..

-مرحباً يا صديقي! قالَت بمرحٍ.

-أهلاً، أجبتُها بخجلٍ.

-هل نمتَ جيداً؟ سألت.

-أجل.

-إذاً يجبُ عليكَ أن تكون جاهزاً لأسئلتي.

-حسناً، أنا جاهز، قلتُ: وقد عدلتُ من جلستي.

أمسكَت قلم رصاص ودفتر ملاحظات صغير وسألت:

-أولاً، أريد أن أعرف اسمكَ.

-غيث، أجبتها بسرعة خاطفة.

وبعد ساعة كاملة من الأسئلة و الأجوبة، أدركتُ - وبشكل مُباغت- أنني لا أعرف اسم الفتاة التي تسألني دون توقف، فقررتُ أن أسألها بدوري السؤال الأول.

-هل يمكنني أن أسألكِ سؤالاً؟

-طبعاً، تفضل اسأل يا صديقي. قالت وهي تبتسم.

-ما اسمكِ؟

-آه، لقد نسيتُ أنكَ لا تعرفني! قالت وقد أدركَت خطأها، اسمي مارفل.

الفصل العاشر

مارفل:

رأيتُ الثقة في عينيكَ، عرفتُ اليوم أنَّكَ تصدقني ولا تشككُ فيَّ، وهذا أكثر ما أراحني وأسعدني على حد سواء فها هي محاولاتي، تؤتي بثمارها، والآن وقد تمكنتُ من كسب ثقتك.. أتمنى من أعماق قلبي أن أكسب قلبك وحُبك، أنتَ رجل صعب قليلاً وهذا شيء لا يمكن نكرانه حيث أنَّكَ تحتاج لوقتٍ -لا بأس به- حتى تتقبل الأشياء والأشخاص. أي بما معناه، أنَّكَ تُخضع جميع أفكارك لمنهجية الشك الديكارتي، الذي كان يشكُ في كُل شيء قبل أن يصلَ إلى «المعرفة التامة عنه» فهو يعتقد أن المعرفة الأولية للحوس غالباً ما تكون خاطئة، وهذه صفة جيدة، أعتقد أنَّ أغلب الناس يمتلكونها، إذ لم يعُد أي مِنا يثق بالآخر، إلا بعد أن يُخضعه لعدة امتحانات، يتبين له من خلالها، مدى مصداقية الشخص.. وإن تأكد له أنَّه في منأى عن الأذى عندها يمكنه أن يمنحَ الثقة وكل ما يتبعها من صفاتٍ جيدةٍ فيه كالعطاء والصدق وغيرها الكثير، وأظنُ أنَّ الأشخاص الساذجون قد انقرضوا، إذ لا يوجدُ أحد في الدنيا يرضى أن يتحطمَ قلبه على يد أحد الأشخاص، إلا إذا كان على درجة من الغباوة والسطحية والسذاجة تسمحُ له بفعلِ ذلك بنفسه.

المهم الآن، هو أنني استطعتُ أن أحرزَ تقدماً حتى وإن كان بسيطاً فهو في نظري إنجاز يستحق أن أحتفي به؛ فقد تمكنتُ من إخراجِكَ من القوقعة المتينة التي كنتَ مختبئاً بها، خشية إقحام الأشخاص في دوامة الكآبة التي كنتَ عالقاً فيها لكن، دعني أقُل لكَ حقيقة ربما كنتَ تجهلها أو تتجاهلها، وهي أنَّنا مهما فعلنا ومهما قلنا، ومهما رفضنا الحُب، سنجدُ أنفسنا رغماً عنا واقعين في شِباكه، هناكَ شيئين نقيضين في هذه الحياة، على الرغم من تشابههما في نقطة واحدة: أنهما يأتيان فجأة وهما: «الحُب والموت»؛ فالأول يأتي ليُفرحك والثاني يأتي ليسحقَكَ، لا يمكنني أن ألومكَ يا حبيبي، فالثقة التي نمنحها للشخص وفقاً لأحاسيسنا، غالباً ما تجرُ علينا المصائب لذلك، أنا متسامحة ومؤمنة بكُل المعتقدات الفلسفية التي تؤمن بها، وخصوصاً بمنهجية ديكارت، تلك التي من شأنها أن تريحني، لمعرفتي أنَّ حبيبي في منأى عن الأذى، وأنَّه صعب المنال لأولئك الذين يعتقدون أنَّكَ شخص يسهل إيقاعه في فخهم دون أن يعرفوا، أنَّهم أوقعوا نفسهم في فخك، فخ العقلانية والمنطق؛ فهم ليسوا على معرفة واسعة بالفلسفة، أولئك الذين لا يؤمنون بها ويعتقدون أنها مجرد أوهام كَتبها أصحابها على الورق ليكتشفوا بعد ذلك، كم كانوا حمقى وتافهين، ويدركوا أهمية الفلسفة في حياتهم وخصوصاً منهجية الشك الديكارتي،

التي لابد لنا أن نعمل بها، بعيداً عن الأحاسيس التي تنتابنا في مختلف المواقف.

والآن وقد أخضعتَ أحاسيسكَ للشك، وتوصلتَ -على ما أعتقد- إلى معرفة حقيقية عنها وعني لذلك، ينتابني فضول شديد لمعرفةِ ما سيحدثُ في المرحلة القادمة!

تُرى كيف ستعترفُ لي بعاطفتك نحوي، وكيف سيكون وقعَ كلمة «أحبك» عليَّ؟ في أي مكان ومتى ستعترفُ؟ وما هو السيناريو الذي اعتمدته يا تُرى؟

الدفتر، يجبُ أن أُدونَ تلك اللحظات هرعت كمَن اكتشف وجود فئرة في الغرفة، وأخرجتُ دفتر الملاحظات الذي أصبح أعزّ أصدقائي، وبدأتُ أكتب.

"يا يعقوب، يا فيلسوفي الجميل.. ألا تعتقدُ أنَّه آن الأوان، لتدركَ أنَّكَ واقعٌ في الحُب؟ أنتَ المؤمن بالمنطق والعقلانية.. ترفض إلا أن تعذب نفسكَ وتعذبني معكَ، لا ألومكَ في تريثكَ ولا في اعتقاداتكَ والنظريات التي تؤمن بها، فكُل شخص يتأثر بفيلسوف ما، لكن ألا تعتقد أنَّكَ تبالغ في الشك قليلاً؟ أنتَ ترفض أن ترضخَ لعاطفتك، متشبثاً بأقوال ديكارت، الفيلسوف الشكَّاك، الذي لا يمكنه أن يصلَ إلى معرفة حقيقية إلا من خلال الشك، ومن خلال قراءاتي عن منهجية الشك، عرفتُ أنَّ ديكارت لديه حجتين يستند إليهما، وهما: حجة الحلم وحجة الشيطان الماكر ومن خلال قراءتي المعمقة، اكتشفتُ أنَّكَ تؤمن بالحجة

الثانيــة: حجــة الشــيطان المــاكر، حيــث تعتقــدُ أنَّ هنــاك شـيطان خبيـث يوهمـكَ بأنَّـكَ واقـع فـي الحُـب مـن خـلال المشــاعر وردود الأفعــال التــي تنتابــكَ عنــدما تكــون بــالقرب منــي والتــي مــن الممكــن أن تضــمحل بســرعة خاطفة مـا إن ابتعدتَ عنـي، لكنـي كمـا قلـتُ لـكَ سـابقاً أنـي امــرأة عنيــدة، وإذا أردتُ الحصــول علــى شــيء.. فــإني ســأواجه كُــل العثــرات والمنعطفــات التــي ســأجدها فــي طريقــي، لا شــيء ســيمنعني مــن تحقيــق غــايتي لــذا، لا تحـاول أن تتحـداني، وقـد عرفـتَ منـذ الوهلـة الأولـى أنـي امـرأة لا تعـرف اليـأس فأنـا متأكـدة مـن أنَّـكَ سـتُهزم، دع عنـكَ الشـكوك والأوهـام، يمكنـكَ أنْ تشـكَ فـي أي شـيء، إن أردتَ أن تتأكـد مـن مـدى مصـداقيته إلا الحُـب، فهـو صـادقٌ دومـاً الآن وقـد تأكـدتَ مـن عواطفـك نحـوي، فـإني أتحـرق شـوقاً لـذلك اليـوم، الـذي سـتقولُ لـي فيـه «حبـكِ» لا يمكنـك أن تتصـور كـم سـأفرح عنـد سـماع تلـك الكلمـة تخـرج مـن شـفتيك، بنبرتـكَ الرخيمـة وملامحـك المرتبكـة «كلــصٍ يعتــرفُ بالســرقة» ســتعترفُ لــي بحُبــك، وأعتــرف لــك بأنــكَ تســكنُ بــين ضــلوعي. ســأكون صــبورة، فالصــبرُ بــاب ضــخم، يُفضــي إلــى بســتانٍ مخضَّــر، نقطــفُ مِنــه ثمــار انتظارنــا اليانعــة لكــن إن اسـتعجلنا قطـف الثمـار قبـل نموهـا فلـن نحصـلَ إلا علـى ثمرة ميتة وسيضيعُ أجر الانتظار.

العودة إلى الماضي / غيث.

-أليس لديكِ إخوة؟ سألتُها.

-لا، أنا وحيدة أبوَي وأنتَ، هل لديك إخوة؟

-لا أنا وحيد، ماتَت أمي ليلة أمس، فهربتُ من المنزل، قلتُ بنبرة تصحبها الغصة.

-آه، يا إلهي! ولكن كيف ماتت والدتكَ، ولِمَ هربتَ من منزلكم؟

هل يتوجبُ عليَّ أن أفضي لها بكُل أسراري؟ ولكن لماذا وبصفتها ماذا؟ أختي، صديقتي؟ أم حبيبتي؟ ربما لكُل هذه الصفات وربما لا شيء، رُبما لأنها تشعرني بالراحة شيء ما فيها يوحي إليَّ بالثقة، هذه الابتسامة الملائكية، والنعناعتين المتلألئتين - عينيها - أشياء تدفعني لأن أقول لها كُل شيء دون أن أشكَ ولو للحظة بنواياها المُبطنة.

-توفيت بمرض السل.

ثم رفعتُ كُم القميص لأجيبها على سؤالها الثاني..

-بسبب هذا، قلتُ شارحاً لها، بسبب التعنيف الذي تعرضتُ له طوال هذه السنوات.

-يا إلهي! صرختْ بفاه فاغرما هذا؟ يا له من منظر مُروع! كيف تحملتَ كُل هذا؟

لأجل أمي، الإنسانة الوحيدة التي تستحق أن أهلكَ لأجلها، لأجل المرأة التي كانَت تصارعُ الموت وحيدة، دون أن يشفق عليها زوجها، الذي تركها تموتُ من شدة الألم. لم يكنْ بيدي حيلة سوى أن أتحمل التعنيف، كتكفيرٍ للذنب الذي ظل يلاحقني طوال الوقت وهو، عجزي التام عن إنقاذ المرأة التي ذاقَت طعم الموت حتى تنجبني، كنتُ عاجزاً عن مساعدتها أراها تموت أمامي دون أن أفعل شيئاً، لم يكُن أمامي سوى حل وحيد، وهو أن أتعذب معها، لعلنا نموت معاً ونرتاح.

لم أستطع أن أُجيبها، مما دفعها إلى التوقف عن طرح الأسئلة مكتفية بالنظر إليَّ والتبسم الذي يعني " أنا آسفة، لم أقصد إيذائك " فبادلتها بدوري ابتسامة معناها "لا بأس يا صديقتي، كل شيء على ما يُرام" بعد دقيقة من الصمت، تحدثت قائلة:

-إذاً، في أي صف أنتَ، يا صديقي؟

-الرابع، أجبتها.

-يا إلهي! أنتَ، عمركَ عشر سنوات.

-كيف عرفتِ؟ حملقتُ فيها بذهول.

-لأنّي في الصف الرابع أيضاً، وعمري عشر سنوات، مثلك تماماً!

يا لغرابة الأحداث، الذي يجعلكَ في لحظة خاطفة تلتقي بشخصٍ غريب، بإمكانه أن يغيرَ حياتك رأساً

على عقب، شخص لا تربطكَ به سوى الصدفة التي من شأنها أن تذهلكَ بقدرتها على قلبِ الموازين ثلاثمائة وستون درجة.

أتى الرجل الطيب لمناداتنا على مائدة الإفطار فأذعنا وذهبنا معه، وبينما كُنا نتناول الفطور، قال الرجل الطيب: غداً، ستذهبُ مع مارفل إلى المدرسة..

-أحقاً ما تقول يا والدي؟ سألت بفرحٍ.

-نعم، لا يجبُ أن يبقى في المنزل، عليه أن يدرس ويتعرف على أصدقاء جُدد، أليس كذلك يا غيث؟ قال موجهاً سؤاله لي.

يا إلهي! ما الذي يجري الآن؟ كيف تغيرتْ حياتي بهذه السرعة؟ لا يمكنني أن أستوعب شيئاً مما يحدثُ، وكأنني أحلم.. ربما هو تأثير الهلوسة والتخيلات، لعله تأثير التفكير الزائد، أو إحدى الأحلام التي تراودني أثناء نومي، لعلي لا زلتُ جالساً قرب أمي، التي لا زالت على قيد الحياة وأتخيل معها حياةً أكثر روعة من تلك التي نحياها، بين الجدران المتداعية لمنزلنا، مع أبي الرجل العنيف والصارم.

-غيث، هل تسمعني؟ سألني والد الفتاة.

-آه، أجل أسمعكَ يا عمي، قلتُ بعد أن استعدتُ تركيزي.

-هل ثمة شيء ما على غير ما يرام؟ سأل بقلقٍ.

-تذكرتُ أمي، قلتُ وقد تدحرجت دمعة على خدي، لطالما أرادت أن تكون حياتنا على هذه الصورة، حياة هادئة يتخللها الهناء، لكنها ماتت قبل أن يتحقق حلمها.

-آه، يا صغيري، فليرحمها الله. قال مواسياً إياي.

-لقد ماتت بسبب السل، يا أبي، قالت الفتاة موضحة لأبيها.

-مارفل ليس الوقت مناسباً للثرثرة، صاح منبهاً إياها.

فهمته وصمتَت ثم بعد أن أنهينا وجبة الفطور قال والد الفتاة موجهاً كلامه لي: لن تستطيع الذهاب إلى أي مكان بهذه الملابس الرثة، انتظرني هنا، سأذهب لأشتري لك ملابساً جديدة في أثناء تسوقي، فلتأخذ حماماً سريعاً.. اتفقنا؟

-حسناً، هززتُ رأسي.

ثم خرج بصحبة ابنته الجميلة وذهبا، عند الباب وقبل أن يغادرا، قالت لي الفتاة:

-سنشتري لك الملابس ونعود، لا تقلق يا صديقي، كل شيء سيكون على ما يرام، أعدُك.

ما هذه الفتاة؟ التي تحملُ الكثير من صفات وملامح الملائكة، أيعقلُ أن يكون هناك شخصاً طيباً إلى تلك الدرجة، التي تدفعه إلى الوثوق بشخص غريب

والأغرب من كل هذا، أنها تعطيني الوعود، وكأني أعني لها شيئاً! وكأنها مكلفة بترميم جراحي ومساعدتي على نسيان كل ما يسبب لي الألم، ماذا أقول؟ وماذا أفعل أمام هذا الحُب غير المشروط التي تمنحني إياه تلك العائلة! آه يا أمي، هل بوسعكِ رؤيتي؟ هل ترين التغيير العجيب الذي طرأ على حياتي بين ليلة وضحاها؟ وهل أنتِ مرتاحة البال، بعد أن تخلصتُ من معذبنا؟ انظري يا أمي أنا آكل وأشرب وسأرتدي ملابساً جديدة، وسأذهب إلى المدرسة برفقةٍ فتاة رائعة، تدعى مارفل.

بعد عدة سنوات على مرور ذلك اليوم، الذي هربتُ فيه إلى منزل تلك العائلة..

وفي مرحلة المراهقة، حيث اشترى لي «الرجل الطيب» منزلاً صغيراً قريباً من منزلهم، حيث أقضي فيه أغلب أوقاتي، وأنام فيه، فقد قلَّ تواجدي في منزل مارفل، أضف إلى ذلك، فقد اشترى للمنزل أثاثاً فخماً، قائلاً لي أنه منزلي المستقبلي، حيث سأتزوج وأصبح أباً «مثالياً» دون أن يعرف بالطبع أنني مغرمٌ بابنته مارفل ولا أريد سواها، إذ لا أستطيع أن أتخيل حياتي من دونها، في تلك المرحلة بدأنا باكتشاف الأماكن معاً، وتمكنا من اختيار نوعية الكتب التي تستهوينا «كتب التشويق والخيال وعلم النفس»، لكل من (ميسو ومات هيغ) وبعض الكتب التي تتميزُ بطابع فلسفي، أضف

إلـــى ذلـــك، فقـــد كانـــت الشـــوكولاتة الســـاخنة مشـــروبنا المفضـل، لقـد أصـبحنا مـن خـلال السـنوات التـي قضـيناها معـاً فـي منزلهـا، شخصـين قـريبين يتشـاركان الهوايـات والشـغف نفسـه بعـد أن كنـا فـي مـا مضـى، مجـرد فتـى وفتـــاة غـــريبين جمعهمـــا الأيـــام فـــي مرحلـــة مـــا مـــن حياتهما.

ASRUD
للنشر الالكتروني

الفصل الحادي عشر

يعقوب:

"الحياة ما هي إلا تقدّم نحو ثم تراجع عن مقولة واحدة "أحبك".

-ف. سكوت فيتزجيرالد

أريدُ أن أعترفَ لكِ بحُبي، لكني لا أستطيع، شيء ما يمنعني، وكأنَّ أحبالي الصوتية لا تستطيع النطقَ بتلك الكلمة؛ إذ كلما حاولتُ أن أعترف لكِ، أجدُها تتقطعُ بسكين "الخجل" حاد الطرف، فأهرعُ وقد انتابتني موجة ألم كاوية متأملاً أن يأتي ذلك اليوم، الذي سأتمكن فيه من قولِ «أحبكِ».

أتمنى أن أجد الصلابة الكافية حتى أقول لك كم أحبك، لكن شيئاً ما يمنعني، ذلك الصراع الأزلي بين العقل والقلب، حيث يكون المرء محتاراً إلى أي من الاثنين يستمع وأي منهما يتبع، أيستمعُ إلى عقله الذي لا يؤمن إلا بالأرقام والنظريات الفلسفية والعلوم والكيمياء، أم يُنصتُ إلى قلبه الذي لا يهتم إلا بالحُب والمحبوب؟ أيصدقُ اوغست كونت القائل: إن الانسان لا يستطيع أن يفكر في كل وقت لكنه يستطيع أن يحب دائماً " أم يصدق الفيلسوف فريدريك نيتشه المعروف بعدو المرأة، صاحب المقولة الشهيرة "المرأة فخ نصبته

الطبيعة" أم أنه يمزجُ بين المقولتين، فيعلق في الوسط بين فريدريك واوغست دون أن يتمكن من تحديد وجهته، كلما حاولتُ أن أخطو تلك الخطوة، أجد نفسي أتراجع لا إرادياً وكأنني جسمٌ معدني، إذ كلما حاولتُ اللحاق بكِ جذبني مغناطيس العقلانية بعنفوان، حائلاً بيني وبين رغبتي في البقاء بقربكِ.

حبيبتي مارفل، كلما حاولتُ أن أتقرب منكِ، أجد نفسي أتراجع خطوة للخلف، وهذه ليسَت سوى أنانية من رجل يعرف سلفاً أنه سيُهزم وربما يمكنني أن أعلم سبب تراجعي لهذا السبب فأنا أخاف أن أركض وراء عاطفة ربما تكون مؤقتة ووهمية، أخاف أن أجرحك كما فعل كيركيجارد بحبيبته، عندما خطبها وجعلها تتعلق به، ثم اكتشف فجأة أنه غير مستعد لأن يكون شخصاً يُعتمد عليه، فأمضى ما تبقى من عمره يحاول الاعتذار منها، أخاف أن أتخذ خطوة متأثراً بالعواطف المضطرمة فأورطُ نفسي وأورطكِ معي، لا أستطيع أن أجزم أي واحد من بين هذين الاثنين أرحم، أأستمع إلى القلب أم العقل (الهالكين، لكن بدرجاتٍ متفاوتة).

غيث:

بعد عدة سنوات، وعندما أصبحتُ في مرحلة المراهقة انتقلتُ من المدرسة الابتدائية منها إلى الإعدادية، حيث

تعرفتُ على يعقوب، وبقينا معاً حتى الوقت الراهن، لدرجة أنَّنا ارتدنا الجامعة نفسها، إذ كنا قد واظبنا على عدم الافتراق، وأننا سنبقى أصدقاء رغم كل العوائق التي قد تواجهنا، التي من شأنها ربما أن تباعد بين صديقين، كالموت أو الحُب، عند التفكير في الاحتمال الأول قد يبدو الأمر منطقياً، فالموت أمر حتمي، سيحدث عاجلاً أم آجلاً ورغماً عن إرادتنا.. لكن أن تفرقَ امرأة بين رجلين، فهذا أمر جنوني وعصي على القبول، بل في غاية السخرية، ولا أحد بدون شك ولا استثناء يتمنى أن يوضعَ في موقف كهذا، الموقف الذي يجعل المرء عالقاً في المنتصف، يتأرجح بين الحُب والصداقة.

-كيف حالك، يا صديقي؟ سألتُ يعقوب الذي كان مشتت الفكر.

-أنا حقاً لا أعرف، تنهد: هذه الأيام، لا أستطيع أن أكف عن التفكير.

-فيمَ تفكر؟ حملقتُ فيه، ما الذي يشغل بالك؟

-لا أعرف، فكري مشوش ولا أستطيع القيام بشيء.

-أنتَ تحيرني، لا أستطيع أن أفهمك، ما هي مشكلتك؟

-لا شيء، هز كتفيه: لا تشغل بالك بي ثم حملق فيّ بعينين متقدتين وكأنه تذكر شيئاً خطيراً، وقال: بالمناسبة، يا صديقي الوفي، لِمَ لم تأتِ مثلما اتفقنا لتنام

عندي ريثما تجد حلاً لمشكلتك، بل والأسوأ من هذا كله هو عدم ردكَ على رسائلي ومكالماتي، هل هناك خطب ما، يا صديقي؟

لقد وقعتَ في الفخ، ماذا ستفعل الآن، أيها المتحذلق؟

-آه، أنا آسف حقاً نسيتُ أن أتصل بك فقد كنتُ محرجاً، لكن خالتي أصرتْ على عدم مجيئي لعندك واقترحت عليَّ أن أبقى في بيتها، وبعد إلحاحٍ وإصرار، رضختُ لرغبتها وبقيتُ عندها.

قال بنبرة معاتبة.

-لكنها لم تمنعكَ من الاتصال بي، أليس كذلك؟

-أعتذر، أنا آسف حقاً، لقد نسيتُ أن...

قاطعني قائلاً: لا بأس، لقد فهمت، لا داعي للتبرير.

لكني التمستُ في نبرته تعباً، لقد كان ضائعاً، مشتت الفكر، لكنه يأبى أن يعترف بذلك.

أنتَ تكذب يا صديقي، لستَ على ما يرام لكنك لا تريد الاعتراف بذلك، وهذا ما يجعلني أخاف، وكأنكَ تخفي عني شيئاً مشيناً، ومع ذلك، أنا موجود من أجلكَ دائماً قلتُ محاولاً تهدئته.

-شكراً، يا صديقي، قال بفتور

يعقوب غير طبيعي، أنا متأكد من ذلك؛ إنه يتصرف بغرابة لم أعهدها فيه قط رغم الألم الذي يفتكُ به، ظل

على الدوام مبتسماً، لا يستسلم للكآبة بسهولة لكن اليوم، أنا أمام شخص آخر، شخص ذو نظرة شاردة وفكر مشغول.

بعد إنهاء المحاضرات، التقيتُ بصديقي ورد، الشاب الذي لا يفوته شيء، إذ يدفعه فضوله الزائد إلى معرفة أدق التفاصيل عن زملائه في القاعة وهو ما يجعلني أبتعد عنه قدر الإمكان، فهو لن يتوانى أبداً عن إفشاء أكثر الأشياء خصوصية في حياة الآخرين، بهدف المتعة والشماتة بهم.

-مرحباً غيث! صاح من بعيد.

ماذا تريد أيها الغبي؟ أنا لستُ الشخص الذي تبحث عنه.. لستُ نماماً مثلك.

-ماذا هناك؟ قلتُ بنبرة جافة: قل ما عندك بسرعة.

-اهدأ يا رجل، على الأقل دعني ألتقط أنفاسي، قال وهو يلهث.

-قلتُ لك، لستُ متفرغاً لسخافاتك، قلتُ بصرامة أنا ذاهب.

-انتظر! استوقفني أراهن أنكَ ستتراجع عن كلامك عند سماعك لما سأقول.

-اللهم صبراً، تنهدت: هات ما عندك أتحفنا.

-هل تعرف أنَّ صديقك يعقوب، مغرم بمارفل، صاح بانفعال.

-أيها القذر! ماذا تظن؟ أتظن أنني رجل مخبول، أتسخر مني؟ هل تريد مني أن أصدق كذبتك الخبيثة وافتعل المشاكل مع صديقي؟ على أي أساس؟ على أساس أنّكَ أنتَ النمام المتملق، عرفتَ بالأمر قبل الجميع، أغرب عن وجهي أيها المعتوه! وإلا...

كظمتُ غيظي، رغم الرغبة الملحة في أن أهشم وجهه، وقلت: اسمع يا ورد، لا أعرف ما هي غايتك من تلك الأقاويل ولا أريد أن أعرف كل ما أريده وأرجوه منك هو أن تدعني أذهب، فقد...

لكنه قاطعني مزمجراً: أنتَ لا تصدقني، أليس كذلك؟ إذاً، اذهب واسأل زملاءك في القاعة جميعهم رأوا صديقك المخلص، أكثر من مرة يخرج برفقةِ مارفل.

وقبل أن يرحل، قال بنبرة مغيظة: يا لكَ من فتى مسكين، وغبي.

-ربما أكون غبياً، لكنني لستُ حثالة مثلك يا ورد، صحتُ بمكر.

مما دفعه للالتفات، وتوجيه نظرةٍ ثاقبة معناها: سنرى من هو الحثالة من بيننا، ستندم يا غيث، ستندم.

باعدتُ بين يدي كعلامة على اللامبالاة ثم توجهتُ إلى قاعة المحاضرات.

أيعقل أن يكون ورد محقاً في ما قاله عن يعقوب؟ ولكن، كيف حصل هذا وفي أي وقت؟ والأهم هو: لِمَ حرص على عدم إخباري بالأمر؟ ما الذي منعه من الإفصاح؟ أهو الخوف من أن يجرحني، أم أنها علامة على عدم ثقته بي؟ أو ربما عرفَ بالأمر، ربما حكت له مارفل قصتي وذلك الاعتراف الذي قابلته بالصد بـ "لا" ، هذا مستحيل، ورد أيها القذر، لقد كنتُ فريسة سهلة بالنسبة لك إذ جعلتني أصدق ولو لبرهة أكاذيبك الغبية.

-دائماً ما تنجح في خداع الجميع، لكنها خدعة مؤقتة، لا يدوم تأثيرها سوى لبضعِ ثوانٍ ثم لا تلبثُ أن تتلاشى، غمغمتُ في سري.

سأكون غبياً ومسكيناً كما قلتَ يا ورد لو أنني أنصتُ إلى كلامك وأكاذيبكَ السامة، بل سأكون مجنوناً لو أنني صدقتُ ما تقوله وعاتبتُ صديقي على شيء لم يفعله، ولن يبدو تصرفي هذا، إلا أنانية وحباً للذات؛ إذ أنني سأتجاهل الحالة المزرية التي يمر بها صديقي، لأطرح عليه أسئلة تافهة، لأحصل على أجوب من شأنها أن تزيح طيف القلق الحائم حول فكري وترضي ذاتي التي تزعزعت لمعرفتها بأن هناك شخصًا آخر فُضِّلَ عني، سيكون تصرفاً طائشاً، لا ينم إلا عن الغريزة الإنسانية التي يكابد المرء ليتغلب عليها "الأنانية المفرطة".

عندما دخلتُ القاعة، وجدتُ يعقوب جالساً وقد بدا أنه ينتظرني منذ وقتٍ لا بأس به فتوجهت إليه كعلامة على فهم ما يدور في رأسه وجلستُ قبالته، كنتُ على وشكِ أن أتحدث عندما استوقفتني ملامح وجهه القلقة، وسحنته الشاحبة، فأحجمتُ عن الكلام تاركاً له المجال والوقت الكافي لكي يتحدث متى ما أراد ذلك، لا سيما وأنني لاحظتُ أنه لا يرغب في الحديث وكأن لسانه تجمد بفعل موجة الكآبة الباردة لدرجة أنه لم يبادر بالالتفات وتبادل الحديث معي إلا بعد انتهاء الحصة؛ إذ قال لي بنبرته المتعبة، شيئاً في غاية الغرابة: أشعر وكأنني طفل حديث الولادة؛ إذ لم أعد أعرف كيف أتصرف، لقد فقدتُ السيطرة على حياتي بأكملها، يا صديقي.

-اهدأ يا صديقي، قلتُ مربتاً على كتفه، أنتَ تقول هذا، فقط لأنكَ متعب، مهما بدتْ المشكلة صعبة، أنا على يقينٍ تام بأنكَ ستتمكن من إيجاد حلٍ لها، فالحزن ليس نهاية لكل شيء وإن بدا كذلك بل هو بداية واعدة، بداية لأشياء أكثر روعة من تلك التي تتحسر عليها وحتى في تلك اللحظة التي تبدو عبئاً ثقيلاً بالنسبة لكَ ستتعلم منها درساً ما، ربما يساعدكَ في قادم الأيام، صدقني، لولا وجود الألم لما تعلمنا من الحياة شيئاً، أعرف تماماً ككل الناس أنَّ للفرح فوائد كثيرة؛ فهو يفرز هرمون السيروتونين، الذي يساعدنا في التخلص من الاكتئاب،

لكن قل لي، كيف ستعرف مَن يستحق -من الناس- أن تثق به دون أن تجربَ شعور الخذلان؟ وكيف ستؤلف كتاباً، دون أن تمضي ساعات طويلة، في قوقعتكَ الخاصة، تقرأ آلاف الكتب وتكتب عشرات الصفحات؟ الألم هو المحرك الأساسي لكل شيء، وهو المعلم والفيلسوف الذي يجب أن نقتدي به ونستشف منه دروساً ومواعظاً، نحن بحاجةٍ إليه كحاجتنا للسعادة، فهو الطريق الممهد نحو شخص أكثر حصافة ورزانة.

-كلامكَ منطقي ربما، أستطيع أن أستفيد من الألم، وأحوله إلى سبب من شأنه أن يسعدني.

-لقد فهمتَ كل شيء يا صديقي، قلتُ وأنا أبتسم.

-أشكركَ يا غيث صاح بانفعالٍ: سأعملُ بنصيحتكَ.

ثم قام من مكانه وهرول مسرعاً لدرجة أنه كان على وشك أن يصطدم بأحد الطلاب دون أن يضيفَ على كلامه شيئاً.

على الأقل، استطعتُ مساعدته في الخروج من حالة الركود، وهذا هو ما يهمني: أن أراه - كما اعتدتُ - مبتسماً رغم الألم الذي يقبع في أعماقه في نهاية المطاف، استطعتُ أن أفيدَ أحداً مما يدحض اعتقاد أبي، الذي يعتقد أني شخص بلا فائدة انظر، يا أبي.. هأنذا أقدم نصيحة مفيدة لصديقي، مما يعني أنني تمكنتُ منك يا صاحب الكبرياء الذي لا يقهر!

ابتسمتُ لرؤيته مغتبطاً، اكتفيتُ برؤيته على هذه الحال، دون أن أتبع فضولي الذي يلحُ عليَّ لمعرفة المزيد، وربما كان حدسي محقاً، لكنها حقيقة لن أدركها إلا بعد فوات الأوان.

ASRUD
للنشر الالكتروني

الفصل الثاني عشر

اعتراف:

"في كلّ الأيام، تحت كلّ طقس، في كلّ الأماكن، أحبّك".

-روكي دالتون.

ربما كان غيث محقاً، إذ بإمكان المرء أنْ يحوّلَ كآبته إلى سعادة فمثلاً: بإمكان الشخص المنعزل إذا كان يرى أنَّ الأشخاص المحيطين لا يتوافقون معه في شيء أن يستفيد من عزلته، عن طريق تطوير ذاته وممارسة الهوايات التي يحبها، كالشخص الذي يحب الكتابة، بدل أن يضيعَ وقته مع أشخاص لا تتلاءم أفكارهم مع أفكاره، بإمكانه أن يستخدم ذلك الوقت في كتابة ما يحب وإذا استمر على هذه الحال، ربما يصيرُ كاتباً مرموقاً؛ عملاً بنصيحة صديقي، قررتُ أن أستفيد من الألم الذي تسببه لي عاطفة الحُب عن طريق اعترافي لها بكلمةٍ من أربعة أحرف، رغم قلة حروفها إلا أنها صعبة النطق، سأقولها، سأقول: أحبكِ.

سأقول لها أني أحبها، حتى عندما تغضب أحب رؤيتها حتى ولو كانت متوترة أحبها حتى عندما تخطئ، وعندما تتلعثم بالكلمات، حين تتورد وجنتيها خجلاً، وعندما يكتسح الاكتئاب ملامحها الرقيقة سأقول

لها أني أحبها، ضارباً أقوال الفلاسفة عرض الحائط، فأنا لست نيتشه وهي ليسَت لو سالومي، إنما نحن مارفل ويعقوب، وبالتالي، ليس علينا أن نضيع تلك الفرصة بسبب قصة حصلَت مع فيلسوف مثل نيتشه، الذي يرجع سبب فشله في الحُب إلى اختياره غير الموفق، فعلى الرغم من معرفته المسبقة بأن سالومي امرأة لعوبة، إلا أنَّه رضخ لها ووقع في فخها لكن امرأة مثل مارفل.. تجعلكَ ترضخ لسحرها دون أن يخامركَ الشك والخوف ولو لبرهة إذ يكفي أنها مارفل وليسَت سالومي!

إضافة إلى أسباب أخرى (سحرها وجمالها الطاغي، فهمها لشخصيتي من دون أن أتكبد عناء الكلام المحاولات التي تقوم بها في سبيل مساعدتي، لطفها وعفويتها) قررتُ أن أعترفَ لها بمشاعري نحوها، دون أن أضع في الحسبان العواقب المترتبة على فعلتي.. وهل يبقى لدى العاشق عقل يوجهه؟ هل يكون لدى العاشق منطق يردعه وينبهه؟ كلا.. إذ يفقد المُحب عقله عندما تطأ قدمه متاهة الحُب اللامتناهية.

وكأن الحُب يبقى في منأى عنا إلى أن نقبل بشرطه الآتي: ينبغي على كل شخص يودُ الخوض في تلك المتاهة، أن يدع العقل والمنطق جانباً إذ لا وجود للعقلاء هنا، الحُب للمجانين فقط.

انتظرتُ إلى أن خرجتْ هي وصديقاتها؛ حتى لوحتُ في إشارة مني إلى رغبتي في الحديث معها دون أن أظهرَ لها علبة الخاتم التي أخفيتها خلف ظهري فأتَت بعد أن ودعتهنَّ، وعلى وجهها ابتسامة ندية.

ها هي تقترب، لا يفصل بيني وبينها سوى خطوات قليلة القليل من الخطوات والتي ستتلاشى عما قريب تحجبُ بيني وبين كلمة أحبكِ، استجمع قواكَ يا يعقوب؛ فبعد قليل ستسمع أجمل موافقة في حياتك؛ "نعم" أنا موافقة، موافقة على أن أكون رفيقة دربكَ ولحظاتك وأيامك بل العمر كله.

ما إن صارت قريبة بما يكفي حتى جثوتُ على ركبتي بخفةٍ وكأنني تدربتُ من أجل هذه اللحظة مئة مرة وقلتُ بنبرة طغى عليها العشق:

-هل تقبلين الزواج بي، يا مارفل؟

تهيأ لي أنني سمعتُ الجواب من خلال عينيها المتقدتين ووجنتها التي احمرَت حتى صارت شبيهة بحبةِ الفراولة الطازجة وسكوتها الذي يعزى إلى صدمتها، إن الصمت علامة الرضا!

ومع ذلك كررتُ السؤال للمرة الثانية:

-هل تقبلين الزواج بي، يا حبيبتي؟

سمعتها تهمس موافقة "نعم، أقبل" فتعمدتُ أن أسألها مرة أخرى:

-لم أسمع جوابك، أتقبلين أن تكوني زوجتي؟

عندها رأيتُ دمعةً تتدحرج على خدها، وسمعتُ صرختها المتعالية:

-أجل يا يعقوب، أقبل، نعم أقبل!

ثم حجبت وجهها خلف كفيها وأجهشت بالبكاء، فأغلقتُ العلبة التي تحوي الخاتم وقمتُ لأطوقها بذراعي.

-اهدأي يا حبيبتي، لا داعي للبكاء.

سمعتُ شهقاتها وأحسستُ بجسدها يرتعد في حضني.

-أنا أبكي؛ لأنني سعيدة!

في هذه اللحظة سمعنا صوت التصفيق الحار وكذلك صرخات الزملاء ومباركاتهم، فمسحتُ دموعها والتفتنا صوبَ الزملاء لنعيش اللحظة بتفاصيلها الباعثة على الغبطة تلك التفاصيل التي ستبقى عالقة في ذاكرتنا إلى الأبد حتى إذا مُحيَت أغلب ذكرياتنا؛ بفعل التقدم في العمر فإننا لن ننسى تلك اللحظة التي كنا فيها، أسعد شخصين في العالم.

بينما كنا نستمتع بتلك اللحظة العذبة، رأيتُ زميلي ورد وقد دخل في نوبة ضحكٍ هستيرية وكان يشير بذقنه نحونا وكأنه يحدثُ شخصاً ما قائلاً: هل ترى هذا؟ انظر جيداً متع نظرك بمشهد "الاعتراف".

فالتفتُ لأرى إلى مَن كان يتحدث لكنني لم ألمح أحداً، فظننتُ أنه كان يشيرُ إلى شيء آخر وليس إلينا، فلم أعره اهتماماً؛ فقد كان اهتمامي منصباً في تلك اللحظة على صاحبة العينين اللوزيتين فلم أعد أشعر ولا أرى سواها، متخلياً عن الحذر والخوف إذ يتلاشى الخوف تلقائياً، في حضرة مَن نحب، حتى لو كان حضوره لا يستمر إلا لدقائق قليلة فهو بالوقت القليل الذي يمنحنا إياه قادر على تغيير مجريات يوم كامل فربما نمتَ ليلة أمس بعد أن أغرقتَ وسادتك بالدموع واستيقظتَ لتجد رسالة أو أغنية من شخصكَ المفضل من شأن هذه التفاصيل رغم بساطتها أن تنسيكَ مرارة الأمس، بل وقد تدفعكَ إلى السخرية من نفسكَ قائلاً: كف عن البكاء كالأطفال، أيها الساذج المغفل، على الأقل لديكَ شخص يهتم بك، وهذه ميزة لا يملكها من الناس إلا القليل، عليكَ أن تكون ممتناً للنعمة رغم كل الأسباب التي قد تدفعك إلى البكاء، ورغم الألم المحدق بك من كل جهة وصوب عليك أن تكون شاكراً وممتناً على الدوام لتلك التفاصيل الصغيرة التي من شأنها، أن ترسم البسمة على شفتيكَ.

اهرعوا إلى مَن تحبون، ودعوا عنكم كل العراقيل: (الكبرياء - الأنانية - المواقف التافهة التي تباعد بين الأشخاص) تحدثوا معهم، التمسوا منهم الطيبة والكلمات التي من شأنها أن تخفف آلام الروح،

اضحكوا مع مَن تحبون، واشبعوا أعينكم برؤياهم وآذانكم بنبرتهم الرخيمة وإن لم يكن لديكم شخص من هذا النوع، فلا بأس بذلك - وإن طال انتظارك - استمر في البحث عنه بصبرٍ وشغف شديدين كأنك قارئ يبحث عن كتاب لكاتبه المفضل بين آلاف الكتب، فهو يعرف - حتى وإن استغرق وقتاً لا بأس به - أنه سيجد ما يبحث عنه في نهاية المطاف.

التفتُ نحوها، نظرتُ في عينيها مباشرة وتناهت إلى ذهني، الصورة والذكرى ذاتها عندما التقينا أول مرة، تذكرت الموقف الذي ظننتُ أنه يحدثُ فقط في الأفلام الرومانسية واللحظة التي التقت فيها نظراتنا، وتلك الغيبوبة اللذيذة التي غرقتُ فيها وقتئذ.. والأماكن الخضراء التي زرتها من خلال عينيها الأخاذتين، حدقتُ فيها طويلاً دون أن أشعر بالملل وبقيت على هذه الحال لفترة لا بأس بها أتأمل حبتي الكيوي الشهيتين، دون أن أترك نفسي تنقاد وراء الموجودات الأخرى وكأني الجوري وهما -أي عيناها- الأرض المعشوشبة التي تمنحني الحياة بحيث أني -لو حصل- وابتعدتُ عنها، فسيكون مصيري الموت لا محالة.

غيث:

"أنا خائفٌ مِن وحدتي، ليس هناك مَن يلاطفني أو يُعزيني، أنا الثملُ في الفِراش. لِمَن أنا؟ مَن بحاجةٍ إلي؟ مَن يحبني! لا أحد".

-أنطون تشيخوف.

على ما يبدو أنني سأغير رأيي، وسأعترف عن طيب خاطرٍ بالحقيقة التي ظللتُ أنكرها طيلة هذه السنوات؛ أنا شخص بلا فائدة، كما كان ينعتني أبي دوماً، إذ كلما أقدمتُ على فعل شيء، عاد عليَّ بنتائج سلبية، وهذا ما حصل معي بالضبط.. فقد خذلني أعز أصدقائي عندما عملَ بنصيحتي لصالحه دون أن يفكر ولو لجزء من الثانية، بنتائج فعلته، كل شخص، عندما يكون لديه هدف ما يبتغي تحقيقه فإنه يضع ذلك الهدف نُصبَ عينيه ويهمل كل مَن حوله.. هذه حقيقة، وكما قالت الكاتبة كولين هوفر فإن "الحقيقة العارية تجرح"؛ إذ ها هو صديقي العزيز يعترف بحُبه للمرأة التي أحببتها طيلة هذه السنوات، دون أن يرف له جفن، والأفظع من كل هذا، هو رد فعلها إذ لم تُعرني اهتماماً، وكأنني لم أكن موجوداً في حياتها في ما مضى...

كنتُ غريباً وسأظل كذلك، كيف تنسى الرجل الذي عشقها منذ الصغر؟ كيف يهون عليها كسر قلبي؟ أنا

الذي فعلتُ كل شيء لأنال رضاها، فلم أنل سوى الصد والرفض، أحببتها فأذلتني، وها هي الآن تغلق آخر أبواب الأمل في وجهي إنها تبتسم لصديقي، وتتبادل وإياه نظرات جامحة بالحُب وتمنحه ما لم تمنحني إياه: قلبها.

هي لا تريدك، تلك حقيقة عليكَ أن تدركها..

وليكتمل المشهد، لمحتُ ورد الذي كان شاهداً على "اعتراف العاشقين" وفي الوقت نفسه، شامتاً بي؛ حيث أكد الموقف الذي أراه مصداقية كلامه: "مارفل ويعقوب يحبان بعضهما البعض" شعرتُ بالخزي، إذ منحتُ الثقة لغير أهلها، لأشخاص لا يستحقون من عمري لحظة أنا الذي أفنيتُ عمري ورضيتُ أن أكون شخصاً "عديم القيمة " مقابل أمانٍ سخيفة كلفتني الكثير فقد تمنيتُ حباً لم أحصل عليه، وتمنيتُ صديقاً وفياً فلم أحصل عليه كذلك طوال حياتي، ظللتُ أعتقد أنهما "نعمة من الله" وعوضاً عن كل الأشياء التي خسرتها، فتبين لي أني كنتُ مخطئاً، إذ لم يكونا نعمة وإنما نقمة وصفعة قوية لم أدرك حجم فداحتها إلا بعد أن فات الأوان؛ فقد كنتُ كالمغشي عليه، ولم ألاحظ شيئاً إلا الآن، بعد أن فات الأوان.

هل أنتَ مغتبط الآن؟ انظر جيداً، استمتع بالمشهد الرومانسي والآن، هل أنتَ مرتاح؟ بعد أن خسرتَ كل شيء بسبب ثقتك وطيبتك المبالغ فيهما؟ متى ستفهم

أنّ الثقة شيء نفيس، شيء لا يمنحُ لأي كان متى ستعي حقيقة أنّ القلب لا يعود على صاحبه إلا بالأذى؟ فالحياة تتطلب منكَ أن تكون قاسياً كالصخر، مهما صفعتكَ النوائب فلن تثني من عزيمتك بل ستكون بمثابة الدرس الذي من أن شأنه أن يزيد قدرتكَ على مواجهة أي موقف كان، أما القلب، فهو موضع الترهات والتفاهات، هو المخادع الذي يرسم لك سيناريوهات طافحة بالسعادة ثم وبشكل مفاجئ، ستكتشف أنكَ كنتَ ضحية مشاعر وأحلام وهمية، الخلاصة، عقلك مصدر قوتك والوسيلة الأمثل للتعلم واكتساب القدر الأكبر من المعارف والخبرات، أما قلبك فهو مصدر ضعفك، وسبب ركودكَ وغمك فكما قلنا سابقاً، القلب موضع الأوهام، أو إذا جاز التعبير، هو موضع رغباتنا وخيالاتنا التي نتمنى أن تتحقق وتصبح حقيقية، فالقلب ليس وسيلة نستطيع من خلالها أن نتنفس وإنما علاقتنا به كعلاقة الرسام بريشته فهي ترسم ما يمليه عليها صاحبها وتحقق رغباته المكبوتة، وهذا بالضبط ما أود أن تفهمه، " لا تثق بقلبكَ، فغالباً ما يصير هو الفنان وتصير أنتَ الريشة إذ تخضع للوقائع التي يرسمها لكَ، حتى إن كانت مختلفة عمّا تتمنى، وحتى إن آذتكَ ستتقبل النتائج عن طيب خاطر، وذلك لأنك أدركتَ بعد أن فات الأوان على ذلك أن مَن يتبع قلبه فجزاؤه هو الخسارة.

عندما لمحني ورد، رمقني بنظراتٍ خبيثة تنمُ عن الشماتة وكأنه يقولُ لي:

"أرأيتَ؟ لقد فزتُ بالرهانِ يا غيث! أتمنى أن تكون قد تعلمتَ درساً.. يا صديقي!".

بقيتُ جامداً في مكاني لعدةِ ثوانٍ عاجزاً عن فعلِ شيء، وكأنَّ الموقف جمدَّ أطرافي ووثبة الفكر لدي، فأضحيتُ عاجزاً عن فعل شيء، وكمَن مسهُ الخبل، ابتعدتُ عن المكان بأقصى سرعة لكي لا يلاحظني أحد ممن كانوا موجودين، فكل الحاضرين دون استثناء يعرفون حكايتي المخيبة للآمال الجميع، كان شاهداً على تلك اللحظة، عندما طُعنتُ - دون رحمة - من أعز امرأة على قلبي، إذ قابلَت حُبي بالرفض، هرعتُ إليها لأبث لها حُبي فصدتني بكلمةٍ واحدة، قاسية وجارحة قالتها أمام الجميع، دون أن تضع في الاعتبار، اهتماماً للرجل الذي يقف أمامها، ولا للخيبة التي ستسببها له، لقد قالَت **لا** ولم يرف لها جفن! جرحَتني، خدشت كبريائي وحطمَت آمالي، وها هي الآن تعيد الكرَّة.. لكن هذه المرة، بطريقة أكثر فظاعة وقسوة إذ ها هي الآن تقفُ على مقربةٍ من صديقي، شريكها في الجريمة! يعقوب العزيز، الذي لم يجد في فعلته عيباً ولم يفكر حسب ما لاحظتُ بصديقه المقرب، لم يفكر إلا في نفسه وسعادته.

مثلما فعلَت هي الأخرى، **كلاهما كانا أنانيين** ولم يحسبا لي أدنى حساب، أنا الذي وقعتُ ضحية لأشنع الغرائز الإنسانية.. **"ضحية الأنانية"**.

ماذا بعد؟ إلى أين أذهب ولِمَن أشكو همومي لمَن سأشكو خيبة أملي؟ مَن بقيَ لي بعد أن خذلني حسب ما كنتُ أظن أعزُ شخصين على قلبي؟ **لا أحد**، لمْ يبقَ أحد.. منذ زمن طويل، منذ أن فقدتُ أمي أضحيتُ وحيداً بلا صديق ولا أخ، لا عائلة لدي ولا امرأة تحبني، لم أملك واحداً من هؤلاء.. الشخص الوحيد الذي أحبني بصدقٍ وكابد وتحمل لأجلي.. كان أمي.

أمي! أنا آتٍ إليكِ أنا قادم يا حبيبتي، فقد تعبتُ وأنهكتني الخيبات التي تراكمت عليَّ إلى أن أضحت ثقيلة كالجبال...

منذ عدة سنوات

بعد السنوات الطويلة التي قضيتها بعيداً عن والدي التعسفي مع عائلة مارفل عاد والدي للظهور في حياتي مجدداً.. بعد أن ظننتُ أنَّه صار مجرد كابوس عشتُ تفاصيله في الماضي واستفقتُ منه حاضراً.. لكن لا هذا الكابوس لن ينتهي وخصوصاً بعد أن عاد والدي، إذ تبين لي أنَّ هذا الكابوس فصل لا يمحى من كتاب

حياتي مهما تمنيتُ ذلك بل سيستمرُ في إفساد حياتي حتى الرمق الأخير.

العودة إلى الخلف

في اليوم الذي تلا خروجي من المنزل، وعندما ذهبت مارفل مع والدها إلى السوق، لكي يشتريا لي ملابساً جديدة وبينما كانت والدة مارفل تغطُ في نومٍ عميق، استغليتُ الفرصة لأخرج من المنزل وأذهب إلى بيت عمي جاد، الشقيق الأصغر لوالدي وبما أنه كان الشخص الأكثر حناناً من بين أعمامي، فقد اخترتُ الذهاب إليه لأخبره بما يحصلُ معي، وبالفعل أحسنتُ الاختيار -ولو مؤقتاً- إذ وجدتُ عنده ما كنتُ أرجوه وجدتُ الحُب واللين ووجدتُ الوفاء والصدق.. فقد وعدني بأنه سيكتم سري قدر المستطاع.

-أرجوكَ يا عمي، هذه فرصتي الوحيدة وإن فرَّطتُ بها فسيكون مصيري كمصير أمي!

-لكن، كيف تريد مني أن أكذب على والدك وأقول له أني لم أرَ غيث، بينما تجلس هنا قبالتي، وتتحدث معي! صاح بانفعال.

-والدي؟ قلتُ باستهزاء، أتقول لي أنه والدي؟ هل هناكَ داعٍ لأن أذكركَ بالشخص الذي تزعمُ أنه والدي؟

-غيث.. أرجوك.

-كفى! توقف أرجوكَ يا عماه لا أريد أن أسمع مزيداً من المبررات والحجج، صرختُ: الرجل الذي تتحدث عنه كان السبب في موت أمي هذا إذا ما استثنينا التعنيف الذي أتعرض له يومياً.. أرجوك يا عماه، إما أن تفعل ما قلته لكَ، وإما أن تخسرني وأنتَ تعرف جيداً ما أعني.

رمقني بنظرة تنم عن يأسه وقلة حيلته..

-حسناً، يا ابن أخي لن أخذلك، وافق على مضض.

-أشكركَ يا عماه! قلتُ بعينينِ دامعتين لن أنسى لك صنيعكَ هذا أنت لا تبعدني عن والدي وإنما تنقذني منه.. بل وتمنحني فرصة لأبدأ من جديد.

-لا أعرف لمَ يتصرفُ مع عائلته بهذه الطريقة، تنهد: بعمقٍ، أنا حقاً أستغربُ من أولئك الذين يعاملون أولادهم بوحشية..

-الكل ينجبُ أطفالاً، لكن نسبة من هؤلاء الأشخاص - كأمثال والدي- لا يستحقون أن يكونوا آباءً وأمهات؛ فهم بمعاملتهم التعسفية، لا يقدرون الهدية التي وهبهم الله إياها.

-أنتَ محق يا صغيري، ارتسمت على وجهه ابتسامة، أنتَ محق.

-إذاً يا عماه، هل تعدني بأن تكتم السر؟ سألته للمرةِ الأخيرة.

-أعدك يا عزيزي.. هز رأسه بالإيجاب.

-ودعته وهرعتُ للعودة إلى **"منزلي و عائلتي الجديدة"** وقبل أن أرحل، نظر إليَّ للمرةِ الأخيرة.

-وقال بحنو: أتمنى أن يؤتي بعدكَ عنا ثماره! بالتوفيق يا ابن أخي.

-لوحتُ له وأطلقتُ ساقيَّ للريحِ فرحاً بالفرصةِ التي وهبني الله إياها في تلك اللحظة تحديداً، رميتُ كل شيء خلفي (الخوف، الكراهية، البغض الذي أكنه لوالدي ورغبتي في الانتقام منه، العنف الذي كنتُ أتعرض له)، نسيتُ كل شيء فبالنسبة إلي، كل هذا أصبح من الماضي لقد انتهى الفصل السيئ من الرواية وحان الوقت لكي أبدأ فصلاً جديداً، خالياً من كُل الأشياء التي من شأنها أن تُفسدَ حياتي الجديدة، لقد كانت بداية رائعة فعلاً في أول الأمر لكنها سرعان ما فسدَت، في اللحظة التي جاء فيها عمي ليبلغني بأن أبي على شفير الموت.. وأنه هنا ليصحبني معه إلى المنزل، حيث تقبع كل ذكرياتي السيئة.

-والآن، ألن تذهب معي يا ابن أخي؟

-لم أستطع أن أجبه بشيء، فقد كنتُ مصدوماً وفي نفس الوقت غاضباً من عمي لأنه نقض العهد.

-عندما لاحظ صمتي.. أعطى لنفسه فرصة الكلام.

-فقال مرتجياً: يا ابن أخي، أعرف أنكَ غاضب مني لأنكَ تعتقد أنني لم أفِ بالوعدِ الذي قطعته وأعرف أيضاً أنكَ لا تريد العودة إلى ذلك المنزل ولا تريد أن ترى والدك لكن والدك على شفا الموت ولا نعرفُ في أي لحظةٍ سيفارقُ الحياة، ألا يمكنكَ أن تنسى ما حصل، فقط لبعض الوقت؟

-أنتَ تتحدثُ عن الأمر وكأنه شيء يمكن نسيانه! صحتُ وعلامات الدهشة على وجهي: أنسيتَ أي نوع من الأشخاص كان "والدي العزيز"؟ قدرتكَ على المغفرة لهي أمر عجيب يا عماه!

-لم أنسَ شيئاً، وأعرف تماماً -أكثر من أي شخص آخر- كيف كان يعاملك ووالدتك.

-صمتَ لبرهةٍ قبل أن يكملَ:

-أنا لا أطلب منكَ أن تنسى إن ما أطلبه منك، هو أن تصفحَ وتغفر لوالدك فهو لم يعد ذلك الشخص الذي ودعته لقد تغير، وخصوصاً بعد أن انفصلَ عن سمية زوجته الثانية، التي كانت السبب في كُل ما حصل معكما أنتَ ووالدتك.

-يا له من نبأ رائع حقاً! والدي انفصل عن زوجته الثانية وأدرك فداحة خطأه بعد فوات الأوان! إنه لأمرٌ رائع ويستحق أن أحتفي به

-غيث! يكفي، لقد تحملتك بما فيه الكفاية.

-لا تقل شيئاً، لا تحدثني عنه لا أريد أن أسمع عنه شيئاً لقد طلبتُ منكَ أن تنساني، لقد وعدتني أنكَ لن تعود ثانيةً.. لكنك **كذبتَ** عليَّ لا ألومكَ، أتعرف لماذا؟ لأنني أعرف جيداً مَن تكون، أنتَ عمي العزيز شقيق والدي كم كنتُ غبياً عندما اعتقدتُ أنكَ مختلف عنه!

-كفى!

-لم أشعر بعد ذلك بشيء، إذ جائتني الصفعة على نحو مباغتٍ فصُدمتُ وبقيتُ جامداً لبرهة، عاجزاً وغير مصدق لما جرى.

-لو كنتُ مخطئاً بحقكَ لاعتذرتُ لكنكَ تستحقها، يا ابن أخي المحترم!

-لا زلتُ عاجزاً عن تصديق ما حصل للتو لدرجةِ أنني حدقتُ في وجه مارفل لعدة ثوانٍ، كانت كافية لأن تفهم من خلالها خيبة أملي وصدمتي لتخرج بعد ذلك حاجبة وجهها خلف يديها كطفلةٍ صغيرة تغمض عينيها لئلا ترى مشهداً مخيفاً لكن والديها اللذان كانا يجلسان ويشاهدان ما يحصل لم يبرحا مكانهما وكأنَّ الموقف جمد أطرافهما هما أيضاً.

-شيئاً فشيئاً، استعدتُ وعيي وأدركتُ ما حصل معي تواً.. فالتفتُ ناحية عمي ورمقته بنظرةٍ مليئة بالعتب.. فتقدم هو الآخر ناحيتي وطوقني بذراعيه كعلامةٍ على الاعتذار.

-اسمع، يا ابن أخي أنتَ تعرف جيداً كم أحبك، لا يهمني إن كنتَ غاضباً مني أم لا لأنني أعرف جيداً أنكَ ستهدأ فيما بعد، وستتفهم الموقف كل ما أريده منكَ الآن هو أن تضع ماضيكَ جانباً، حاول أن تتصرّف وكأنَّ شيئاً لم يكُن، ألستَ مَن يؤمن **بوجود الفرص الجديدة؟** إذاً، امنح والدك فرصة جديدة لن تندم أبداً، صدقني

رمقته بنظرةٍ تنم عن مدى عجزي ويأسي فردَّ النظرة بنظرةٍ أخرى مفادها أن **"لا تعاند يا ابن أخي، فالموت على وشك أن يسلب والدكَ روحه امنحه على الأقل، فرصةً لكي يعتذر منكَ عما فعله بك في ما مضى، استمع إليه، للمرةِ الأخيرة.. وبعدها افعل ما يحلو لكَ"**.

التفتُ ناحية "الرجل الطيب" ورمقته بنظرةٍ متسائلة "هل يجبُ أن أذهب حقاً"؟

فهز رأسه بالإيجاب.

-إذاً لا مناص من تلك الزيارة مهما حاولتُ أن أتملص منها ومهما قدمتُ الحجج والبراهين التي من شأنها أن تدعم موقفي فلن أستفيد شيئاً، وذلك لأن الحاضر يفرض نفسهُ بعنفوانٍ والذي هو أنَّ أبي قد تغير وأصبح ذلك الشخص الذي كنا نتمنى والدتي وأنا أن يكون عليه في ما مضى.

-حسناً، سأذهبُ لأراه وافقتُ على مضض، شريطة أن ترافقني.

-لكَ ما تريدُ يا غيث! قال والابتسامةُ ترتسم على شفتيه.

-بعد ساعةٍ من ذلك.

-أرى المنزل بوضوحٍ، فقد أضحى على مرمى حجرٍ منا، وفق ما لاحظتُ من بعيد فإن المنزل لم يتغير إلا قليلاً وذلك بفعل الزمن الذي مرَّ عليه.. فجعله يبدو قديماً مقارنة بالمنازل الجديدة التي بُنيت حديثاً، إذ ظل المنزل على الرغم من انقضاء كل هذه السنوات كما كان عندما تركته.. لم يتغير فيه شيء، سوى أنه أضحى وحيداً بعد أن رحل مَن كانوا يسكنوه -أمي، أنا، وأبي- إذ كلما مرَّ أحد من أمامه، يتأمل ذلك المنزل ذو الملامح الكئيبة فتنتابه القشعريرة ويعود على أعقابه فالجميع، يخافون من أن يأتي ذلك اليوم الذي سيصبحون فيه وحيدون، لذلك تراهم يحيطون أنفسهم بأكبر عدد من الأصدقاء والمعارف في محاولة منهم لأن يتحدوا الحقيقة المطلقة قائلين في أنفسهم "لدي عائلتي والكثير من الأصدقاء، إذاً أنا لستُ وحيداً " غير أنَّ اعتقادهم ما يلبث أن يتلاشى فلا أحد بإمكانه أن يتحدى الحقيقة التي تقول "كُل مَن حولك سيرحل ولن يبقى لديكَ أحد، لن يبقى لك سوى الذكرى، فاحرص على أن تكون ذكرياتكَ مع مَن حولكَ طيبة..

لأنكَ لا تعرف، في أي لحظة قد يدرككَ الموت أنتَ أيضاً، هذه هي الحقيقة مع الأسف التي لا تريد أن تصدقها **كل من حولك راحل، حتى إن ظننتَ بأنكَ لن تفقدهم وأنهم، في هذه اللحظة، يتحدثون معكَ وتتبادلون الضحكات، كل هذا سيتلاشى، إن لم يحصل ذلك اليوم فربما يحصل غداً أو بعد غد والأشخاص الذين يحيطون بكَ الآن، لن يلبثوا أن يرحلوا، مهما تأخر موعد الرحيل فإنه آتٍ لا محالة!"**

-لا أدري ما الذي حصل معي في تلك الأثناء، إذ كلما اقتربتُ من المنزل ضاق نفسي وارتعشَت أطرافي واستبد بي شعورٌ غريب لم أستطع أن أحدد كنهه مزيج من الرعب والتقزز فقد انهالَت عليَّ ذكريات ظننتُ أني نسيتها ورأيتُ طيف أمي الذي كان يحوم حول المنزل، لكي يؤنس وحشته..

-تناهى إليَّ أنها تلوحُ لي بيدها وعلى وجهها الابتسامة التي أحبها، كانَت تنتظرني أمام باب المنزل كما اعتادت أن تفعل دوماً، فعند عودتي من المدرسة في كل مرة كنتُ أجدها، بقوامها الرشيق وابتسامتها الطفولية تنتظرني لتكون أول مَن يستقبلني عند العودة وكما اعتدتُ أن أفعل، كنتُ أركض بأقصى سرعة خوفاً من أن يسبقني شخص ما لأرتمي في أحضانها.

كُل هذا أصبح من الماضي، أما الآن يجبُ عليَّ أن أتقبل الوقائع وأكمل طريقي وفقاً لِما يتماشى مع

الحاضر (والدي على وشكِ أن يغادر هذا العالم، وأنا هنا بغية مقابلته للمرةِ الأخيرة قبل أن يتوارى خلف سماء الأبدية) أما بالنسبة لأمي، فلم يستطع الموت أن يسلبها مني إذ بقيتْ طيلة هذه الأعوام ترافقني في مختلف مراحلي العمرية على الرغم من موتها فقد ظل طيفها يحوم حولي وظللتُ أسمع نبرتها الحانية التي كانت ترشدني وتهدئ من روعي، أحسُ بأناملها الناعمة وهي تداعبُ شعري.

انظري يا أمي، هأنذا ذاهب لرؤيته الرجل الذي عذبكِ، كان السبب في موتكِ، لوكان الأمر بيدي لَمَا أتيتُ إلى هنا لكن للضرورة أحكام، واستناداً على تلك الحجة جئتُ لرؤية "الرجل المتوحش".

عندما أصبحتُ أمام المنزل، سرَت في جسدي رعشة عنيفة، جف حلقي وتسارعَت نبضات قلبي بقيتُ جامداً في مكاني عاجزاً عن اتخاذ القرار المناسب، فقد كنتُ مشتتَ الفكر تستبد بي مشاعراً متضاربة لقد كنتُ ضائعاً ما بين الغضب والمغفرة.

عندما لاحظ عمي ترددي.. سأل بشيء من القلق: هل كل شيء على ما يرام يا ابن أخي؟

-دعني أذهب أرجوك يا عماه، ارتجيتهُ للمرة الأخيرة.

-لقد فات أوان التراجع يا غيث هيا يا عزيزي، تشجع قليلاً، فالأمر ليس بهذه الصعوبة.

-حسناً.. وافقتُ على مضضٍ.

دخلتُ إلى المنزل بخطواتٍ شبه مترددة، وكمَن يستكشف المكان لأولِ مرة ألقيتُ نظرة خاطفة على المنزل، لم يتغير شيء منذ رحيل والدتي الأثاث ذاته والديكور ذاته وحتى حوض النباتات الذي كانَت أمي مولعة بالاعتناء به بقي كما هو وكأنَّ والدي لم يجرؤ على تغييرِ شيء فيه خوفاً من أن يسبب الحزن للمنزل الذي أضحى وحيداً فأبقى كل شيء على حاله كأنما يعزي بفعلته المنزل الكئيب.

سارت دمعة ساخنة على خدي، لمعرفتي أنَّ ذكرى والدتي لا زالتْ تحوم في أرجاء المنزل فربَتَ عمي على كتفي، كمحاولةٍ منه في تعزيتي وهمَّ بأن ينطق لكن شيئاً ما منعه، إذ ربما أدركَ أنَّ كلامه لن يفيد بشيء والدليل على ذلك هو مقولة للشاعر إيليا أبو ماضي.. والتي تقول:

" كُل ما في الأرض مِن فلسفةٍ، لا يُعزي فاقداً عمّن فقدَ".

ولكي يخفف من وطأة الموقف قال لي: على الأقل، لديكَ فرصة لأن ترى والدكَ للمرة الأخيرة، قبل أن يرحل.

-ماذا تقصد؟ قطبت حاجبي.

-أنتَ تعرف ما أقصده جيداً..

رجعتُ بالزمن تسع سنواتٍ إلى الوراء إلى اليوم الذي طُرد فيه عمي جاد من المنزل لأنه رفض الرضوخ لرغبة جدي الذي طلبَ منه أن يتزوجَ ابنة عمّهِ، فرفض الطلب رفضاً قاطعاً، قائلاً أنه لا يريد الزواج ولو فكرَ في ذلك، فلن تكون ابنة عمه "الزوجة التي يرغب بها " وبعد ساعة من الجدال طُردَ عمي من المنزل لأنه "ولد عاق" لا داعي لوجوده في المنزل، وبعد مرور سنوات على تلك الحادثة عاد المنزل ليكتشف أنَّ والده رحل، دون أن يمتلك فرصة ليصحح خطأه، ودون أن يودعه.

لا زلتُ أتذكر تلك اللحظات جيداً، عندما دخلتُ إلى الغرفة التي يقبع فيها والدي، واللحظة التي التقَت فيها نظراتنا بعد مرور خمس عشرة سنة على فراقنا.. وجدتُ الرجل الصلب ولأول مرة في حياتي يبكي عند رؤيتي!

-تعال يا ولدي هلُمَ إلى أحضاني.

بقيتُ جامداً في مكاني لبرهةٍ مذهولاً لرؤيتي "الشخص الذي أصبح عليه والدي" فقد رأيتُ شخصاً آخر، مختلف تماماً عن ذلك الذي تركته في الماضي شخص طاعن في السن، ذو سحنةٍ شاحبةٍ وجسدٍ هزيلٍ.. لقد تغير بشكلٍ جذري، ولم يعُد سوى كومةٍ من العظام الهشة، القابلة للكسر بسهولةٍ.

إنــه شــيء غريــب، ذلــك الــذي يحــدث معــي إذ شــعرتُ بمــزيجٍ مــن الإشــفاقِ والحــزن لدرجــةِ أنــي شــككتُ فــي نفسي إذ حدثني الشيطان قائلاً:

"ما بكَ يـا غيـث؟ مـا الـذي يحدث لـكَ؟ هل نسيتَ مـا فعلـه بكَ بهذه السهولة؟"

لكننـي لـم أصـغِ للوسـاوس فقـد كنـتُ بحاجـةٍ إليـه، بحاجـةٍ لأن أتـذوق -وللمـرة الأولـى- لـذة العطـف الأبـوي الـذي حُرمـتُ مِنـه، طيلـة هـذه السـنوات شـيء واحـد فقـط يبعـث علـى الحـزن، وهـو أنَّ والـدي أدركَ حـاجتي لـه بعـد فـوات الأوان.

" لا يهــم، فالماضــي قــد انقضــى مــا يهــمُ حقــاً هــو الحاضــر فــنحن أبنــاء اللحظــة، وحاضــرنا هــو المحفــز الأول الــذي يحثنــا علــى التقــدم وتحقيــق المزيــد مــن الإنجـازات، أمـا الماضـي فهـو المسـبب الأساسـي للركـود والقنوط".

-أبي، لقد اشتقتُ إليكَ! صحتُ وعينيَّ ممتلئة بالدموع.

هرعــتُ إلــى حضــنه كطفــلٍ اشــتاق لمعانقــةِ أبيــه بعــد عودتــه إلــى المنــزل لــيلاً ولكــي تترســخ ذكــرى أبــي فــي دمــاغي.. صــرتُ أتشــربُ تفاصــيله بعنفــوان، إذ أغرقــتُ رأســي فــي صــدره وســمحتُ لأنفاســه الدافئــة أن تخــالط أنفاســي ثــم أطلقــتُ العنــان لحاســتي الشــم والبصــر إذ

أمضيتُ ساعة كاملة ما بين التحديق في وجهه واستنشاق عبقه الاستثنائي.

لا تقلق يا غيث، ما تفعله لا يعتبرُ جنوناً وإنما تصرفاً طبيعياً، بالنسبة إلى طفل عاش كل حياته على أمل أن يحصلَ على الحنان الأبوي أن يكونَ طفلاً كباقي الأطفال ومع أن الأمنية تحققت في وقت متأخر بعض الشيء إلا أنكَ تمكنتَ أخيراً من نطقِ تلك الكلمة، التي عجزتَ عن نطقها فيما مضى، لأنها كانَت -بالنسبة إليكَ- مرتبطة بكُل ما هو مثير للاشمئزاز (العنف، الكره، الخوف...) أما الآن، فقد تغير كُل شيء وأصبحتَ قادراً على أن تقول للرجل الذي أمامك "أبي"! لذا احرص على قولها مرات عديدة، اروِ تعطشكَ، اشرب أكبر قدرٍ ممكن من تلك العاطفة.

-لا أصدق أنكَ هنا، يا ولدي، قال وهو يقبلُ جبيني: أشكركَ على صنيعكَ هذا، فقد منحتني فرصة التكفير عن ذنبي.

-أبي، أرجوك لا داعي.

لكنه قاطعني قائلاً: استمع إليَّ يا ولدي ولا تقاطعني.

-حسناً، هأنذا أستمع إليكَ.

استأنف حديثه بنبرةٍ متعبة: بعد وفاةِ والدتكَ واختفائكَ بعدةِ أسابيع، اكتشفتُ أنَّ زوجتي الثانية كانَت مجرد لصة

استوقفته قائلاً: ماذا تقصد؟

-لقد تزوجتني طمعاً بالمال، والأفظع من هذا أنها كانَت السبب في معاملتي السيئة معكَ ومع والدك إذ كانت تريد أن أنساكما نهائياً ولم تكُن لتمانع لو أنكما ميتان.

-يا لها من زوجةٍ رائعة! قلتُ ساخراً.

-ذات ليلة، قررتُ مراقبتها وحصلتُ على ما كنتُ أتوقعه.

-ما الذي اكتشفته؟ ألححتُ عليه.

-لقد حاولَت أن تحصل على بصمتي لكي يصير هذا البيتُ ملكاً لها بعد وفاة والدتكَ، ولأنها خافت من احتمالية رفضي فقد قامَت بما رأته مناسباً لكنها لم تستطع نيل مرادها، فقد تمكنتُ -في اللحظة الأخيرة- من إحباط خطتها العبقرية..

-ماذا فعلتَ؟

-لم أفعل شيئاً طلقتها وحسب، لقد كان هذا عقاباً قاسياً بما فيه الكفاية.

-وبعد؟

-بعد ذلك قررتُ أن أبحث عنك لأرجعكَ إلى المنزل، لكنَّ عمكَ كان وفياً بما يكفي لأن لا يحنث العهد الذي قطعه عليكَ وظل حريصاً على كتم السر إلى أن أصبحتُ قريباً من الموت.

التفتُ ناحية عمي ورمقته بنظرةِ عتاب فهزَ كتفيه وقال بمرحٍ: لا تنظر إليّ هكذا يا ابن أخي، فأنتَ مَن طلبَ مني أن أنقذه من "الرجل المتوحش".

ضحك والدي على الوصف الذي سمعه فقلتُ محاولاً تداركَ الموقف: كان هذا قبل أن أعرف ما حصل أما الآن فاللوم الأكبر يقع على عاتقك لأنكَ كنتَ تعرف أنّ والدي قد تغير ومع ذلك لم تحركْ ساكناً!

-وما أدراني؟ كيف لي أن أعرف أنكَ ستعود لمنزلك ما إن تعرف ما حصل؟

-ومع ذلك، كان عليكَ أن تتكبد عناء المحاولة، قلتُ معاتباً إياه.

قاطعنا والدي الذي بدا منهكاً للغاية، قائلاً: دعكَ مما جرى سابقاً، المهم هو ما يجري الآن، وما سيتبعه من نتائجٍ

التمستُ في نبرته خطراً وشيكاً فابتلعتُ ريقي واستجمعتُ قواي لئلا أنهار بعد سماعي لما سيقوله.

-الشيء الذي يجبُ أن تعرفه هو أنني قد أرحل في أي لحظة، فقد تمكنَ السرطان مني وهو الآن في مرحلته الأخيرة لذلك قررتُ أن أخبركَ بالمكانِ الذي دفنتُ فيه والدتكَ فربما رغبتَ في زيارتها لاحقاً.

ما إن سمعتُ اسم أمي، حتى انتفضتُ وارتعش جسدي بأكمله، سيصبح لدى معرفتي بأنني سأتمكن أخيراً من زيارة قبر والدتي.

-هل تتذكر المكان الذي كنا نذهبُ إليه عندما كنتُ أعلمكَ كيفية العزف على العود؟

-ذلكَ المكان القصي حيث كنا نمضي ساعات طويلة في تعلمِ العزف، بعيداً عن الناس والصخب؟

-بالضـــبط، لقد دفنتها هناك حيث كنا نجلس دوماً لكي لا تشعر بأنها وحيدة.

تدحرجتْ على خدي دمعة ساخنة، فقد عرفتُ للتو حقيقة كنتُ غافلاً عنها: فقد كان والدي **يحبُ** والدتي لدرجةِ أنه خاف عليها من أن تظل وحيدة.

-ألن تذهب معي، يا والدي؟

أنا ذاهبٌ بالفعل فقد اشـتقتُ إليها، سـأذهب إليها لأعوضـها عن كُل ما حدث، قال وهو يتنهد.

-لا تقُل ذلك أرجوك، لا أريد أن أخسرك أنتَ أيضاً، صحتُ بانفعال.

-هذه هي الحقيقة مع الأسف لذلك عندما أموت أرجو منكَ أن تدفنني بالقرب منها، واحرص على زيارتنا بشـــكل دائم هل فهمتَ يا ولد؟

-كفى لا أريد سماع المزيد!

بكيتُ بحرقةٍ، لدى معرفتي بأنَّ الموت سيسلب مني آخر أمل لي الشـــخص الوحيد الذي بقي لي بعد وفاة أمي، ها هو اليوم يودعني للمرةِ الأخيرة قبل أن يرحل إلى ما وراء الأفق..

-ولكن لِمَ أحضرتني إلى هنا إن كنتَ ستتركني وترحل؟

-لأنني لا أريد أن أموت وأنا أعرف أنَّ ولدي ناقمٌ عليَّ.

-ليتكَ لم تعُد، صرختُ بعصبية والدموع تنهمر بغزارةٍ.

بعد ذلك بأسبوعٍ

رحل والدي بعد مضي سبعة أيام على تلك الحادثة دون أن يعطيني فرصة لأن أقضي معه وقتاً أطول، لقد أنهى روايته وصولاً إلى الفصل الأخير المعروف لدى كُل الناس **"الموت"**.

حضر العزاء كُلاً من مارفل ووالدها، باستثناء والدتها التي كانَت تكرهني، إضافة إلى عدد من الأصدقاء والمعارف الذين كانوا على صلةٍ بوالدي وكما وصَّاني قبل وفاته فقد دفنته بمساعدة عمي جاد، بالقرب مِن والدتي، ولولا إلحاح عمي لبقيتُ هناكَ يوماً كاملاً **على مقربة من أمي وأبي**، نثرثر حتى مطلع الفجر وأحكي لهما ما يؤرق فكري ثم أعاتبهما لأنهما تخليا عني وتركاني وحدي.

الشخص الوحيد الذي نجح في التخفيف مِن ألمي كان **مارفل**، فقد ظلَت طيلة تلك الفترة بقربي تعتني بي كما

تعتني الأم بطفلها، وخصوصاً عندما أصبتُ بنزلةِ البرد، إذ بقيت يقظة طوال الليل، لكي تتأكد من أنَّ حرارتي لم ترتفع، وبينما تقوم بتبديل الكمادات قلتُ لها: كم أنتِ جميلة يا مارفل.

-وماذا أيضاً؟ قالت وهي تبتسم.

-أحبكِ.

لا شكَ انكَ تهلوس، كعادتكَ عندما تصاب بنزلةِ البرد، قالت وهي تضحك.

لكنني لم أكن أهلوس هذه المرة كنتُ أقول الحقيقة، أنا أحبكِ يا مارفل!

بعد ان استعدتُ حيويتي، قررتُ أن أقومَ بالخطوة التي لطالما فكرتُ فيها أثناء فترة مرضي، "ماذا لو تمكنتُ مِن الفوز بقلبها؟ عندئذٍ سأكون بلا شكٍ شخصاً محظوظاً للغاية".

فاشتريتُ خاتماً وحفرتُ عليه الأحرف الأولى من اسمينا، إضافة إلى مقطعٍ من أغنيةٍ لفيروز كانَت تسمعها على الدوام " **أنا لحبيبي وحبيبي إلي** " وذهبتُ لكي أعترفَ لها بحُبي أمام الجميع في الجامعة.

انتظرتُ، وما أثقل الانتظار إلى ينتهي الدوام ويخرج الجميع لأتمكن من تنفيذ السيناريو الذي رسمته في مخيلتي ثم قد خرج الجميع، ومعهم مارفل، أتت لتسألني إن كان هناك خطب ما، بعدما لاحظتْ أنني مرتبكٌ بعض الشيء.

-بصراحة، توقفتُ لبرهةٍ قبل أن أكمل، أريد أن أقول لكِ شيئاً.

-ما الذي يجري؟ هيا أرجوكَ تحدث.
أخرجتُ العلبة التي بداخلها الخاتم من جيب معطفي ثم جثوتُ على ركبَتَي بحركةٍ شبه آليةٍ.

-هل تقبلين أن تكوني زوجةً لي، يا حبيبتي؟
ظلتْ صامتةً لعدةِ دقائق؛ ظننتُ أنها كانَت نتيجة للصدمة التي تعرضتْ لها تواً، اعتقدتُ من خلالها أنها ستوافق على طلبي، فكما يُقال "السكوت علامة الرضا" لكن بدلاً من ذلك، سخرت مِني أمام الملأ، بتعليقها الساخر الذي خدش كبريائي وحطم قلبي:

-هل أنتَ مريض يا غيث؟ هل لا زلت محموماً؟ بقيتُ جامداً في مكاني مدهوشاً بردةِ فعلها التي لم أكن لأتوقعها فقد جعلتني أبدو كالأبله الذي يتفوه بجملٍ لا يعي معناها تحت تأثير المرض والأسوأ من هذا، أنني تحولتُ إلى أضحوكةٍ للزملاء!
فغلى الدمُ في عروقي واستشطتُ غضباً: إلى ما ترمين يا مارفل؟ أتقصدين أنني شخص مجنون؟

-بالضبط! لقد فقدتَ عقلكَ يا غيث.

-أنا أحبكِ يا مارفل، أحبكِ!

-غيث أرجوك، حاول أن تفهمني أنا وأنتَ أصدقاء، أنتَ أخي يا غيث.

-لستُ أخاكِ، ألا تفهمين؟ أنا مجرد فتى مُشرد وجدني والدكِ في الشارع فحنَّ عليَّ وقرر أن يجعلَ مني دمية إضافية، تتسلين بها إن شعرتِ بالملل!

-لا تتحدث عن أبي بهذه الطريقة، رفعَت سبابتها في وجهي: هل فهمتَ؟

-ما الذي..
توقفتُ عند هذا الحد، فقد جاءتني الصفعة على نحو مباغت، لدرجة أنني لم أفهم ما حصل، إلا بعد عدة ثوانٍ؛ أي: عندما رأيت الصدمة التي اعتلت وجوه الزملاء فالتفتُ ناحية مارفل، التي كانت قد بدأت بالبكاء.
وقبل أن أتوارى عن الأنظار، قلتُ لها بنبرةٍ معاتبة ممزوجة بالألمِ: شكراً لكِ على المسرحية الرائعة، يا صديقتي.
ألا يكفي ما حصلَ، لأدركَ أي نوعٍ من الأشخاص تكون؟ على ما يبدو أنني لم أتعلم درساً في المرة

الأولى، فقررتْ الحياة أن تصفعني مرة أخرى علَّني أستيقظُ من غفلتي وأصبح أكثر عقلانية، فإذا لم تتعلم منذ الصفعة الأولى ستحتاج حتماً للصفعة الثانية، فالحياة حلقة لا نهائية من الدروس والعِبر التي نحتاجُ إليها كحاجتنا الأوكسجين فهي تساعدنا دون أن نعي ذلك في اكتساب الخبرة، التي سنستفيد منها إذا ما مررنا بموقفٍ مشابه حيث سنتمكن من توظيف معرفتنا

السابقة في خدمة المواقف التي نمر بها في الوقت الحاضر.

وبما أنني لم أستشف العبرة منذ الوهلة الأولى، تلقيتُ الصفعة الثانية دون هوادة.. والحقُ يُقال، لقد كانَت صفعةً عنيفة، هزَّت كياني وحطمَت كبريائي، إنه لأمرٌ صعب أن ترى المرأة التي لطالما أحببتها بصحبةِ رجلٍ آخر، والأسوأ من هذا أنْ يكونَ هذا الرَّجل هو صديقكَ!

"كُل مَن عرفتهم، اتفقوا على تحطيمي، بأكثر الطرق فظاعةً وقسوة".

لا مكان لكَ هنا، اهرب يا غيث، فالمساحة لا تتسع إلا لشخصين.. "يعقوب ومارفل" هما بطلي المشهد.. أما أنا، فلَم أكُن موجوداً طوال حياتي، كنتُ شخصاً غير مرئي، **أنا لا شيء**، لستُ سوى شخصٍ مثير للشفقة، طفلٌ هربَ من الجحيم الذي يقطنُ فيه، بغية الحصول على حياة جديدة، خاليةً من عفاريت الماضي، ليكللشفق فيما بعد أنَّ عفاريت ماضيه لا زالَت تطارده..

الفصل الثالث عشر

يعقوب:

"لا أخلــو منــكَ أبــداً، ولا للحظــة، ولا لبرهــة، ولا لثانيــةٍ واحدة".

_فرجينيا وولف.

بعد شهرين:

-أفتقدكِ يا حبي!

-وأنا أيضاً! اشتقتُ إليكَ ولمقلتيكَ الجميلتين.

-أتعرفين شيئاً؟ أنا أتضور جوعاً، أفلا تشفقين عليَّ؟

-وكيف ذلك "أشفقُ عليكَ "؟ لم أفهم يا صاحب الألغاز.

-أريــدُ أن ألقــاكِ يــا مارفــل، فقــد اشــتقتُ لعينيــكِ، اشــتقتُ لحبتَي الكيوي الشهيتين.

-يــا لــكَ مِــن رجــل رومانســي يــا حبيبــي، حســناً إذاً، ســنلتقي غــداً فــي ذلــك المكــان حيــث التقينــا أول مــرة وســأدعوكَ علــى ألــذ كــوبٍ مــن الشــوكولاتة الســاخنة هــل رأيتَ كم أنَّ محبوبتكَ حنونة؟

-هذه حقيقة، لا أحتاجُ إلى أن تذكريني بها يا مارفل.

أتعرفــون تلــك المحادثــة التــي ترســمُ علــى وجــوهكم ابتســامةً بلهــاء، وتجعلكــم تتمنــون لــو أنهــا تســتمر لوقــتٍ أطول؟

هذا ما حصل معي تواً، فقد تحولتُ إلى شخصٍ نصف مجنون، يبتسمُ للحروف المكتوبة ويعانقها بحُبٍ، لمعرفته أن مَن كتبها، هو شخصه المفضل، لقد رجعتُ في تلكَ اللحظة عشرين عامًا إلى الوراء، إذ أضحيتُ ذلك الطفل الصغير البالغ من العمر خمسَ سنوات، الذي كان يتطاير فرحاً، عندما يعرفُ أنَّ والده أحضرَ له لعبته المفضلة.

الحُب سيف ذو حدين، إذ يجعلكَ تشعرُ في لحظات معينة أنكَ عدتَ طفلاً صغيراً، ويجعلكَ في أحيان أخرى شخصاً طاعناً في السن، يرجع الأمر إلى نوعية الشخص الذي تختارونه، فهناكَ أشخاص تكون الحياة برفقتهم هناءً وهناك أشخاص إن رافقتهم يجعلون حياتكَ مريرة.

ولكي لا أضيّعَ مزيداً من الوقتِ، قررتُ أن أتصلَ بها.

- أريدُ أن أُسمعَكِ شيئاً قلتُ لها بنبرةٍ مليئة بالحُب.
- كلي آذان صاغية، يا حبيبي، أجابَت برقَةٍ.

شغلتُ أغنيةً لعبدِ الرحمن محمد **"شبيهكِ "** ورفعتُ مِن صوتِ المسجل قليلاً.

خلقتِ من الإشراق والنور والبهاء،
وصورة في عقلي فجَلَّ المُصورُ.

على الرغمِ من أنني لم أكن معها في تلك اللحظة، فقد استطعتُ أن أراها وهي تبتسمُ وقد احمرَّت وجنتاها ولمعَت عيناها ببريقٍ متلألئ كقطعة زمردٍ خالصة.

- أنا مجنونة بكَ، قالتْ بعينين لامعتين.
- وأنا أيضاً، يا ملاكي!

في صباح اليوم التالي، وبعدَ أن جهزتُ نفسي للموعد المرتقب. جاءتني رسالة غريبة من "ورد" زميلي المعروف بحُبه للنميمة ومعرفة كل شيء عن زملائه في القاعة، بهدف السخرية منهم، كان محتوى الرسالة غريب لدرجةِ أنني أعدتُ قراءتها أكثر من مرة لأتأكد أن ما أقرأه قابل للتصديق.

-هل يمكننا أن نلتقي بعد ساعةٍ؟ لدي شيء أقوله لك إذا وافقتَ على المجيء، فسأنتظركَ في المقهى الذي تلتقيان به أنتَ ومارفل.

ما هذا الذي أراه؟ كيف يعرفُ ورد أننا نلتقي في ذلك المقهى؟ و لِمَ اختاره و لم يختر غيره؟ ما الذي يقصده وماذا يريد مني؟ ما هو الشيء الذي لا أعرفه لكي يخبرني به؟

تشوشَت أفكاري وأصبحتُ عاجزاً عن فعل شيء فقد سيطر عليَّ هاجس القلق وتزاحمَت الأفكار في رأسي لدرجةِ أنني فقدتُ القدرةَ على التركيز ولكي أستعيد بعضاً مِن رباطةِ جأشي، حاولتُ تجاهل الرسالة

وقررتُ أن أذهب إلى المقهى حيث كانَت مارفل بانتظاري.

-لِمَ تأخرتَ يا يعقوب؟ لقد أقلقتني عليكَ، سألت بقلقٍ.

وعندما لم تسمع مني جواباً، سألتني: هل كل شيء على ما يرام؟

بعد لحظات من الصمتِ، استطاعت الحروف أن تجد طريقها إلى فمي، فقلتُ لها بنبرةٍ يشوبها القلق: بصراحةٍ، أنا متوترٌ قليلاً.

-ولمَا، هل هناك ما يشغل بالك أو يزعجكَ؟

فتحتُ الهاتف على تطبيق الرسائل ثم وضعتُه نُصبَ عينيها.

- انظري.

تناولتْ الهاتف من يدي وقامَت بقراءة الرسالة.

من خلال ردة فعلها، عرفتُ أنَّ الرسالة أقلقتها هي الأخرى، إذ ظلت لعدة ثوانٍ، مصدومة وعاجزة عن النطق، سألتها عمّ إذا كانَت تعرفُ شيئاً.. فأجابَت بالنفي و قالَت بعد أن ابتلعت ريقها:

- أنا مثلك، لا أعرف شيئاً، على ما يبدو، أنه يريدُ أن يستمتع بإثارة قلقك.
- لا أظن ذلك..

وعندما لاحظتُ قلقها، سألتها متشككاً: قولي الحقيقة يا مارفل، أحقاً لا تعرفين شيئاً عن الموضوع؟

-قلتُ لكَ لا أعرف، لا أعرف شيئاً يا يعقوب! صاحَت بانفعال ثم حجبَت وجهها خلف يديها لئلا أرى دموعها.

فقمتُ من مكاني وذهبتُ لأهدئها، مسحتُ على شعرها وقلتُ بحنان.

-آسف يا مارفل، لم أقصد أن أجرحكِ.

-لقد جُرحتُ بالفعل، قالت بنبرة مخنوقة: كيف يخطر لكَ أن تشكَ فيَّ يا يعقوب؟!

-أنا آسف جداً أردتُ فقط أن...

-لا داعي لأن تكمل حديثكَ، قاطعتني: لم يعد لدي متسع من الوقت، يجبُ أن أذهب.

همَّت بالانصراف.. دون أن تسمح لي بأن أقدمَ مبرراتي، كان الهروب هو طريقتها في التعبير عن الغضب، لذلك حاولتُ أثناء لقاءاتنا ألا أغضبها، تجنباً لردةِ فعلها المعروفة وهي الاضمحلال بهدوء تام، دون افتعال المشاكل أو خوض أحاديث لا فائدة منها سوى أنها تزيد الطين بلّةً.

بقيتُ جالساً في مكاني، ولم أحاول اللحاق بها لأني إن فعلتُ ذلك سأزيد غضبها ولن أحصل سوى على الصد، صحيح أنَّ المرأة كائن سريع الغضب، إلا أنها

رقيقة وحساسة، تستطيعُ أن تغفر لكَ خطيئتك مهما كانَت اعتماداً على تصرفاتكَ تجاهها، فإن كنتَ ليناً وحنوناً ستغدق عليك حناناً وليناً مضاعفين، وإن كنتَ عنيداً وجلف الطباع فلن تكسب شيئاً من رقتها، وخصوصاً إن كانَت امرأة عنيدة ومكابرة، إذ لتتعجبُ من قدرتها على تخطيكَ، عندما تكتشفُ أنكَ لا تستحقها.

ما إن ابتعدَت، حتى اتصلتُ بوردٍ لأخبرهُ بأني أنتظره في المقهى، فوعدني أنه سيأتي بمجردِ أن يقضي بعض الحاجيات.

- كم ستستغرقُ وقتاً حتى تُنهي ما بين يديكَ؟ سألتُه بعصبيةٍ.
- اهدأ يا صديقي، لن أتأخر.. أمهلني نصف ساعةٍ فقط، وسألحق بكَ بمجرد أن أنتهي مما بين يدي.
- حسناً، معكَ نصف ساعةٍ فقط، تنهدتُ بعمقٍ، علامة على يأسي، فأنهيتُ المكالمة وطلبتُ فنجاناً من القهوة.

مارفل:

ذلك النّمام! ما الذي ينوي فعله؟ و لِمَ اختار المقهى الذي نلتقي فيه أنا ويعقوب؟

عليَّ أن أمنعه من الذهاب إلى هناك، أياً كان ما ينوي فعله فأنا متأكدة من أنه سيعود عليَّ بنتائج سلبية وخصوصاً وهذا احتمال وارد لو أخبره بماضيَّ مع غيث، ربما يمكنني أن أتركه يفعلُ ما يشاء لولا معرفتي بأنه شخص مخادع وكاذب.. فهو لن يجدَ حرجاً، في إضافة تتمة للقصة من وحي خياله لكي يستفز يعقوب ويثير غضبه.

ركبتُ في أول سيارة تاكسي صادفتها في طريقي، أعطيت العنوان للسائق وطلبتُ منه أن يسرعَ

استغرقت المسافة ما بين المقهى والحي الذي يقطن فيه ورد، قرابة العشر دقائق ولشدةِ توتري ظللتُ ألقي نظرةٍ على ساعتي بين الفينة والأخرى، خشية أن يكونَ ورد قد ذهب لرؤية يعقوب قبل الموعد المحدد.

لحسنِ الحظ، لا زال الوقت مبكراً على القلق؛ إذ كانَت عقارب الساعة تشير عند وصولي إلى 5:30 مساء، أي لا زال بإمكاني منعه من الذهاب لمقابلة يعقوب، ولجتُ إلى المبنى الذي يقطنُ فيه ورد، وصعدتُ الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني بخطواتٍ سريعة، وعند وصولي، طرقتُ الباب بكُل عنفوان لدرجةِ أنَّ امرأةً طاعنة في السن كانَت تسكن في الشقة المقابلة لمنزله مدت رأسها مِن فرجة الباب لترى مَن يكون ذلك الشخص، الذي يسبب الإزعاج للجيران، وعندما رأتني، صاحَت فيَّ بعصبيةٍ:

- هيه، يا آنسة كفي عن طرق الباب بهذه الطريقة، فأنتِ تزعجين الجيران.
- أنا، أنا آسفة. تلعثمتُ.

ثم خرجَ ورد، الذي صُدمَ عند رؤيتي.. فاعتذر لجارته عما بدرَ مني، ثم وجه انتباهه نحوي من جديد:

- ما الذي أحضركِ إلى هنا يا مارفل؟ سألني.
- أنت تعرف سبب مجيئي إلى هنا يا ورد.
- لم أفهم شيئاً..
- كف عن التمثيل أعرف أنكَ ذاهب لمقابلة يعقوب لكني أحذرك، إياكَ أن تقول له شيئاً وإلا...
- وإلا ماذا؟ ماذا ستفعلين؟ قال ساخراً.
- لا شيء خطير، فقط سأذهب لأخبر تالا بحقيقتكَ يا أبا عبير، قلتُ بمكرٍ: سأقول لها أنكَ متزوج ولديكَ طفلة، دعها تعرف أي نوع من الأشخاص تكون، يا صديقي العزيز.
- كفى! اخفضي صوتكِ لا أريد أن تسمعنا ميرا، قال بنبرةٍ هامسة.
- الأمر يعتمد عليكَ، أيها العبقري، قلتُ بنبرةٍ مستفزة: إن ذهبتَ فستكون قد جنيتَ على نفسكَ، وقد أُعذرَ مَن أُنذر.
- حسناً لقد فهمت، لن أذهب إلى أي مكان لكن أرجوكِ ألا تخبري أحداً، قالَ متوسلاً.

- إذا سألكَ عن الأمر الذي كنتَ تريد أن تخبره به، اخترع قصة من وحي خيالكَ، وإن سألك كيف تعرف المقهى الذي نلتقي فيه، قل له أنني دعوت جميع زملائي وأقمنا حفلة عيد ميلادي فيه لذا خمنتً أنه قد يكون مقهاي المفضل، الذي أحب أن تكونَ جميع لحظاتي وذكرياتي الجميلة فيه.
- حسناً، سأفعل كل ما طلبته، لكن أرجوكِ، لا تقولي شيئاً مما تعرفينه عني.

لكني تبخرتُ، قبل أن يكمِلَ كلامه، لكي لا أعلق في دوامة توسلاته التي لا تنتهي، خصوصاً أنه يعرف جيداً ما سأفعله، لو فكَّرَ في إفشاء "أسراري" ليعقوب فقد كنتُ على معرفة وثيقة بزوجته ميرا، جارتنا في

الحي، وابنةُ خالته لورد التي تزوجها باختيارٍ من عائلته، وبما أنَّه رضخ لرغبتهم ولم يستطع أن يتزوجَ "فتاة أحلامه" فمِن الطبيعي أن يخونَ زوجته مع نساء أخريات إشباعاً لرغباته، وانتقاماً لنفسه، إذ كان يعتقد أنه يستطيع المواءمة بين "حياة رضخ لها وحياة يرغبُ في عيشها " دون أن يشعرَ بالذنب..

أثناء خروجي من المبنى شعرتُ بمزيجٍ من السخطِ والتقزز، فقد كنتُ ضحيةَ ماضٍ لم أكنْ لأرغب في عيشه، لكنني كأي شخص رضختُ له دون إرادة مني والحق يُقال، اعتقدتُ أنهُ مجردُ ماضٍ، لا نلبثُ أن ننساه.. لكني اكتشفتُ فيما بعد، أنَّ ماضي الإنسان

كظله، لا ينفكُ يطاردهُ، رغمَ كل الجهود المبذولة، في محاولة التملصِ من تلكَ الدوامة فلن نستطيع أن نتخلصَ منه أبداً حتى لو اعتقدنا في بعض الأحيان أننا تمكنا من التغلب عليه فلن نستطيع أن نعرفَ الوقت، الذي سينقض فيه علينا.

ما إن أصبحتُ في الخارج، رفعتُ بصري نحو السماء الفيروزية، سامحةً لنسمات الهواء العليلة، بأن تلفحَ وجهي.

وسطَ المشهدِ الرائع للسماء وبعد أن ملأتُ رئتي بما يكفي مِن الهواء تمكنتُ من استعادة بعضاً من هدوئي ثم عقدتُ العزمَ على الهربِ بأقصى سرعة لئلا يشكَ بي أحدٌ.

يعقوب:

"أذكر تلك المقولة: ثمة نوعان من الأغبياء: أولئك الذين يشكون في كُل شيء. و أولئك الذين لا يشكونَ في شيء."

_أحلام مستغانمي

أثناء انتظاري قدوم وردٍ، أعتقد أنني رمقتُ ساعةَ يدي قرابة الخمسين نظرة، لقد كنتُ متوتراً، وعاجزاً عن السيطرة على نفسي تزاحمتْ الأفكار في رأسي

وانتابتني آلاف الشكوك لدرجةِ أنَّ صاحب المقهى، الذي عرفني على الفور جاء ليسألني إن كان هناكَ خطب ما.

-لا تشغل بالك، لا شيء ضروري، أجبته بنبرةٍ حاولتُ أن أجعلها واثقة.

-أتمنى ذلك يا أستاذ.

لاحَ طيف ورد مِن بعيد، مما زاد من توتري إذ اعتقدتُ أنَّني سأسمعُ ما لا يسرُ الخاطر.

-مرحباً، يا يعقوب، قال مبتسماً.

-ليس لدي ما يكفي من الوقت أخبرني بما لديك، قلتُ بعصبية.

-اهدأ يا صديقي، الأمر ليس خطيراً كما تعتقد، قال ببرودٍ.

-إذا كان ما تقوله صحيحاً، فلمَ أحضرتني إلى هنا؟

-لا شيء مهم، ربما سألتَ نفسكَ الكثير من الأسئلة وراودتكَ شكوك كثيرة، لكنني أؤكد لك: لا داعي للقلق.

-ماذا إذاً؟ هيا قل ما عندكَ، صرختُ بعصبيةٍ

-أعرف هذا المقهى، هنا حيث احتفلت مارفل بعيدِ ميلادها السنة الماضية أي قبل أن تتعرفَ عليها وقد كنتُ من المدعوين وقتئذ.

-ما معنى هذا؟ قاطعته

-انتظـر، دعنـي أكمـل كلامـي، بمـا أنكمـا مخطوبـان، أردتُ أن أقتـرحَ عليـكَ أن تفاجئهـا بعيـدِ ميلادهـا الـذي سيكونُ...

لكننـي قاطعتـه، موجهـاً للطاولـةِ ضـربةً عنيفـة، ارتـجَّ علـى إثرهـا فنجـان القهـوة الـذي كـان قـد بـرُد فوقـعَ علـى الأرض محدثاً فوضى عارمة.

-لا تتحـدث فيمـا لا يعنيـكَ، أتعـرف شـيئاً؟ أعتقـد أننـي كنـتُ غبيـاً عنـدما أتيـتُ لمقابلتـكَ، اغـرب عـن وجهـي أيهـا المخادع.

ركضـتُ دون أن ألاحـظ شـيئاً ممـا حـولي، لدرجـةِ أننـي صـدمتُ أنفـي بالواجهـة الزجاجيـة للمقهـى، ففقـدتُ تـوازني ووقعـتُ علـى الأرض تاركـاً الـدم الـذي بـدأ ينـزف يلطـخ قميصـي ببقـعٍ حمـراء فاقعـة اللـون، احتجـتُ دقيقـة كاملـة لأدركَ مـا حصـلَ معـي تـواً ثـم وقفـتُ بسـرعةٍ خاطفـة مبعـداً النـاس الـذين تجمعـوا حـولي ليتمكنـوا مِـن رؤيـة مـا يحـدُث وهربـتُ مـن ذلـك المكـان بأقصـى سرعة.

ركضـتُ كـالمجنون، بثيـابي الملطخـةِ بالـدماء وهيئتـي الفوضـوية يخـالني كُـل مَـن يصـادفني فـي الطريـق شخصـاً مجنونـاً، لا يجـبُ أن يقتـرب منـه أحـدٌ وإلا فإنـه سـيتأذى. فقـدتُ السـيطرة علـى نفسـي انهـارَت أعصـابي وشـعرتُ أننـي مجـردُ لعبـة يتسـلى بهـا الجميـع، ضـحيةً سـهلة للشـكِ المقيت.

كيف يمكننا أن نثقَ بالشخص الذي خذلنا و كذب علينا؟ هذا شيء شبه مستحيل فالثقةُ شيء نفيس، يمكنكَ أن تمنحها لأي كان، لكنك لن تستطيع استرجاعها ثانيةً، وخصوصاً عندما تكتشف أنَّكَ خُدعتَ مِن قبل ذلك الشخص الذي ظننتَ أنه أهل للثقة.

عند وصولي إلى المنزل، صعدتُ الدرج المؤدي إلى غرفتي كالمتسلل لكي لا يراني أحدٌ في هذه الحالة المزرية فلا رغبة لدي في الإجابة عن التساؤلات التي لا تنتهي غيرتُ ملابسي ونزلتُ الدرجات متوجهاً إلى الحمَّام وضعتُ الثياب في حوض المغسلة وفتحتُ الصنبور عن آخره، بقيتُ مشدوهاً، وسرَى عرق بارد على طول ظهري، لدى رؤية الدماء تنسابُ من القميص، لتشق طريقها إلى المصفاة.

هل يعقل أن يكون ثمنُ تلك العلاقة هو الدم؟

عند التفكير في الموتِ، استبدَ بي الخوف، جفَّ ريقي واعترتني رعشة عنيفة، ولكي أستعيد بعضاً من رباطةِ جأشي، أخرجتُ القميص من حوض المغسلة وقمتُ بتمزيقه إرباً ثم رميته في سلة المهملات، بعد ذلكَ خرجتُ من الحمام وصعدتُ إلى غرفتي بخطوات رشيقة إذ اعتقدتُ وقتئذ أنني تغلبتُ على الهاجس المرعب **"الموت"** وكم بدوتُ غبياً حينها لأنني صدقتُ الكذبة المتمثلة في إمكانية قهر الموت؛ فالجميع

مهووس بفكرة العيش لزمنٍ أطول مما هو مكتوب لهم وذلكَ لأنهم يخشونَ ساعة الموت، يكرهون أن يضمحلوا وأن يصبحوا من المنسيين، لكن وللأسف الشديد، تلك حقيقة لا مناص منها، فالزهرة تموت عندما تذبل.. وكذلك الأمر بالنسبة للإنسان. يموتُ عندما يذبل.

ولكي أتمكن من التغلب على هواجسي السوداوية، هرعتُ إلى عالمي الخاص، المَرسم.

لطالما وجدتُ السكينة بين الألوان والكُراسات والفراشي متعددة الأحجام، لقد كان الرسم وسيلتي المفضلة للهرب من جنون العالم، فأنا شخص يؤمن بالفلسفة القائلة **"كُن مختلفاً وليس متخلفاً"** ومعنى المقولة واضح، إذ لكُل إنسان مساحته الخاصة، التي يقضي فيها معظم وقته فمِن الناس مَن يحب القراءة، ومنهم مَن يحبُ الكتابة،...إلخ) لذلك تجد هؤلاء الأشخاص يقضون أغلب وقتهم بعيداً عن الصخب و الضوضاء، بغية البقاء مع الأشياء التي يفضلونها، فيتهمهم البقية بالجنون، فقط لأنهم يختلفون عنهم، الإنسان كائن ضعيف، لا يحب أن يعيره أحد بما لديه مِن نقص، إنه كائن مغرور لا يحبُ أن يراكَ مختلفاً، ولن يسره معرفة أنكَ تملك ميزة هو لا يملكها.. لذلك ستجده دوماً حريصاً على الإنقاص من قيمتكَ وقيمة الشيء الذي تفعله عن طريق السخرية والاستهزاء..

ولكي تتمكن مِن استثارة غيظه، ما عليكَ إلا أن تستمر في ما تفعل.

رحتُ أخربش على الكراس بعصبيةٍ، وبعد ساعةٍ من الرسمِ، اكتملتْ اللوحة أخيراً، رجل عالق وسط متاهة لا متناهية، طويلة ومدلهمة لا منفذ لها، أطلقتُ عليها اسم "متاهة الشكِ" إذ لم تكُن اللوحة، إلا تجسيداً لِما أمرُّ به بسبب تلك العلاقة التي -بلا شكٍ- ستفقدني صوابي عما قريب!

أشعر أنني عاجز؛ إذ كلما عثرتُ على بصيص أمل أجده يخفتُ تدريجياً ومن ثم يختفي لا أعرف الكاذب مِن الصادق، فمِن المحتمل أن يكونَ هناك شخص ما من بينهم، يقول الحقيقة ومن المرجح أن يكونوا جميعهم دون استثناء كاذبين، **لم أكُن لأعرف شيئاً عنهم، أولئك الذين اعتقدتُ أنني أعرفهم أكثر مِن نفسي، لقد كنتُ كالحجر المرمي في البحر، تتلاعب بي الأمواج دون أن أجد مرسى أستقر فيه.**

لكنني متأكد بل واثق تمام الثقة أنَّ مارفل بريئة، وأنها هي أيضاً ضحية لتلك اللعبة القذرة.

مارفل لا تكذب، أنا متأكد من ذلك فهي ليسَت حقودة بما يكفي لكي تخطط لأذيتي، هناكَ لغز يستعصي عليَّ معرفته، أنا تائه، ذهني غارق في بحر من التعقيدات والمجاهيل.. آلاف الأسئلة تطرح نفسها، منتظرة الجواب،

أكاد أفقد علقي!

وبينما كنتُ غارقاً في أفكاري اهتزَّ الهاتف الذي كان موضوعاً على المنضدة المحاذية للسرير بعنفٍ، فالتقطته من على المنضدة بحركةٍ سريعة من يدي، وألقيتُ نظرةً على اسم المتصل الظاهر على الشاشة: مارفل.

-أهلاً، قلتُ بنبرةٍ مخنوقة.

-لا تبدو على ما يرام يا يعقوب، ما الذي يجري؟

-لا شيء يا مارفل، أشعر بالتعب، هذا كل ما في الأمر.

-هل أنتَ متأكد من ذلك؟

هنا، لم أستطع أن أتمالكَ نفسي فدخلتُ في نوبةِ بكاء هستيرية، أفرغتُ معها كُل ما في قلبي من همومٍ ومخاوف، لطالما كان البكاء على صلةٍ وثيقة بالألم ولهذا السبب يكون طعم الدمعة مالح؛ فهي تخرجُ كُل ما في أعماقنا مِن ألمٍ، وكأنها تقول لنا: أخرج ما في قلبكَ من ملوحة، وإلا فإنكَ ستموتُ غماً!

من وجهة نظري، أعتقد أن البكاءَ تعبير عن الصلابة، وليس ضعفاً كما هو متعارف لدى الناس؛ لأننا عندما نبكي، نعطي لأنفسنا فرصةَ التخلص من الغم الذي يمنعنا من الاستمرار في سعينا.

- أرجوكِ يا مارفل، اتركيني أرتاح قليلاً، قلتُ بنبرةٍ طغى عليها الألم.
- لكَ ما تريدُ يا يعقوب، اتصل بي ما إن أصبحت أفضل حالاً.

أكره هذا، كل ما يحدث لي أكرهه، أود لو أنه ينتهي، ليتنا نستطيع التخلص من اللحظات السيئة، لو أنها كانَت كالكوابيس التي تراودنا ليلاً، تشعرنا بالقلق والخوف ثم نستيقظ لنكتشفَ أنه مجرد "كابوس مزعج" لو أنها كانَت كذلك، لاستطعنا أن نتخطاها بسهولة.. لكنها ليسَت كذلك ولن تكونَ أبداً، إذ يضطر كُل واحد فينا، لأن يتعايش مع الألم إلى أن يتعودَ عليه.

لا أدري كيف استطعتُ أن أخلدَ إلى النوم، كل ما يمكنني تذكره، هو أنني أغرقتُ الوسادة بالدموع، نمتُ مهموماً واستيقظتُ مكسوراً، شيء ما داخلي تحطم، لم أعد الشخص الذي كنتُ عليه في السابق، أنا خائف مني، لم أعد أعرفني. الجميع يعرفُ أنَّ الدودة تتحولُ إلى فراشة بمجردِ أن تدخل شرنقتها، لكن ما لا يعرفونه حقاً، هو أنهم يشبهون وإلى حد ما تلك الكائنات، لكن بطريقةٍ مختلفة قليلاً، الأمر أشبه بمعادلةٍ رياضية إذ باستطاعة تغيير بسيط في الإشارات، أن يقلب المعادلة رأساً على عقب فالدودة تختبئ في شرنقتها، كي تتحولَ إلى فراشة، أما الإنسان، فيتبدلُ

حالـه فـي ليلـة وضـحاها.. إذ يسـتطيع موقـف بسـيط أو صـدمة يتعـرض لهـا، أن يكسـرَ أجنحتـه التـي يحلـق مـن خلالهـا مكتشـفاً العـالم مـن حولـه.. فيتحـولُ إلـى دودة، تسـيرُ فـي الأرض بـبطء شـديد، خوفـاً مـن أن تتعـرض للأذى.

نزلـتُ بخطـواتٍ مترنحـة، وتوجهـتُ إلـى الحمـام كنـتُ بحاجـةٍ إلـى شـيء مـنعش، شـيء يعيـدُ الحيـاة لخلايـاي العصـبية التالفـة، تحممـتُ علـى عجـل ثـم ارتـديتُ ثيـابي وتوجهـتُ إلـى المطـبخ؛ لكـي أُعـدَ لنفسـي فنجانـاً كبيـراً مـن القهـوة فقـد كـان التعـب مسـيطراً علـيَّ كـان جسـدي كلـه نائمـاً، ولكـي أوقظـه فأنـا بحاجـةٍ إلـى جرعـةٍ لا بـأس بهـا مـن الكـافيين، انتظـرتُ إلـى أن أصـبحَت القهـوة جـاهزةً ثـم سـكبتها فـي أكبـر فنجـان وجدتـه، وأخذتـه إلـى الشـرفة حيـث الهـواء الطلـق والإطلالـة الخلابـة للمنـازل الممتـدة علـى طـول الشـارع، ارتشـفتُ القهـوة بـبطء، مسـتمتعاً برؤيـة الأطفـال وهـم يلعبـون عندئـذ انتـابني شـعورُ غريـب، حنـينٌ قـوي للطفولـة هنـاك حيـث تركـتُ نسـختي الأكثـر وداعـة وصـفاءً، اشـتقتُ لـذلك الطفـل الصـغير صـاحب الابتسـامة البلهـاء، وددتُ لـو أسـتطيع العـودة إلـى الـوراء لأتمكـن مـن رؤيـة "الصـغير الأكثـر شـقاوة" وأتحـدث معـه لأخبـره بـأنَّ الحيـاة ليسَـت بتلـك البسـاطة التـي يتصـورها، تمنيـتُ لـو أنَّ بمقـدوري السـفر عبـر الـزمن، لأقـول لنسـختي الصـغيرة أنـه لا بـأس إن لـم

يحصل على قطعة الشوكولاتة التي وُعدَ بها لأنها ليسَت بالمشكلة الكبيرة لكي يذرف دموعه عليها بل عليه ألا يسرفَ في ذرف الدموع على أتفه الأسباب لأنَّ الحياة ستجرحه كثيراً عندما يكبر، لذلك يجب عليه ألا يفرّطَ بدموعه.. لأنه سيحتاج إليها في أوقات لاحقة.

ASRUD
للنشر الالكتروني

الفصل الرابع عشر

بعد لحظاتٍ لذيذة من الشرود، تمكنتُ من العودةِ إلى الواقع لأكتشف أنَّ المشاكل تحيط بي من كل حدب وصوب، ولكي أتمكن من حلها يجبُ عليَّ أن أستغل كل ثانية وكل دقيقة لصالحي لئلا أتركها تتراكم عليَّ ثم ينتابني فيما بعد شعور قاتل بالندم، لذلك هرولتُ بخطوات شبه متعثرة باتجاه المطبخ، لأضع الفنجان الذي شربته حتى آخره في المغسلة ثم هممتُ بالرحيل، عليَّ أن أكون واعياً لِما يجري مِن حولي!

بعد ساعة..

-لا تبدو على ما يرام يا يعقوب، ما الذي يجري؟! سألتني بهدوء مصطنع.

-هل تعتقدين أنني غبي لهذه الدرجة؟ لقد عرفتُ كُل شيء.

امتقع وجهها و طغى الخوف على ملامحها!

-ماذا تعني؟ عن ماذا تتحدث؟ قالَت بنبرةٍ متوترة

-أتحدث عن خيانتكِ لقد خدعتني، كذبتِ عليَّ يا مارفل، صرختُ في وجهها.

-انتظر، دعني.

لكنني انسحبتُ دون أن أتركَ لها فرصة لتكمل كلامها، فلا رغبة لدي في الاستماع إلى مزيد من الأكاذيب.

مارفل:

لم يغمض لي جفنٌ طوال الليل فقد كنتُ قلقةً على يعقوب، الذي بدا لي أنه لم يكن في أفضل حالاته وقتئذ، فقد استشفيتُ من خلال نبرته مدى تعبه وقلقه، لقد بدا عاجزاً، يحمل في قلبه الكثير من الألم وعلى الرغم من أنني تركته ليلة أمس بناءً على طلبه، إلا أنني لم أستطع أن أسيطر على قلقي تجاهه، فظللتُ أتفرس شاشة الهاتف بقلقٍ، متمنية أن يعاود الاتصال بي أو يرسل لي رسالة، أستطيع من خلالها أن أطمئن عليه مرَّت ساعة كاملة، دون أن أحصل على أي إشارة (لا مكالمات ولا رسائل) فقررتُ أن أفعل ما لم يستطع فعله واتصلتُ، فحصلت على النتيجة ذاتها: لا شيء.

مما زاد من قلقي؛ إذ تزاحمت الأفكار الأكثر سوداوية في رأسي وأضحيتُ عاجزة عن السيطرة على نفسي. فقد كان القلق ينهشني، ولم أتمكن من إلهاء نفسي بشيء فقد كنتُ عاجزة عن التفكير بشيء سِواه.

في اليوم التالي.

-يعقوب! كيف حالكَ يا حبيبي؟

لا جواب..

ماذا هناك؟ لِمَ لا يجيبُ؟

لحقتُ بـه، لأفهم مـا يجـري و ليتنـي لـم أذهـب، فقـد سـمعتُ مـا لا يسـرُ خـاطري لقـد كسـرني إذ اتهمنـي بشـيء لـم أفعله

-هلا شرحتَ لي ما يحدث رجاء؟

-اغربي عن وجهي يا مارفل، ابتعدي!

حاولتُ أن أبقى هادئة، فتنهدتُ بعمقٍ وسألته:

-لا تبدوعلى ما يرام يا يعقوب، ما الذي يجري؟

فـأطلقَ ضـحكة سـاخرة، تـنمُ عـن مـدى قهـره وقـال: هـل تعتقدين أنني غبي لهذه الدرجة؟ لقد عرفتُ كل شيء!

صـعقتُ، شُـل لسـاني وتجمـدتْ أطرافـي إذ أخبرنـي بالحقيقـة التـي توصـلَ إليهـا " لقـد خـدعتني، كـذبتِ علـيَّ يـا مارفل!".

ذلـك المخـادع! لقـد كـذب علـيَّ إذ جعلنـي أصـدق أنـه لـن يخبـرَ يعقـوب بشـيء إن مـا يحزننـي حقـاً، هـو أننـي كنـتُ هـدفاً سـهلاً بالنسـبة لـورد؛ إذ نجـح فـي خـداعي وجعلنـي أعتقـد أنـه كـان خائفـاً مـن احتمـال أن أفضـح حقيقتـه إن فكَّـر فـي الـذهاب وإخبـار يعقـوب بمـا يعرفـه عنـي، إذ نجـح فـي خـداعي وجعلنـي أعتقـد أنـه كـان خائفـاً مـن احتمـال أن أفضـح حقيقتـه إن فكَّـر فـي الـذهاب وإخبـار يعقـوب بمـا يعرفـه عنـي .لـم تـرُق لـه فكـرة أن يكـون مهـدداً مـن قبـل امـرأة، فقـرر أن يقلـبَ المعادلـة إذ يجعلنـي أقـع فـي المـأزق، عنـدها فقـط سـيتمكنُ مـن إكمـال حياتـه دونمـا

خوف، أنه اعتقد أنني سأضعف، وسأقضي ما تبقى من حياتي، في تقديم المبررات و طلب المغفرة، لكنه مخطئ.. حيث لن ينجو بفعلته أبداً!

-أيها المتملق! لن تنجو بفعلتك، ابتعد عن طريقي! صرختُ بعصبية.

-ما الذي تقصدينه؟

-لن تنجح في خداعي، أعرف أنكَ أخبرتَ يعقوب.

-انتظري، أنا لم أفعل شيئاً، لم أخبره بأي شيء! دافع عن نفسه.

-يا لك من رجل ذكي حقاً! كيف عرفَ إذاً؟

-لا أعرف، صدقيني أنا لم أفعل شيئاً، لم أقل شيئاً!

-ما الذي يؤكد لي أنكَ لا تكذب عليّ؟

-يمكنكِ أن تسأليه، صدقيني، لقد فعلتُ ما طلبته مني، قال متوسلاً.

ما هذا الذي يجري؟ لا أستطيع أن أفهم شيئاً؛ كيف يتهمني يعقوب بالخيانة إذا لم يكُن ورد قد أخبره بماضيَّ مع غيث؟ بل يمكنه أن يتهمني بشيء لم أفعله؟ إذ يعتقد أنني خنته مع رجل آخر، والأسوأ من هذا كله.. أنه يصفني بالمرأة الكاذبة دون أن يمنحني فرصةَ التوضيح!

-أرجوكِ صدقيني، لا ذنب لي في ما يحدث بينكما أنا لم أقل شيئاً!

-أغرب عن وجهي.

دفعته بعيداً و هممتُ بالرحيل.

إذا لم يكُن ورد هو مَن أخبر يعقوب بالأمر فلم يبقَ سوى غيث، لذلك قررتُ الذهاب والتحدث إليه، لكي أفهمه أنني لستُ له ولن أكون كذلك أبداً تلك الحقيقة التي يرفض أن يتقبلها.. متشبثاً بوهمِ "استعادتي".

بعد ساعة..

-ألا يمكنكَ أن تفهم يا غيث؟ أنا لستُ لكَ! لستُ لك، صرختُ بعصبية.

-عمَّ تتحدثين يا مارفل؟

-كف عن التمثيل أرجوك! أعرف أنكَ كذبتَ على يعقوب وقلتَ له ما لم ولن يحدث أبداً.

-لا أفهم ما تقولين، حقاً، أنا لا أعرفُ شيئاً مما تقولين! صرخ في محاولة منه للدفاع عن نفسه.

-قلتُ لكَ كف عن الكذب لن تستفيد شيئاً! أمسكته من ياقة قميصه بغضب.

-ابتعدي! قلتُ لكِ أنا لم أفعل شيئاً، وإن لم تصدقيني، فسأتصل به على مرأى منكِ، وهذه المرة سأخبره بكُل شيء فعلاً! قال بنبرةٍ متوعدة.

تراجعتُ خطوة إلى الوراء في محاولة مني لاستيعاب ما قاله للتو.

إن لم يكُن ورد هو مَن باح ليعقوب بالأمر وإذا كان غيث صادقاً في قوله، فمَن فعلَ ذلك إذاً؟ ولِمَ فعل ذلك وماذا سيستفيدُ من فعلته المشينة؟ لم أستطع التفكير إلا في حقيقة واحدة، وهي أنني أكُن لأعرفَ حقيقة الناس مِن حولي فالجميع يجيدُ التخفي خلف قناع "المحبة".

-مَن فعلها إذاً؟

-لا أعرف!

تهاويتُ على الأرض ساندة عمودي الفقري على الحائط، ووضعتُ رأسي الذي كان على وشك الانفجار بين يدي المرتعشين أصبحتُ عاجزة، فقدتُ القدرة على التفكير وتمييز الأشياء من حولي.. وصار السؤال الوحيد، الذي يجبُ عليَّ أن أجد جواباً له، هو: لماذا؟ ما الخطأ الذي ارتكبته لأعامل بتلك القسوة؟ لماذا يصفني بالخائنة، دون أن يمنحني الفرصة لكي أفهم وبالتالي أبرر موقفي؟ فيمَ يفكر وإلى أين يريد أن يصلَ؟

-وبعد ماذا عليَّ أن أفعل هذا الرجل، سيفقدني صوابي!

-لن تصدقي ذلك، لكنني مغتبطٌ لمعرفةِ أنَّ مَن تحبينه، يعذبكِ قال بمكرٍ.

-كف عن التفوه بالهراء! يكفيني ما أنا فيه، قلتُ بنفاذ صبرٍ.

-أتعرفين شيئاً؟ في كُل ليلة، أدعو الله أن يجمعني بكِ من جديد، ولو كان هناك عوالم موازية، فلا أتمنى أن ألتقي بامرأة سواكِ ومَن يدري؟ ربما تستطيع "مارفل" الموجودة في العالم الآخر، أن تمنحني قلبها.

-لا استجاب الله لكَ، يا صديقي أنا لن أكون لكَ لا هنا ولا حتى في العوالم الأخرى.

خرجتُ بعد ذلك، مغلقة الباب من خلفي بغضبٍ وهمتُ على وجهي تؤنسني النجوم المتلألئة في سماء الليل المكفهرة، ويعزيني القمر قائلاً: لا بأس يا صغيرة، فالبعض وما أكثرهم سيبحثون عن أي سبب مهما بدا تافهاً بالنسبة لكِ لكي يرحلوا ويتركوكِ وحيدةٍ حتى ذلك الشخص، الذي ظننتِ أنه لن يخذلكِ لا تبالغي في العطاء، لكي لا تصابي بخيبة أمل ففي ساعةِ الخصام، لا شيء أسهل من نكران الجميل.

فأجيبه بيقين تام: لكن يعقوب مختلف، لا يشبه أحداً، وإنما له رونقه الخاص!

بطريقة ما، فإن الجميع متشابهون مهما بدوا لكِ مختلفين، الناس كالوردة على الرغم من اختلاف ألوانها وأشكالها وأنواعها، إلا أنها تظلُ في النهاية، وردة كالورد الآخر.

عند وصولي إلى المنزل.. صعدتُ إلى غرفتي بخطوات شبه متعثرة لدرجةٍ كدتُ معها أن أقع، لكنني في النهاية تمكنتُ من الإمساكِ بقبضة الباب وفتحه، دخلتُ الغرفة كطفلةٍ صغيرة جرحَت إصبعها، فراحَت تبحثُ عن أمها، لكي تهرعَ إلى حضنها وتبث إليها الشكوى بغية التغلب على خوفها وألمها، لأنها تعرف لدرجة اليقين أنَّها ستتمكنُ من إكمال اللعب مع صديقاتها بمجردِ أن تعانق والدتها وتحكي لها ما حصل! اضطجعتُ على السرير وغرقتُ في نوبة بكاءٍ هستيرية.. أصبحتُ عاجزة تماماً ولم أستطع إيجاد طريقة ناجعة، بإمكانها أن تخفف من وجعي سوى البكاء، وكمحاولة أخيرة، اتصلتُ بيعقوب، علّه يرد هذه المرة.

الرنة الأولى..

الرنة الثانية..

الرنة العاشرة..

لا جواب، لا زال غاضباً مني.

تقوقعت على نفسي، متخذة وضعية الجنين، وغرقتُ في نوبة بكاء أخرى.

بعد أسبوع / الساعة الثانية صباحاً.

-ألن ترد يا يعقوب؟ حسناً، لن ألح عليكَ، مهما كان ما تفكر فيه، أؤكدُ لكَ أنني بريئة..

بعد خمس دقائق / مكالمة واردة.

قفزتُ من فوق السرير بفرحٍ فقد كان المتصل هو يعقوب.

-أخيراً قررتَ أن تصدقني!

لكنني كنتُ مخطئة، لم يتصل لأنه صدقني ولا ليتحدث معي..

فكرتك صح وكانت هيدي غلطة عمري،
أوقات الصح صعب علينا نشوفه دغري،
ومنلاقي الغالي علينا مخبي بثوب الكذبة،
من جوا رخيص، من برا ذهب وقشرة.

يعقوب

" أنا لا أعرفك ولكني أعرف أني أحبك."
-غابرييل غارسيا ماركيز.

ما هذه الجرأة؟ كيف تسوغ لها نفسها أن تتصلَ بي وكأنها لم تفعل شيئاً؟ وكأنَّ الخيانة أمر عادي بالنسبةِ

لها هل تعتقد أنني رجل غبي للدرجة التي تدفعني إلى أن أرد عليها وكأنَّ شيئاً لم يحدث؟ لا أستطيع أن أصدق! كيف يمكن لهؤلاء الأشخاص، الذين يحطمون قلوبنا ويخذلوننا أن يتصرفوا على درجةٍ كبيرة من

الثقــة؟ وكــأنهم لــم يفعلــوا شــيئاً بــل كيــف يســتطيعونَ مواجهتنا، بعد كُل ما فعلوه بنا؟ لا.

يمكننــا أن نصــفَ هــؤلاء الأشــخاص إلا بصــفةٍ واحــدة، شنيعة وقاسية كفعلتهم، وهي أنهم أشخاص بلا قلب!

ومارفـل واحـدة مـن هـؤلاء؛ فهـي لـم تفكـر عنـدما أقـدمَت علـى فعلتهـا، بـل تصـرفَت علـى هواهـا دون أن تتـركَ لـي خيـاراً، لـذلك قـررتُ أن أعاقبهـا، علـى طريقتـي الخاصـة فأجبـتُ علــى المكالمــة دون أن أنــبس بكلمــةٍ، بــل تركــتُ "خلصــت الحكايــة "، تتحــدث، وتلخــص كُــل مــا أشــعر به...

ومنلاقي الغالي علينا مخبى بثوب الكذبة،
من جوا رخيص، من برا ذهب وقشرة.

كـان المقطـع كافيـاً لكـي يختصـر لهـا كـل شـيء مـن خـلال بضـع كلمـات، شـرحتُ لهـا الألـم الـذي سـببته لـي، هـي التـي حرصَـت علـى التخفـي، كـل هـذا الوقـت خلـف قنـاع التملــق والكــذب، وبعــد أن وصــلَت الرســالة، أغلقــتُ الهـاتف علـى عجـل دون أن أمنحهـا فرصـة التحـدث، فـلا رغبــة لــدي فــي ســماع صــوتها، الــذي أصــبحَ يثيــرُ فــي نفســي مزيجــاً مــن مشــاعر الاشــمئزاز والتقــزز أصــبحتُ أخافهـا، بعـد أن كانَـت هـي الأمـان، صـرتُ أهـربُ منهـا بعـد أن كنـتُ أهـرب إليهـا، لقـد صـارت (لا شـيء)، بعـد أن كانت كُل شيء بالنسبة لي.

رميتُ الهاتف بعنفٍ، فارتطم بالحائط وانطفأ.

أطلقتُ ضحكة ساخرة، تنم عن مدى قهري فقد كنتُ أشبه هاتفي إلى حد كبير، كلانا انطفأ عند تعرضه للصدمة التي فقدنا على إثرها ملامحنا وروحنا، لقد كُسرتُ والإنسان عندما يتحطم فلا شيء يمكنه أن يرمم جراحه، مهما بدا لكَ أنه شُفي، فإنه -كالمزهرية المحطمة والتي خضعتْ للترميم سابقاً- لن يعودَ إلى ما كان عليه أبداً، على كل حال، لا أستطيع أن أحرمَ جسدي من الراحة، فهذه المرأة لا تستحق أن أفني نفسي لأجلها!

في اليوم التالي / لقاء في المقهى.

هممتُ بالانصراف، لكنها منعتني من ذلك.. إذ لحقت بي ووقفت أمامي، قائلة بنبرة صارمة: لن تذهب إلى أي مكان قبل أن تشرح لي ما يحدث.

-لقد عرفتِ بالفعل، ابتعدي عن طريقي، لا يوجد ما نتحدث بشأنه.

-بل يوجد، لا تجعلني ضحية لتخيلاتك، أنا لم أفعل ما يؤذيكَ، ولو فعلتُ على حسب ما تقول، اشرح لي على الأقل، دعني أعرف ما يزعجكَ، لكي أتصرف على أساسه، لا تتركني هكذا، وإلا فإنني سأفقد صوابي!
حدقتُ فيها لبرهةٍ، قبل أن تضيف بإلحاحٍ شديد:

أرجوكَ يا يعقوب، امنحني هذه الفرصة لعلها تصلحُ ما أفسده الشك.

-حسناً، رضختُ على مضضٍ: هذه فرصتكِ الأخيرة، حاولي أن تستغليها كما يجب وإلا سيكون هذا، آخر لقاءٍ بيننا.

بعد نصف ساعة.

-ما الذي تقوله؟ هل جننتَ!

-أجل، أنا كذلك منذ عرفتكِ، لا تكفين عن العبث بي لقد أفقدتني صوابي.

-اسمع، حتى وإن كنتُ خائنة كما تقول فلن أخونكَ مع رجل مثل ورد أنا أساساً لا أفكر ولن أفكر في خيانتك.

-ما الذي يمنعكِ، أيتها الحسناء؟ سألتها بسخريةٍ.

-لأنني أحبكَ يا يعقوب ألا تفهم؟ أنا أحبكَ، صرختْ.

-مارفل.

-ماذا؟

-هل ترغبين أن تكوني زوجة رجل مجنون؟

-لا بأس في ذلك.

-حتى وإن استيقظتِ ذات صباح ووجدتني هائماً في الشوارع؟

-قلتُ لكَ لا بأس، سـألحقكَ حتى إن ذهبتَ إلى أبعد مكان في العالم.

-لِمَ ستفعلين ذلك؟

-لأنني أحبكَ يا مجنوني!

بعد شهرٍ:

-لا أصدق أننا سنتزوج!

-بل يجب عليكَ أن تصـدق هذا ما سـيحدث عاجلاً أم آجلاً، لولا اعتقادكَ السـخيف بأنني أخونك ومع مَن، مع زميلنا العزيز ورد، قالت ساخرة.

ضـحكنا معاً، كما اعتدنا أن نفعل دوماً لكن هذه المرة الأمر مختلف بعض الشيء، نحن نضحكُ على العوائق التي اعتقدنا أنها ستباعد بيننا، نضحكُ على غباوتنا التي كانَت ستقتل حُبنا وتحطم قلبينا، دون وجود سـبب واضـح لذلك لقد لعبنا بالنار، لكننا لم نحرق أصـابعنا، إذ اسـتطعنا أن نهرب قبل أن تتمكن منا.

وأخيراً، تحقق الحلم، فقد تزوجنا بعد انقضـاء شـهرٍ على تلك المحادثة، التي سنتذكرها فيما بعد ونضحك؛ ظننا أننا سنكون سعداء، على الأقل في بداية زواجنا، ولم نعرف أنَّ ما يسعدنا اليوم سيكون سبباً في شقائنا غداً.

الفصل الخامس عشر

غيث:

"لكنه كان قلبي، ربما لم يكن شيئًا مهمًا بالنسبة لكِ".

-محمود درويش

هذا الصباح، أشعر أنني لستُ على ما يرام، فقد انقبض قلبي فجأة وسرى الخوف في أطرافي وكأنني كنتُ على موعد مع خسارة جديدة ستضاف إلى خسائري المتراكمة فوق بعضها كتلٍ رملي، استطعتُ بصعوبة بالغة أن أسيطر على انفعالاتي فنهضتُ من سريري وتوجهتُ إلى المطبخ مباشرة، وكما اعتدتُ أن أفعل دوماً حضرتُ لنفسي الفطور ووضعتُ القهوة على النار ولكي لا تعم الفوضى في المكان انتظرتُ بضعة دقائق إضافية، إلى أن صارت القهوة جاهزة، ثم قمتُ بسكبها في فنجاني المفضل الذي طبعتُ عليه صورة لفيروز، كرمزٍ للصباح ولأنها كانَت مطربة مارفل المفضلة.

تناولتُ الفطور على عجلٍ ثم تجرعتُ القهوة بنهمٍ؛ إذ أنهيتها في رشفتين متتاليتين، ثم عدتُ إلى غرفتي لأغير ثيابي تاركاً المطبخ على حاله، وبعد أن أنهيتُ نصف المهام الصباحية، شرعتُ في الذهاب إلى الجامعة، هناك، حيث سأكتشف الحقيقة المُرة.

-مرحباً يا غيث، صاح ورد بفرحٍ.

-ماذا هناك الآن؟ سألته بعصبية.

-اهدأ يا صديقي. صدقني، ستحتاجُ لغضبكَ هذا عندما تعرف ما حدث.

-قل ما عندكَ و إلا...

-لقد تزوجا: مارفل ويعقوب.

-أنتَ تكذب.

ولكي يجعلني أصدق كلامه، أخرج هاتفه وفتحه على تطبيق الصور.

-انظر، لقد حضر زملاؤنا حفل زفافهما أمس، وهذه مجموعة من الصور التي استطعتُ أن أحصل

عليها، الكل هنا يتحدثون عن ليلة أمس!

-أعطني هذا، سحبتُ الهاتف بعصبية، ورحتُ أقلّب الصور واحدة تلو الأخرى.

لقد فعلتها، تزوجَت يعقوب، فضلت صديقي عليَّ يا لسعادتي! أكاد أبكي من شدة الفرح.

'إذاً ما رأيك؟ يبدوان في غاية الروعة ألـيس كذلك؟ قال بمكرٍ.

-أنا؟ أجل معكَ حق، إنهما رائعان. تلعثمت.

-ألن تبارك لهما؟

-بلى سأفعل.

لكن على طريقتي الخاصة.

لا أعرف كيف استطعتُ أن أمضي يوماً كاملاً في الجامعة على مرأى من الجميع، فعلى الرغم من المحاولات التي كانوا يبذلونها في إخفاء سخريتهم إلا أنني استطعتُ أن أقرأ ذلكَ في نظراتهم وابتساماتهم الخفيضة وأحاديثهم التي كانوا يتهامسون بها فيما بينهم، إلى حد أنني سمعتُ فتاة تقول بأعلى صوت

-ذلك المسكين، ترى كيف هو شعوره الآن؟

فغادرتُ القاعة، لكي لا أصطدمَ مع أحد وذهبتُ إلى الخارج، حيث اعتقدتُ أنني لن أجد أحداً، لكنني سرعان ما ندمتُ على تصرفي؛ إذ وجدتُ أحد الطلاب يشير بإصبعه نحوي ومن ثم يتهامس مع صديقه ويضحكان أليس هذا رائعاً يا مارفل؟ لقد تحولتُ إلى نكتة يضحكُ عليها الجميع!

ولكي لا أسمع أو أرى مزيداً من الطلاب، يشيرون نحوي ويتحدثون عني قررتُ أن أختفي، هربتُ من الجامعة.. وذهبتُ إلى البيت، حيث ازداد الوضع سوءاً، فبدل أن أهدأ كما أملتُ ازداد غضبي أكثر، فقمتُ بتحويل المطبخ إلى ساحة للخردوات، إذ حطمتُ كل ما وقع في يدي: فنجاني المفضل، الصحون

والكـؤوس.. ركلـتُ الخـزن وحطمـتُ المـايكرويف لقـد تحول المطبخ إلى مكان تعم فيه الفوضى.

بعـد أن أفرغـتُ غضـبي توجهـتُ إلـى غرفتـي، حيـث اضـطجعتُ علـى السـرير وغرقـتُ فـي نـوم عميـق، فقـد كنـتُ متعبـاً.. لـيس لأننـي أمضـيتُ وقتـاً لا بـأس بـه فـي تحطـيم أغـراض المنـزل بـل لأننـي كُسـرتُ مـن قبـل صديقيَّ العزيزين!

حاولـتُ كثيـراً طـوال الليـل أن أنسـى مـا فعـلاه بـي. وأتقبـلَ مـا حصـل معـي لكـن شـيئاً مـا منعنـي، كنـتُ عـاجزاً عـن تصـديق تلـك الفكـرة، المتمثلـة فـي أن تكـونَ مارفـل مـع رجل آخـر غيـري اختارتـه هـي بنفسـها لكـي تثبـت لـي أنهـا قـادرة علـى إكمـال حياتهـا برفقـة رجـل آخـر علـى غـرار ما أنا عليه، فقد كنتُ كالرقم صفر بالنسبة لها..

لا قيمـة لـي، أمـا يعقـوب، فقـد كـان كـل شـيء بالنسـبة لهـا: حاضـرها ومسـتقبلها والـرقم واحـد فـي قائمـة اهتماماتهـا، ولأننـي رجـل أنـاني ومحـب للتملـك فكـرتُ فـي الانتقـام منهـا، أردتُ أن أذيقهـا مـن نفـس الكـأس الـذي شـربتُ منـه، سـأجعلها تنـدم علـى مـا فعلتـه، لكـن كيـف ذلـك؟ هـل يجـب علـيَّ أن أخبـر يعقـوب بمـا أعرفـه عنهـا؟ لا لـن أسـتفيد شـيئاً، فهـذا الأبلـه.. لـن يلبـث أن يصـدقها وبالتـالي أكـون قـد خسـرتُ اللعبـة قبـل أن أبـدأ بهـا حتـى، إذاً مـاذا أفعـل؟ كيـف أشـفي غليلـي كيـف أنـتقم لقلبـي الـذي حطمتـه دون هوادة ولا شفقة؟

وبعد ساعة كاملة من التفكير استطعتُ أن أصلَ إلى نتيجة مرضية: سأقتلها!

ليس الآن بل بعد أن يعتاد عليها لدرجةِ أنه يخاف من فكرة فقدانها بعد أن يعتقدَ أنها لن تفارقه أبداً، فعندما يعتاد الشخص على وجود شيء في حياته يجد نفسه دون أن يشعر بذلك رهينة للخوف، إذ يسيطر عليه هاجس القلق، فنجده قريباً منه دوماً، خشية من أن يتبخرَ من حياته فيمضي ما تبقى من عمره، غارقاً في شعورٍ قاتل بالذنب.

بعد أربعة أشهر / الساعة التاسعة مساءً.

-مرحباً يا مارفل، كيف حالكِ يا صديقتي؟

-غيث ماذا تفعلُ هنا؟ سألت بتوتر واضح.

-جئتُ لأباركَ لكِ زواجكِ من يعقوب، واحزري ماذا أحضرتُ معي؟ لقد جلبتُ شوكولاتة ساخنة لكلينا، مشروبكِ المفضل.

-لكن يعقوب ليس هنا يا غيث، لقد ذهب لزيارة والدته لأنها مريضة.

-هل أشربُ الشوكولاتة وحدي، يا صديقتي؟

-حسناً، لنشربها في الحديقة يا أخي الصغير، وافقَت على مضض.

أخـي الصـغير؟ حتـى قبـل أن تمـوتي لا تكفـين عـن إهـانتي أبـداً، لا بـأس. قـولي مـا تشـائين لأنـك بعـد قليـل سـتفقدين القدرة على النطق!

-لم يخبرني أنَّ والداته مريضة، تصنعتُ العتاب

-لا تقلق،لا شيء يدعو للخوف، إنها متوعكة قليلاً.

هيا، اشربيها بسرعة!

ظللـتُ أرمـق محتـوى الكـوب بقلـقٍ شـديد ولكـي لا أضـيعَ مزيـداً مـن الوقـت بقيـتُ صـامتاً إلـى أن أنهـت شـرب كوبهـا، ولـم تتـأخر النتـائج فـي الظهـور؛ إذ بـدأت تفقـد وعيها بعد أقل من نصف ساعة، يعود الفضل إلى كمية السـم وقوتـه! لقـد خُـدعَت كمـا تُخـدع الفـأرة بسـهولةٍ وسلالة..

لـذلك أنصـحُ الجميـع، لا تظهـروا نقـاط ضـعفكم لأحـد، ولا تثقـوا بأحـدٍ حتـى أولئـك الـذين تظنـون أنكـم تعرفـونهم أكثـر مـن أنفسـكم سـتفاجئون عنـدما تكشـفونهم علـى حقيقـتهم وسـتندمون بعـد أن فـات أوان ذلـك لأنكـم جعلـتم أنفسكم هدفاً سهلاً، كالفأرة.

بعد ساعة..

-لِم فعلتَ هذا يا صديقي؟ تحدق فيَّ بألمٍ.

ارتعبـتُ مـن فكـرة أن أصـبح مجرمـاً، لكـن مـع مـرور الوقـت اسـتطعتُ أن أتغلـب علـى هـاجس الخـوف، فقـد

كانَت معذبتي تموتُ ببطء شديد على مرأى مني وعلى الرغم من معرفتي بأنه لم يكُن الوقت الأنسب للإقدام على فعل كهذا إلا أنني فعلتُ ما بدا لي مناسباً في نهاية المطاف، مستغيثاً بمروان خوري.. تذكرتُ ما قاله في أغنية "أكبر أناني" فقد كنتُ أمر بالتجربة عينها، لكي أجيب على سؤالها:

-أنتِ تعرفين كل شيء، ومع ذلك سأتكبد عناء إخبارك بالحقيقة التي تتجاهلينها، عندما يكون المرء عاشقاً، فإنه يفعل أي شيء ليحصل على قلب مَن يحب حتى لو اضطر إلى القتل، ولأنني لم أستطع أن أتقبل فكرة وجودكِ مع رجل آخر قررتُ أن أفعل ما يمليه علي منطقي المريض، آسف يا صديقتي! قلتُ بعينينِ دامعتين.

فبكت للمرة الأخيرة، وفعلتُ الشيء نفسه.

لقد ماتت، انطفأ وهجها وبهتت روحها وملامحها، صارَت جثة تنبعث منها رائحة الموت، لقد تحولَت لامرأة بشعة، ينقبض قلبكَ لدى رؤيتها، صارت عبارة عن جثة هامدة ينتشر الزراق في كل أنحائه، وتلطخَت كنزتها الوردية، ببقعٍ حمراء فاقعة مع قليلٍ من الزبد؛ إذ امتزجَ الدم النازف من أنفها مع الزبد الذي خرج من فمها، صارَت وقتئذ أشبه بلوحةٍ فنية، مزيج مذهل ما بين التدرجات المختلفة لألوان الموت.

تفاصيل ما قبل الجريمة.. قبل شهرٍ كامل، قضيته أفكر بطريقة ناجحة لكي أتخلص منها جائتني الفرصة على طبق من ذهب!

-عمي، ماذا تفعلُ هنا؟ سألته باستغراب.

-غيث خالتكَ مريضةٌ، جئتُ لكي أحضر لها بعضاً من الأدوية التي وصفها الطبيب.

-خالتي مريضة، عافاها الله وشافاها.

-لم تخبرني، ماذا تفعل هنا؟

-كما تعرف، عمار ابن خالتي، جئتُ لأطمئن عليه وأصحبه لنتناول العشاء معاً، بالمناسبة، أما كان من الأجدر بكَ أن تتصل بي لكي أقوم بشراء الأدوية دون أن تضطر لترك خالتي وحيدة في هذا الوقت؟

-لا تقلق، خالتكَ ليسَت وحدها، فقد أتى يعقوب من منزله ليبقى بقربها، قال ليطمئنني: ذلك الشقي! ليته استطاع أن يصطحب زوجته، فخالتكَ مولعة بها.. إذ تعتقد أن الله بعث مارفل، ليعوضها عما قاسته عند موت سارة.

رسمتُ على شفتي ابتسامة مصطنعة.. لكي لا يكتشف الحقيقة، التي كانَت تقضي بموت ابنته الحبيبة. ففهم أنني لا أرغب في تضييع مزيد من الوقت، وودعني قائلاً: حاول أن تأتي لزيارتنا يا ولدي اسمح لي أن أذهب، فقد تأخرتُ.

ثم اختفى...

-إذاً، يا ابن خالتي، هل أنتَ جاد فيما قلته منذ قليل، ستدعوني لتناول العشاء؟

-اسمع، لا وقت لدي لأضيعه معكَ بسرعة، أعطني سُماً للفئران، أريد أن أرتاح من تلك الفأرة القذرة التي لا تكفُ عن العبث في منزلي.

-ذلك المنزل الرائع؟ كيف استطاعَت الفئران أن تدخله، قال متسائلاً: على كُل لكَ ما تريدُ، أمسك هذه، ناولني السم الذي سأقتل فيه أعز شخصٍ.

-إذا أردتَ أن تتخلص من الفأرة بسرعة، أنصحكَ أن تضع الكثير من السم فوق قطعة من الجبن، ولن تطيل تلك الفأرة، المكوث في منزلك إذ ستجدها ميتة بعد تناولها للسم بوقتٍ قصير جداً..

أصغيتُ إلى نصيحته وقررتُ أن أنفذها بحذافيرها مع القليل من الحذر، إذ سأضيف كمية كبيرة من السُم، إلى الطُعم الذي تفضله فأرتي العزيزة كوب كبير من الشوكولاتة الساخنة سيفي بالغرض، هذه فرصتي ولا يجب عليّ أن أضيعها، مهما كان الثمن الذي سأدفعه فيما بعد غالياً!

ذهبتُ إلى المقهى الذي اعتدنا أن نرتاده فيما مضى، طلبتُ كوبين من الشوكولاتة الساخنة، واحد لي وواحد

لهـــا، إذ مـــن غيـــر الـــوارد أن أزور العـــروس دون أن أحمل معي هدية تليق بها!

ركبـتُ السـيارة وانطلقـتُ إلـى مكـان قصـي، حيـث لـن يـتمكنَ أحـد مـن رؤيتـي وأنـا أعـد الطُّعـم الـذي سيخلصـني مـن تلـك الفـأرة، ركنـتُ السـيارة كيفمـا اتفَـق وأخرجـتُ مـن الصـندوق جـوزاً مـن القفـازات البلاسـتيكية كنـتُ أسـتخدمهم عنـدما أقـوم بتنظيـف السـيارة، لكـي لا تتجـرثم يـدي بحبـات الغبـار، ارتـديتُ القفـازات ثـم أخرجـتُ الكـوب البلاسـتيكي مـن الكـيس، وبعـد ذلـك قمـتُ بفـتحِ العلبـة التـي تحـوي السـم ووضـعتُ كميـة لا بـأس بهـا فـي الكـوب الـذي ستشـربه وبعـدها، أغلقـتُ الكـوب بإحكـام، بحيـث لـن تسـتطيع أن تلاحـظ شـيئاً، ثـم ترجلـتُ مـن السـيارة وقمـتُ بـدفنِ العلبـة التـي تحـوي السـم بحيـث لـن يـتمكن أحـد مـن العثـور عليهـا فـي مكـان كهـذا إذ مـن غيـر الـوارد، أن يقـوم الشـخص، بإخفـاء جريمتـه فـي مكـان تفوح منه رائحة الموت.

بعد أن ماتت..

بقيـتُ جامـداً فـي مكـاني لبرهـةٍ، غيـر مصـدق لِـم تـراه الفأر، لقد قتلتها!

ولكـي أتمكـنَ مـن السـيطرة علـى نفسـي، أغمضـتُ عينـيَّ وأخـذتُ نفسـاً عميقـاً، سـاعدني علـى اسـتعادة بعضـاً مـن هـدوئي، وقمـتُ بتنفيـذ أول فكـرة خطـرَت علـى بـالي، قررتُ أن أخفي جثتها.

فقمتُ بتنظيف المكان؛ إذ أزلتُ آثار الدم والزبد، من على المقعد الذي كانَت تجلس عليه، ووضعتُ الكؤوس البلاستيكية في السيارة، ثم رجعتُ إلى المنزل إذ قمتُ بإحضار بطانية لكي ألف بها الجثة ثم خرجتُ من المنزل بأقصى سرعة لكي لا يلاحظني أحد ممن يسكنون في الحي والذين على حسب ما بدا لي كانوا يغطون في نومٍ عميق، في ذلك الوقت..

صعدتُ إلى السيارة بأنفاس لاهثة وبدون أن أنزع القفازات الصوفية، التي كانَت تخفي تحتها جوزاً آخر من القفازات البلاستيكية من نوعها لكي لا تشكَ الضحية فيَّ أبداً، فقد تحججتُ بالبرد الذي كان على أشده، في تلك الليلة، مما دفعها إلى التصديق، فقد بدا تصرفي منطقياً للغاية بالنسبة لها، وخصوصاً أنها تعرف، أنني عندما يكون الجو بارداً أرتدي كل ما أملك في الخزانة، ابتداءً من الكنزات الصوفية السميكة، وصولاً إلى اللفحة والمعطف والقفازات لكي أتجنب لسعات البرد، التي كانَت تنقض عليَّ، فتجعلني أجلس في المنزل لِما يقارب الأسبوع بسبب المرض، الذي ينخر عظامي كالسوس..

قدتُ السيارة، حتى وصلتُ إلى ذلك المكان حيث سأدفنها وكل ما يتعلق بالجريمة بعيداً عن أعين الناس. أخرجتُ الحفارة التي كنتُ أخبئها في الصندوق الخلفي منذ اليوم الذي قررتُ فيه أن أقتلها، وبدأت بالحفر.

لا تقلقي يا مارفل، صحيح أنني أناني لكنني لن أتركِ تتضايقين، إذ سأجعل القبر واسعاً؛ لكي تتمددي فيه بأريحية، دون أن تضطري لاتخاذ وضعية الجنين! ولا تخافي، إذ لستِ الوحيدة التي دُفنَت هنا بل يوجد أشخاص آخرون، يمكنكِ أن تتسامري معهم وتتبادلون الأحاديث بلغتكم الخاصة: لغة الأموات.

بعد الانتهاء من دفنها، أخرجتُ الكيس الذي يحوي في داخله كل دليل قاطع، ورميتها في الساحة، قبل أن أعود إلى السيارة، لأحضر علبة أعواد الثقاب وقنينة البنزين التي -لن أحرق الجثة بها كما تظنون- ستساعدني في تحويل كل شيء تم استخدامه في تنفيذ الجريمة، إلى رماد: (القفازات، علبة سم، والكؤوس البلاستيكية)

وعدتُ مقرراً أن أدفن تلك الذكرى مع صاحبتها، على أعقابي.

ASRUD
للنشر الالكتروني

الفصل السادس عشر

يعقوب :

-هل كل شيء على ما يرام، يا حبيبتي؟ سألتُ بنبرةٍ يشوبها القلق.

-ألا يفترض أن أكون أنا، مَن تطرح عليكَ هذا السؤال؟ قالت وهي تضحك، أخبرني، كيف حال خالتي؟

-لا تقلقي بشأنها ستتحسن عما قريب، انتبهي على نفسكِ هل فهمتِ؟ سأحاول ألا أتأخر قلتُ بنبرة آمرة.

-هل تعرف كم مرة اتصلتَ منذ خروجكَ من المنزل؟ سألَت بنبرةٍ ساخرة.

-مائة مرة، ولن أكف عن الاتصال أبداً ولو تعديتُ عتبة المليون.

-لِمَ؟ سألت بدلال.

-لأنني لا أملُ من الاستماع إلى صوتكِ العذب، لأنه بمثابة النبض لا يمكنني أن أحيا بدونه.

لكنني لم أكُن لأعرف، أنها المرة الأخيرة التي سأتمكن فيها من الاستماع إلى نبرتها الرخيمة، قبل أن يختطفها الموت مني.

طوال المدة التي قضيتها في بيتِ أهلي، لم تبرح مارفل ذهني، كنتُ خائفاً عليها، لدرجةِ أنني كنتُ أتصل كل

ربع ساعة لأطمئن عليها، وكأنني كنتُ على علمٍ بما سيحدثُ لاحقًا، فاتصلتُ بعد ربع ساعة، لأتأكد إن كانَت على ما يرام وكما توقعتُ، لم تُجب على المكالمة، حاولتُ أن أسيطر على انفعالاتي، من خلال التفكير بأشياء إيجابية على سبيل المثال، أقنعتُ نفسي بأنها ربما تكون في المطبخ، ونسيَت دون قصدٍ منها أن تأخذ الهاتف معها، انتظرتُ إلى أن مرَّت الربع ساعة واتصلتُ ثانية متمنياً أن ترد على الاتصال، لكي تبدد مخاوفي وكالمحاولة الأولى لم أحصل على جواب.

توترتُ ولم أعد أستطع السيطرة على نفسي، طغى الخوف على ملامحي، فأصبحتُ شاحباً كالخريف وعندما لاحظ والدي الذي كان منشغلاً مع أمي حينها مدى قلقي على زوجتي أمرني بالانصراف إلى منزلي، وكالطفلِ الذي يفرح لدى حصوله على لوح إضافي من الشوكولاتة، اغتبطتُ عند سماحه لي بالمغادرة، ويا ليتني لم أخطو خارج عتبة المنزل؛ إذ سأكتشفُ عند عودتي ما لا يسر الخاطر.

بعد نصف ساعة..

-مارفل، ها قد عدتُ يا حبيبتي!

لا أحد يجيبُ.

-مارفل، أين أنتِ يا حبيبتي؟

للمرة الثانية، لم أسمع جواباً.

-ليس الوقت مناسباً للمزاح يا حبيبتي، أين أنتِ؟

لا جواب؛ يبدو أنها تعبت من الانتظار، في مثل هذا الوقت من المرجح أنها نائمة.

صعدتُ الدرج المؤدي إلى غرفة النوم بخطوات مستعجلة. وهناك، اكتشفتُ ما هو صادم.

لم تكُن البطانية، الموضوعة على السرير في مكانها، لقد اختفتْ!

لم أستطع أن أتمالكَ نفسي، فأطلقتُ صرخة مدوية شعرتُ على إثرها، بألمٍ حادٍ في حنجرتي.

فتشتُ المنزلَ رأساً على عقب، ابتداءً من الغرف وصولاً إلى الحديقة، لكن دون فائدة، إذ بائت كل محاولاتي في العثور على مارفل بالفشل لقد تبخرَت!

على العشب، قرب الطاولة الخشبية استطعتُ أن أميز وجود بقعةٍ حمراء، فاقتربتُ بحذر لكي أتبين ماهيتها، إذ ذاك انهارَت أعصابي لأن ما اكتشفته صعقني، جمد أطرافي وعقد لساني.

كانَت تلك البقعة اللزجة، دم عائد إلى شخص ما، وهذا الشخص هو مارفل بكل تأكيد.

انهرتُ على العشب، واضعاً رأسي الذي كاد ينفجر وقتئذ بين يدي، ودخلتُ في نوبة بكاء هستيرية؛ لقد

فقدتُ مارفل! خسرتها بسبب تهاوني واستهتاري، وقلة مسؤوليتي، يؤسفني أن أقر بذلك، لكنني ندمتُ على فعلتي، بعد فوات الأوان!

استطعتُ أن أرد على الاتصال بعد إلحاح شديد من قبل أبي إذ اتصل أكثر من عشر مرات وقلتُ دون وعي، بنبرةٍ طغى عليها الألم..

-لقد ماتَت يا أبي!

-اهدأ يا ولدي، لا أستطيع أن أفهمكَ.. ماذا تقصد؟ مَن هي التي ماتت؟

-مارفل يا أبي، لقد قُتلت.. لقد ماتت!

-كف عن المزاح يا ولد!

-أنا لا أمازحك، بل والأفظع من هذا أنها تبخرت.. لا أستطيع أن أجد لها أثراً!

بعد ساعة...

-اهدأ يا ولدي، من المرجح أنك تتوهم.

-بماذا تفسر وجود الدم في الحديقة إذاً؟

-من المحتمل أنها جرَحت إصبعها أثناء إزالتها للشوائب.

سكتَ لبرهة قبل أن يكمل: هل اتصلتَ بأهلها، هناك احتمال أن تكون عندهم.

-لم أفعل، ولكنني سأتصل الآن.

أثناء المكالمة التي أجريتها مع والدة مارفل، سأروي لكم المحادثة بالتفصيل:

-لقد اشتقتُ لكما يا ولدي!

لقد اشتاقَت "لنا" ولستُ "لكَ" إذاً، مارفل ليسَت هناك كما تمنيتُ.

-ونحن أيضاً يا خالتي قلتُ محاولاً إخفاء الحقيقة المُرة.

-إذاً، متى ستزورنا أنتَ وزوجتكَ الشقية؟ قالَت معاتبة.

ربما تجدينني واقفاً أمام منزلكم، في أي لحظة دون أن تحضر "زوجتي الشقية" معي، إذ ستعتادين في الأيام القادمة على زيارات صهركِ السابق!

-ربما غداً، قلتُ بحماس مصطنع.

-حسناً إذاً، سأنتظركما.

كفي عن التحدث بصيغة الجمع أرجوكِ، أنتِ تقتلينني!

ما إن أغلقتُ سماعة الهاتف، حدقَ والدي في عينيَّ لبرهة آملاً أن يحصل على الجواب الشافي لكنه سرعان ما أدركَ الحقيقة، لم تكُن مارفل في بيتِ أهلها ولم يكُن لديها صديقات يستقبلنها في هذه الساعة المتأخرة مِن الليل. إذاً، لم يبقَ لدينا سوى احتمال وحيد، والذي بدا أكيداً بالنسبة إليَّ، لقد قُتلت!

هرولتُ إلى غرفة النوم، حيث وضعتُ صورتها على المنضدة الموجودة قرب السرير أمسكتُ الصورة وتحسستُ ملامحها بأصابع مرتجفة، ثم -كأم تغني لطفلها أغنية قبل النوم- دندنتُ لها أغنية اعتادَت أن تسمعها عندما نكون متخاصمين:

-حدي خليك.. ما تفل تغيب تترك روحك حدي وتروح.. أنا قلبي بحسه عَلى غيابك صاير مجروح!

عانقتُ الصورة وأجهشتُ بالبكاء، ولم أكُن الشخص الوحيد الذي بكى إذ كان أبي، الذي ضعُف هو الآخر، قد سمحَ لدموعهِ بأن تنهمر.

بعد أربعٍ وعشرين ساعة..

-اسمي فارس، المحقق المسؤول عن هذه القضية.

عندما لاحظ عجزي، طلب مني أن أهدأ لكي يطرحَ عليَّ بعض الأسئلة التي ستساعده في التحقيق.

-إذاً يا يعقوب، هل تشكُ في أحد؟ هل كانت زوجتكَ تتلقى تهديدات من قبل شخص ما؟

-لا، مستحيل يا حضرة المحقق أنتَ لا تعرف مارفل، إنها أضعف من أن تؤذي أحداً.

-أين كنتَ عند وقوع الحادثة؟

-لقد كان في منزلي يا حضرة المحقق، فقد استدعيته لكي يبقى بالقرب من والدته، ريثما أذهب وأحضر لها

بعض الأدوية؛ لأنها متوعكة بعض الشيء، أجاب والدي عوضاً عني.

-دون أن ترافقه الضحية؟ سأل متشككاً.

-ألححتُ عليها في أن ترافقني، لكنها رفضَت ذلك؛ إذ قالَت أنها متعبة وبحاجةٍ إلى الراحة.

-هكذا إذاً، هز المحقق رأسه، لم تكن في المنزل أثناء وقوع الجريمة، ورفضَت زوجتكَ أن ترافقكَ إلى منزل والديكَ؟ سأل لكي يتأكد.

-أجل يا حضرة المحقق، أومأتُ له برأسي.

-وماذا عنها؟ أقصد زوجتكَ، هل سبق لها أن حدثتكَ عن ماضيها، عن الأشخاص الذين مروا في حياتها؟ أعني كما جاء على لسان الكاتب كيغو هيغاشينو، الضحايا يكونون في غالبية الحالات واعين بالمخالب التي تتربص بهم، وغالباً ما يتحدثون عنها من دون قصدٍ منهم.

-لا شيء يا حضرة المحقق، لم تقل لي شيئاً بهذا الخصوص.

حكَّ المحقق ذقنه علامة على حيرته، ثم قال: فهمتُ، إذاً سنقومُ بتحليلِ البصمات ومن ثم سنرى إن كان أحد من القاطنين في الحي قد شاهدوا شخصاً غريباً، دخل إلى منزلكما ليلة أمس.

بعد ساعة...

-هل شاهدتم شخصاً غريباً، غير يعقوب حاول الدخول إلى المنزل ليلة أمس، سأل المحقق جاري أمين.

-لا يا حضرة المحقق، فعلى حسب ما عرفتُ دخل المجرم إلى المنزل حوالي الساعة الحادية عشر ليلاً، أي في وقتٍ كنا جميعنا نائمون فيه، وخصوصاً أنَّ الجو كان شديد البرودة مما منعنا -حتى وإن كنا مستيقظين- من أن نفكر في الخروج من منازلنا، ألا تتفقون معي في الرأي يا جيران؟ سأل الجيران الذين كانوا قد حضروا، لكي يجيبوا على بعض الأسئلة.

-يا لها من قضية معقدة! على كُل، لم يبقَ أمامنا سوى أن ننتظر نتائج التحاليل، علنا نحصل على بصمات ذلك القذر! صرخ بغضبٍ.

بعد ساعة.

-يا إلهي! أي نوع من الأشخاص يكون ذلك المجرم! لا أستطيع أن أصدق كيف استطاع أن يرتكب جريمة على هذه الدرجة من الاتقان والحذر؟

-ماذا تعني يا حضرة المحقق؟ أتقصد أننا لن نعثر على زوجتي.

قلتُ بعينين محمرتين من كثرة البكاء: يؤسفني قول ذلك، هز رأسه في أسف واضح. لكن زوجتكَ قُتلَت من قبل شخص حذق؛ إذ حرص على إخفاء الدليل الذي سيمكننا من القبض

عليه متلبساً وبما أننا لا نملك دليلاً واضحاً ولا نعرف المجرم حتى، فلن نستطيع أن نتخذ الإجراءات اللازمة قبل أن نعثرَ عليه.

سكتَ لبرهةٍ ثم أضاف: لكن لا تقلق؛ فالتحقيقات لا تزال جارية، ولن تتوقف قبل أن نقبض على القاتل، سأترك لكم رقم هاتفي، اتصلوا بي إن عرفتم أي جديد.

غيث:

بعد مرور سنة على ارتكابي للجريمة

لا أدري كيف استطعتُ أن أكتم السر كل هذا الوقت على الرغم من أنني حاولتُ لأكثر من مرة أن أعترف بالحقيقة التي تنهشني من الداخل، إلا أنني كنتُ أتراجع في اللحظة الأخيرة، إذ كنتُ عاجزاً عن مواجهتهم جميعاً، وخصوصاً عائلتها لأنني أعرف جيداً، كم قاسيا ليمتلكا فرصة إنجاب طفل ثم وبدون أن يعرفا، يفقدان ابنتهما الوحيدة على يد الشخص الذي لطالما وثقا به (أنا)، الطفل التشرد الذي عثرا عليه، يبكي عند باب منزلهما.. فقررا أن يدخلاه ويجعلانه أخًا لابنتهما الصغيرة لمعرفتهما بأنهما لن يستطيعا إنجاب طفل آخر غيرها، لكنني خنتُ ثقتهما، إذ قتلتُ شقيقتي الكبرى، بسبب أنانيتي المفرطة واعتقادي بأنني سأنتقم لنفسي، بعد أن خانتني وتزوجَت أعز أصدقائي، الذي أصيبَ بما يشبه الجنون، عند فقدانه لزوجته العزيزة التي ظلَت مخلصة له حتى في لحظاتها الأخيرة؛ إذ ظلت لما يقارب

النصف ساعة تعتذر قائلة: آسفة يا حبيبي، لن أستطيع أن أحقق حلمكَ.

لم أستطع أن أفهم مقصدها في البداية، لكنني فهمتُ كل شيء عندما دخلتُ إلى المنزل لآخذ البطانية، إذ عثرتُ على شيء من شأنه أن يزيد وجع صديقي، فقمتُ بأخذه ووضعته في جيب معطفي، إذ قررتُ أن أخفيه في مكان لا يمكن لأحد أن يعثر عليه فيه.

كنتُ أفعل ما أراه صحيحاً وحسب.. متجاهلاً النتائج الحتمية التي ستفضي إليها أفعالي.

والدة مارفل:

عندما عرفتُ بالأمر، شعرتُ بمزيجٍ من الألم والندم، أولاً، لأنني خسرتُ ابنتي الوحيدة وثانياً: لأنني لم أستطع أن أكونَ أماً كباقي الأمهات إذ أفسدتُ عليها عيش أجمل مراحل حياتها بسبب قلقي المفرط، الذي كانَت تجده مزعجاً في كثير من الأحيان، وأجده طبيعياً في المقابل فمِن المنطقي أن تخاف الأم على أولادها، وخصوصاً إذا كانَت أماً لطفل وحيد، إذ ستكون قلقة دوماً، وصاحبة خيال واسع؛ لأنها إن تأخرت في العودة إلى المنزل لبضع دقائق إضافية فستكون قد توقعَت أسوأ الاحتمالات وهذا أمر طبيعي، يحدث مع كل الأمهات حتى تلك التي تملك عدداً لا بأس به من الأطفال فالخوف غريزة إنسانية بالطبع، لكنها تتفاعل بقوة لدى النساء،

وخصـوصـاً الأمهات منهن؛ لأنهن يخفن على أولادهن حتى من أنفسهن!

وهذا أمر لن يفهمه الأولاد بالطبع، لأنهم يعتقدون عندما نتصـــرف على هذا النحو أننا نتعامل معهم كما نتعامل مع طفل أو طفلة صغيرة.

في تلك الليلة، ذهبتُ إلى غرفتها التي بقيَت على حالها حتى بعد أن غادرَت المنزل.

-مارفل، يا حبيبتي ألا تستطيعين النوم؟ لا بأس سأغني لكِ الأغنية التي تحبينها، ربما تخلدين إلى النوم.

سأنام انتظري يا أحلام حتى سأنام
أغمض عيني وأغفو بسلام
سأطير، سأطير انتظري يا عصافير
في سريري الصغير مهما فينا سافرَت
المسافات ومهما طالت الساعات،
أبحث عنكِ فأجدك في عيني حين
أغمضها في الذات،
سأنام وأجدكِ في المنام إن سأنام
سرقتكِ مني الأيام،
إن سرقتكِ مني الأيام..

وأجهشتُ بالبكاء، تخيلتها هنا، على السرير ممسكة بدبدوبها المفضـــل، وعينيها مغمضـــتين بعفوية، تنتظر ســـماع تلك

الأغنية ومِن ثم تغطُ في نومٍ عميق، في تلكَ اللحظة بالذات، فرضَت الذكريات نفسها بقوة.. فانهالَت عليَّ أشرطة مكدسة من الماضـــي، منذ اللحظة التي عرفتُ فيها أني حامل بها، وصولاً إلى اليوم الذي ارتدَت فيه فستان الزفاف.

الذكرى الأولى:

-انظري يا أمي! لقد كتبتُ اسمكما أنتِ وأبي، قالتْ بعفوية.

-دعيني أرى يا روحي يا له من خط جميل مثلكِ تماماً، ألثم خدها الناعم فتبتسمُ ملأ شدقيها.

الذكرى الثانية:

-آه! إنها تؤلمني كثيراً يا أمي!

-ما كان يجدرُ بكِ أن تركضـي بهذه الطريقة، دون أن تنتبهي للطريق أمامكِ! أصرخ بعصبية بينما أعقم لها الجرح.

-أنا آسفة، تبكي بحرقة، فأجذبها إلى حضني محاولة تهدئتها.

-لا بأس يا صـغيرتي لكن عليكِ أن تكوني حذرة في المرات القادمة؛ فالحياة ليسَت منزلكِ الذي تجدين بين جدرانه الدفء والحنان بل هي طريق محفوف بالمخاطر، ينبغي على كُل مَن يسلكه، أن يكون على درجة كبيرة من الحذر.

الذكرى الأخيرة:

-أرجو أن تسامحني؟

-أوه أمي، لا تجعليني أبكي في ليلة زفافي، هل تريدين أن يراني يعقوب وأنا ملطخة ببقع المكياج، قالَت مداعبة.

توقفت لبرهة ثم استأنفت حديثها:

-لا تقلقي، إن شاء الله، سيمتلئ المنزل بالأطفال وسأحدث أولادي المشاكسين عن جدتهم اللطيفة.

-أحبكِ أيتها الشقية.

-وأنا أيضاً.

عندئذ، سرَت قشعريرة باردة في جسدي، وانتابني الرعب لدى التفكير في أكثر ما كان يخيفني: أن يأتي ذلك اليوم، الذي لن أتمكنَ فيه من رؤية ابنتي، أبداً....

غيث :

"فالحقيقة عابرة، يغسلها وابل المطر".

-إيزابيل الليندي.

ASRUD

بعد ستة أشهر:

طوال هذه المدة، لم أستطع أن أحظى بنومةٍ هانئة فقد كانتْ الكوابيس تلاحقني طوال الوقت لدرجةِ أنني كرهتُ الذهاب إلى السرير ليلاً، إذ صار الخوف مرتبطاً بذلك المكان، فبمجردِ أن أضع رأسي على الوسادة تبدأ أحداث تلك الليلة بالانزلاقِ من ذاكرتي، وأرى مارفل، تحومُ حولي برشاقةٍ وخفة قبل أن تقبض عليَّ بكلتا يديها، فأفقد القدرة على

التنفس.. لقد كنتُ ميتاً بالفعل، يقتلني الإحســـاس بالذنب كل ليلة.

قبل أن يأتي ذلك اليوم، الذي سأتمكن فيه من الإقرار بالحقيقة التي تعذبني دون هوادة.

-أنا جائع يا خالتي، قلتُ بدلال.

-حسـناً، سـتأكل بالطبع لكن أولاً، ادخل إلى الحمام. لتسـتعيد بعضاً من حيويتكَ، قالَت بنبرة صارمة، رضختُ على إثرها.

-لكِ ذلك.

ليتني لم أفعل ما طلبته.

أثناء وجودي في الحمام سمعتُ صوتَ ارتطام شيء ما على الأرضية، فاعتقدتُ أنها أوقعت صحناً أو شيئاً آخر، كما كان يحدث دوماً عندما تنتابها النوبة العصـبية، التي أصـيبت بها بعد موت مارفل، فأكملتُ ما كنتُ أفعله، دون أن أشـــكَ ولو للحظة أنها ستتمكن من العثور على تلك الصورة.

عندما خرجتُ من الحمام وجدتها جالسـة تضـع رأسـها بين يديها وتبكي بحرقة ظننتُ أنها تذكرت ابنتها مرة أخرى، فاقتربتُ منها لكي أحاول تهدئها لكنها رفضَـت عرضـي، إذ دفعتني بعصـــبية، لدرجةِ أنني فقدتُ توازني فوقعتُ وارتطم رأسي بالحائط.

-ما الذي يجري؟ قلتُ وأنا ألهث.

-أين دفنتها أيها القذر؟ قُل لي أين أخفيتَ ابنتي؟

لقد فُضحَ الأمر.. لا فائدة للكذب الآن!

-عمّ تتحدثين يا خالتي؟ أنا لم أقتل أحداً، صـــرختُ محاولاً الدفاع عن نفسي.

-وهذه، كيف استطعتَ الوصول إليها؟ الجميع يعتقد أنَّ مارفل هي الوحيدة التي قُتلت، لكنهم يجهلون أنكَ قتلتها هي وطفلها، أيها المجنون! كيف استطعتَ أن تفعل ذلك؟

-صـــدقيني، لم أعرف أنها كانَت حامل، قتلتها قبل أن أعرف بالأمر، قلتُ وأنا أبكي.

كيف اســـتطاعت أن تعرف أنَّ ابنتها كانت حاملاً؟ وكيف عثرت على الصورة بهذه السهولة؟

-أيها المخادع، طوال حياتي لم أســـتطع الوثوق بكَ حتى عندما وثق بكَ زوجي أجبرني على أن أتقبل وجودك بيننا كنتُ خائفة منكَ وظللتُ أشـــكُ فيكَ، يا لزوجي المســـكين، أتعرف ماذا قال لي قبل أن آتي؟ لقد قال أنه يجب عليكَ أن تأتي لتســـكن معنا، لكي تخفف عنا مصـــابنا وتعوضـــنا عما فقدنا، لم يعرف أنَّ المتشـــرد الذي عامله كابنه، قتل ابنته الوحيدة!

-كفى لم أعد أحتمل مزيداً من اللوم والعتاب، ثم.. كيف تعبثين في أغراضي دون إذن مني؟ -

-أيها النتن، كنتُ أنظف قذارتك فأغمي عليَّ وارتطمتُ بمكتبكَ المتواضعة.

لا حاجة لأن تكمل.. فقد عرفتُ التتمة لوحدي، من المؤكد أن الارتطام كان قوياً، فأوقع عدداً لا بأس به من الكتب، ومن بينهم ذلك الكتاب الذي أخفيتُ بين صفحاته صورة إيكوغرافية لجنين حديث العهد، فقد اعتقدت أنها ستبقى هنا، دون أن يعرف أحد بوجودها خصوصاً مكتبتي، فلا أحد يجرؤ على الاقتراب منها، لمعرفتهم بأنني مهووس بترتيبها لوحدي وبالطريقة التي أحب.

-أين دفنتهما؟!

-حسناً، لا مناص من قول الحقيقة، خفضتُ بصري متجنباً النظر في عينيها.

-هيا قُل لي أين دفنتَ ابنتي وحفيدي؟

-في الغابة، حيث اعتدتُ أن أقضي أوقاتي، ليسَت وحدها فقد دُفن كلاً من أمي وأبي في المكان عينه.

-أي نوع من الأشخاص تكون؟ أنتَ مجنون،لا تسعى إلا لإرضاء أنانيتكَ المريضة!

والدة مارفل / قبل وقوع الحادثة بوقتٍ قصير:

-مرحباً يا أمي؟

أهلاً حبيبتي، لِمَ تتصلين في هذا الوقت، هل...

-أنا حامل!

-ماذا تقولين؟ هل أنتِ جادة؟ كيف عرفتِ ولمَ تأخرتِ لكي تخبريني!

-لم أعرف بالأمر فوراً، أمس بعد أن تكررت حالات الإغماء لدي، ذهبتُ لإجراء التحاليل. وعرفتُ إذ ذاك أني حامل.

-ماذا عن يعقوب؟ هل عرفَ بالأمر؟

-لا! أرجوكِ لا تقولي له شيئاً، أخطط لأن أجعل الأمر مفاجأة له ولوالدي، صرخَت بشيء من الامتعاض.

-حسناً، لكِ ما تريدين يا ابنتي، إذاً، لا تنسي أن تحدثي حفيدي القادم عن جدته اللطيفة اتفقنا؟

-اتفقنا، قالت وهي تضحكُ بعفوية.

عند خروجي من المنزل، بعد أن طردتني والدة مارفل لكن قبل أن أخرج، أعطيتها دفتر المذكرات الذي ولحسن الحظ لم تستطع إيجاده، سلمتها الذكرى الوحيدة التي بقيَت بعد رحيل ابنتها؛ آملاً أن تعثر على إجابات منطقية للأسئلة التي تتزاحم في رأسها.

لم أستطع أن أمحو جملتها الأخيرة من ذهني، فعلى الرغم من أنَّ ما قالته كان صحيحاً، إلا أنني شعرتُ بنوعٍ من الألم المبرح لدى معرفتي بأنني كنتُ شخصاً مريضاً، لا يفعل إلا ما تمليه عليه غرائزه، ولكي تدعم الموقف فرضَت تلك الأغنية، التي غنيتُها لمارفل عندما كانت تحتضر نفسها بقوةٍ فوجدتُ نفسي، أدندنُها لا شعورياً فقد كانَت تمثل ما أمر به،

لدرجةٍ تبعث على القلق إذ أدركتُ الحقيقة ورضختُ لها بعد فوات الأوان.

الإنسان كائن طمّاع، يطمح للحصول على كل شيء، فتراه لا يملُ من الركض خلف شهواته ورغباته المجنونة وبعد؟ ماذا سيحدثُ بعد أن تحصل على كل ما تريد؟ لا شيء بالطبع! ستحدقُ في ما لديكَ بعينِ التأفف والاحتقار، ربما لهذا السبب منحنا الله إمكانيات وقدرات محدودة، دون أن يمنحنا كل ما تشتهيه نفسنا التواقة، لكي نستمر في السعي خلف ما نظن أنه سيسعدنا؛ لنكتشف فيما بعد أننا كنا مخدوعين لكن، وللأسف الشديد، حتى بعد أن نقع في الفخ الذي نصبناه لأنفسنا لن نلومَ إلا الأيام، غافلين عن الحقيقة التي تلمع أمامنا بوضوح، وهي أنَّ الإنسان ضحية لأكثر غرائزه شناعة؛ حيث أنه أكبر أناني بين سائر المخلوقات.

بعرف منّك إلي ولا رح بتكوني يوم

بعرف هوانا مرحلة واقف عَ باب اللوم

ماتت مارڤل وجن يعقوب، أما أنا فأخذت نصيبي كذلك؛ إذ أُصبتُ بالسل -وراثة عن أمي-، وأنتم تعرفون الباقي، أعتذر على إيلامكم، لكننا جميعًا سنلقى ذات المصير لذا احرصوا على أن تكونوا أشخاصًا عقلانيين، لا يمكن لأي من الشهوات أن تسيطر على مجرى حياتكم...

وإذا حدث وصادف أحدكم صديقي يعقوب، أرجوا أن تعطوه هذه الرواية؛ عله يستطيع أن يغفر ذنبي بعدما خسرت كل شيء.

والآنَ، أودعكم...

ASRUD
للنشر الالكتروني

أكبر أناني

ها هو صديقي العزيز، يعترف بحُبه للمرأة التي أحببتُها طيلة هذه السنوات دون أنّ يرف لها جفنٌ، والأفظع مِن كل هذا، هو ردة فعلها إذ لم تُعرني اهتمامًا، وكأنني لم أكن موجودًا في حياتها فيما مضى، كنتُ غريبًا، وسأظل كذلك، كيف تنسى الرجل الذي عشقها مُنذ الصغر كيف يهون عليها كسر قلبي، أنا الذي فعلتُ كُل شيءٍ لأنال رضاها، فلم أنل سوى الصد والرفض، أحببتُها فأذلتني، وها هي الآن تُغلق آخر أبواب الأمل في وجهي، إنها تبتسم لصديقي، وتتبادل وإياه نظرات طافحة بالحُب، وتمنحهُ ما لم تمنحني إياه قلبها!.

أسرد
ASRUD
للنشر الالكتروني